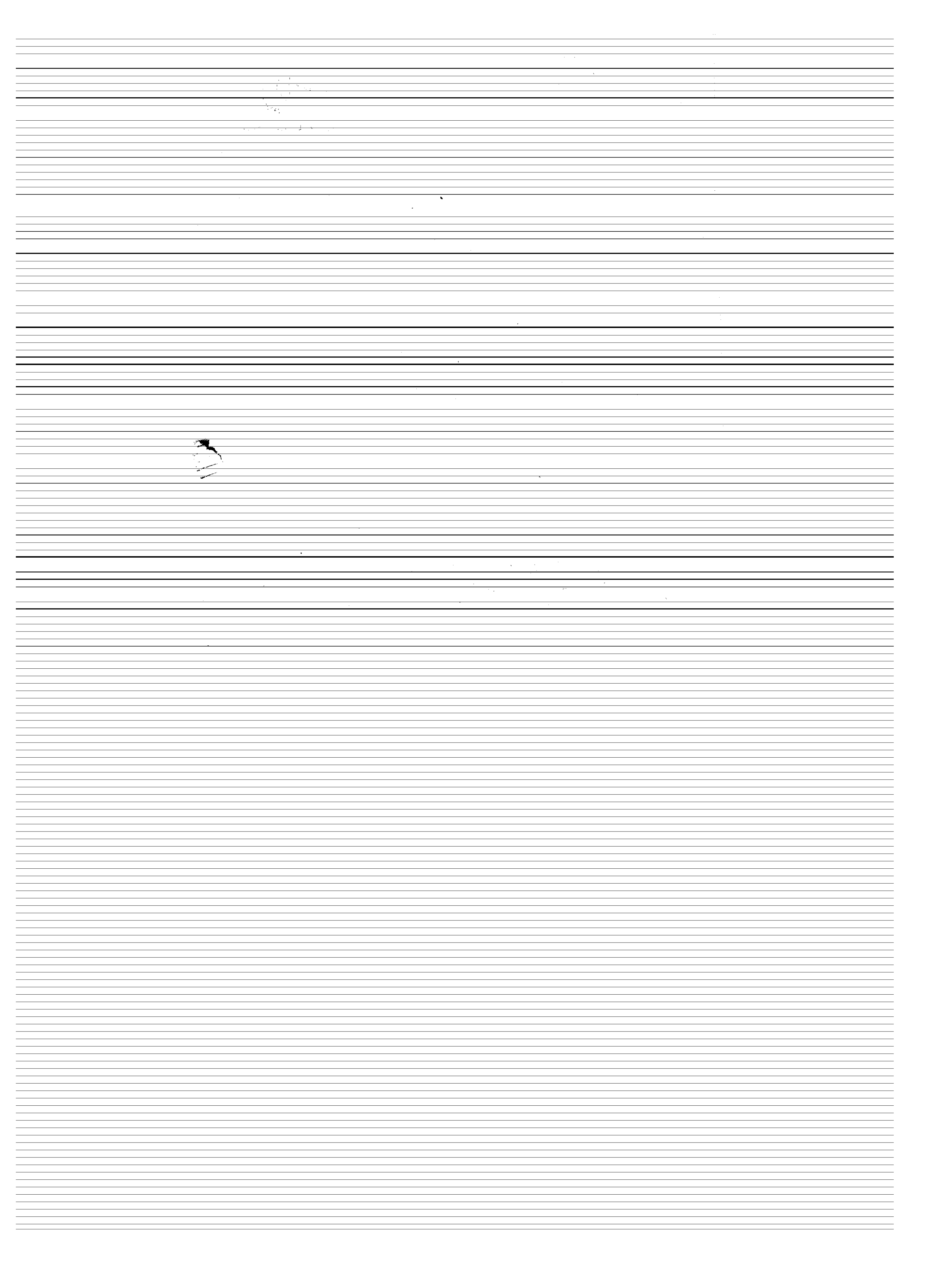




محمود الشرقاوي

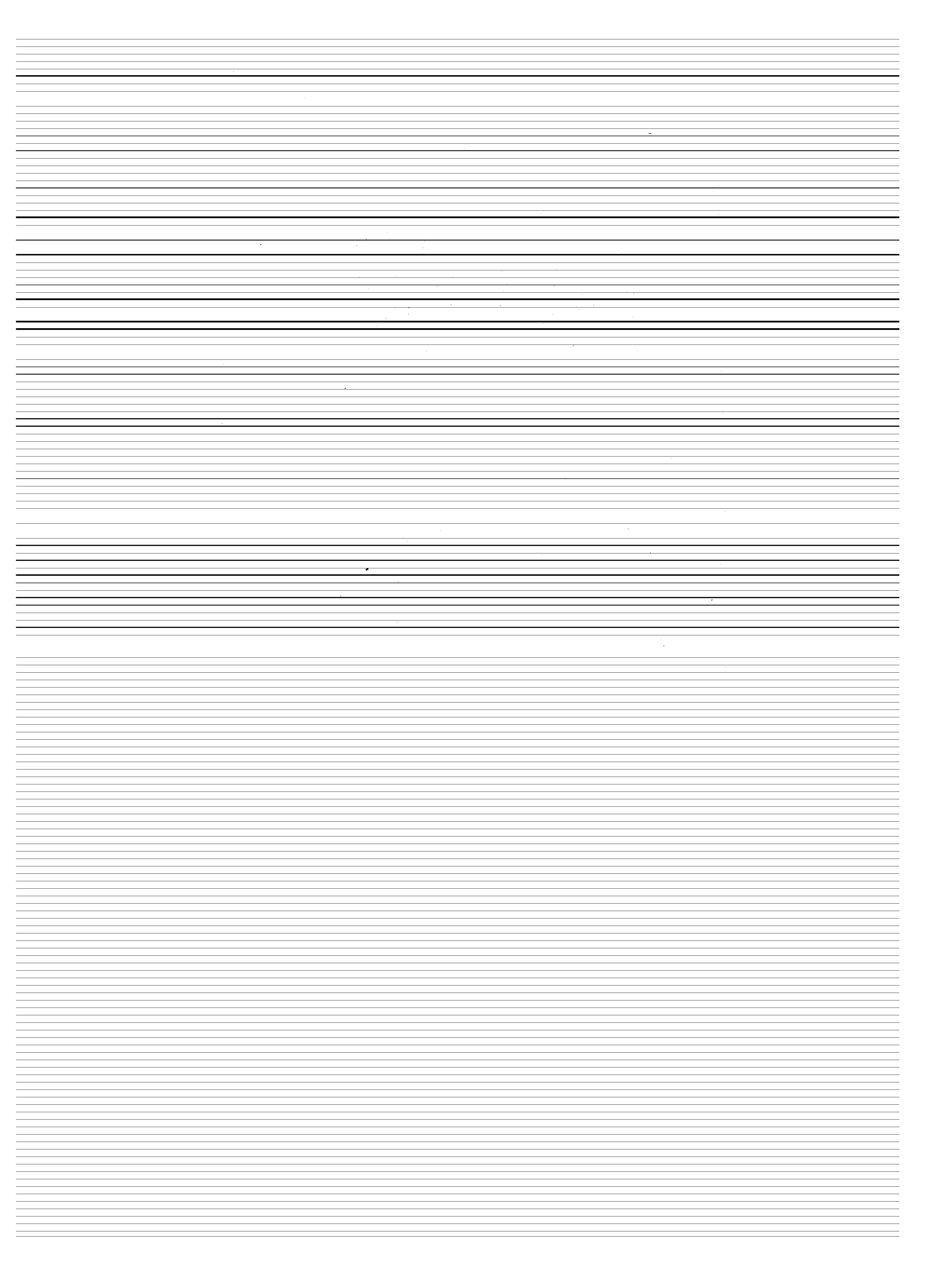


الفهرس



بسم الله الرحمن الرحيم

الحَمْدُ لله رَبِّ العَالَمِينَ . الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ . ملكِ يَوْمِ
الدِّينِ . إيَّاكَ نَعْبُدُ وإيَّاكَ نَسْتَعِينُ . اهْدِنَا الصِّرَاطَ المسْتَقِيمَ .
صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ المَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ
وَلاَ الضَّالِّينَ .



مقدمة

تهفو قلوب الملايين من المسلمين ويهزهم الحنين إلى المدينة التى فتحت قلبها وعقلها لدعوة الحق الذى جاء به محمد من عند ربه ، والتى كافحت كفاحا مجيداً فى صبر وإيمان عن الإسلام ، لتعلو كلمة التوحيد ، ويتم الله نوره .

كانت المدينة قبل أن يهاجر إليها الرسول الكريم ، تعيش أياما عصيبة ، حيث الفتن والحروب محتدمة بين الأوس والخزرج ، والصراع الرهيب الذى يغذى ناره اليهود ينشب بينهم ويقدم بعضهم بعضاً حنطة لرحاه . فلما هدى الله الكثيرين من أهل المدينة إلى الإسلام وهاجر الرسول إليهم . تبددت البغضاء ، وذهب الحقد ، وساد السلام ، وانقلبوا بنعمة من الله وفضل إخوة تسودهم المحبة الصادقة . وآخى الرسول بين أصحابه من المهاجرين والأنصار ، فقال :

— تآخوا فى الله أخوين أخوين .

وأثمرت هذه المؤاخاة ثمرتها الطيبة ، فنجد المهاجرين يأتون الرسول يقولون له .

— « يا رسول الله . ما رأينا مثل قوم قدمنا عليهم ، أحسن مواساة فى قليل ، ولا أحسن بذلا فى كثير ، كفونا المؤونة ، وأشركونا

فى المهنة – الخدمة – حتى لقد خشينا أن يذهبوا بالأجر كله ، فاستدرك الرسول قائلا : إلا ما أثنيتم عليه ، ودعوتم له » .

إن وقوف المدينة فى ثبات ، أمام المؤامرات الضارية التى كان يثيرها أعداء تلو أعداء ، تدافع عن المثل العليا والمبادىء الشريفة التى جاء بها الإسلام ، يدل بما لا يدع مجالا للشك على عمق إيمان أصحاب الرسول من المهاجرين والأنصار بتعاليم الدين الحق ، وكان الرسول الأسوة والمثل بأدبه وخلقه وقوته على الحياة لنشر هذه التعاليم وإحياء الإنسانية بروحها السامى . وهذه الأسوة هى ما تحدث به آثاره فى المدينة حديثا البليغ الذى تهتز له النفس وتسمو به الروح إلى مراتبها العليا حيث تشرق الأرض بنور ربها ويرى الإنسان فيها فضائل السكون مجتمعة .

إن ما توحيه آثار الرسول من هذه المعانى بالغ غاية القوة . ونحن نستطيع أن نجمع هذه المعانى فى عبارة موجزة : تكريس الحياة لمثل أعلى يوجه الإنسان إليه جهوده فيبلغه أو يموت دونه مستشهداً فى سبيله .

ونحن إذا أمعنا الفكر فى كل واحدة من كلمات هذه العبارة رأينا الجلال والقوة والسمو على الحياة متضافرة كلها إلى أنبل غاية . والمثل الأعلى فى الإسلام هو رضا الله بالبر والتقوى وحب المرء لأخيه ما يحب لنفسه . ولقد بلغ من إيمان أصحاب الرسول من المهاجرين والأنصار بهذا المثل أن جعله كل منهم غرض حياته ، وأخضع له كل ما فى الحياة من غرض دونه ، وإن كان الاستشهاد فى سبيله أملا يتمنى أن يجعله الله نصيبه .

وقد علمهم الدين الحق ، أن الأمة يجب أن يكون لها ، كما يجب أن يكون للفرد ، مثل أعلى ، وأن للمسلمين فى كل ركن من أركان العالم أمة واحدة لكل منهم على الآخر ما للأخ على أخيه من حق ، فيجب أن يكونوا يداً واحدة فى سبيل الله يتحابون بنوره بينهم ويبذلون فى سبيله أموالهم وأرواحهم ، يعلمون الناس بذلك أن لا إله إلا هو ، لا يغيب عنه مثقال ذرة فى السموات ولا فى الأرض ، وأنه سبحانه خلق الناس ليتعاونوا على البر والتقوى حتى يبلغوا بالإنسانية كمالها .

هذه المعانى النبيلة هى تعاليم الرسول وتعاليم الإسلام ، وهى ما توحيه آثاره صلى الله عليه وسلم إلى من يقف عندها فى المدينة . ولقد كان من أثر هذه التعاليم أن صارت بلاد العرب قبلة أنظار العالم كله فى حياة الرسول وبعد إختياره الرفيق الأعلى ، امتد الفتح العربى فى عهد أبى بكر وعمر إلى بلاد الأمبراطوريتين الرومانية والفارسية ثم تخطاهما إلى ما وراءهما من أنحاء العالم شرقا وغربا حتى بلغت الحضارة الإسلامية فى ما دون المائة من السنين ما لم تبلغه حضارة غيرها فى قرون .

* * *

كانت هجرة الرسول إلى المدينة بداية مرحلة جديدة للدعوة الإسلامية ، إذ جاء نصر الله والفتح ، ودخل الناس فى دين الله أفواجا ، وتمت كلمة ربك فى جزيرة العرب كلها . ترى لو لم يهاجر الرسول إلى المدينة ،

ولم يدفن بها ، أفكان الناس يزورون للمدينة ؟ أم كانت للمدينة تصير إلى ما صارت إليه الطائف وغير الطائف من مدائن بلاد العرب فلا يقيم بها إلا من تكفى مواردها لقوتهم ومقامهم فى حدود قدرتهم على استغلال هذه الموارد ، وقل أن يزورها أحد من غير أهلها ؟

لست فى حاجة إلى الإجابة عن هذا السؤال وليس يختلف فيه إثنان، فمنذ آمنت المدينة بالإسلام ، واستقبلت الرسول المهاجر إليها ، عرفتها الدنيا ، وحفظها التاريخ .

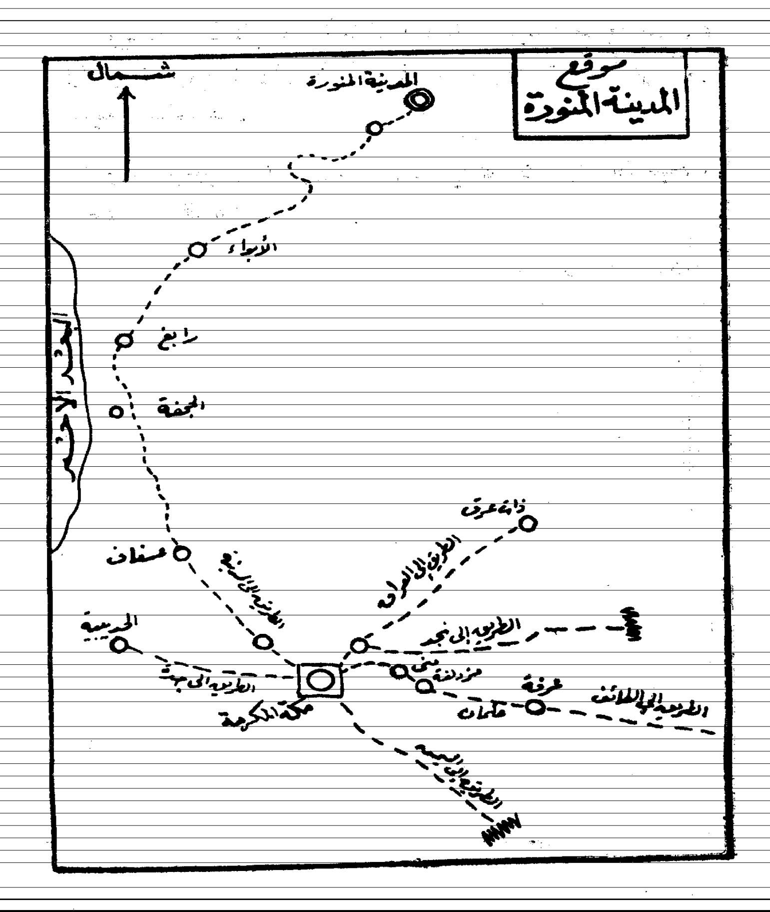
وهذا الكتاب يلم بتاريخ المدينة منذ أقدم العصور إلى اليوم ، ويرسم صورة واضحة القسمات لمجتمع المدينة الذى كانت تمزقه الحروب والفتن التى كان اليهود يغذونها بسمومهم حتى يقوى نفوذهم على حساب الوجود العربى الممزق . ولما هاجر الرسول إلى المدينة تحول الأوس والخزرج — وهم الذين سماهم الرسول فيما بعد بالأنصار — إلى إخوة فى الله ، وانمحت العداوة ، وساد الحب بينهم .

ويروى الكتاب كفاح المدينة البطولى الفذ ، ضد اليهود الذين ناصبوا الرسول العداء ، وحاربوه حربا لا هوادة فيها ، حتى إنتصر عليهم . . بيد أن اليهود كانت تداعب خيالهم فكرة يؤمنون بها وهى أنهم « شعب الله المختار » فلم يستسلموا للهزيمة التى لحقت بهم ، بل راحوا يؤلبون القبائل العربية ويحرضونهم على المسلمين فى المدينة ، ولكن الحق دائماً ينتصر ، فانتصر الرسول والذين آمنوا معه نصراً عزيزاً كريماً .

ويتحدث الكتاب عن الأماكن المقدسة في المدينة : المسجد النبوي، والحجرة النبوية ، والروضة الشريفة . كما يتحدث أيضاً عن آثار المدينة ومساجدها .

وإني أرجو أن أكون قد وفقت فيما قصدت إليه والله سبحانه وتعالى ولي التوفيق .

محمود علي الشرقاوي


موقع
المدينة المنورة
شمال
المدينة المنورة
الأبواء
رابغ
الجحفة
البحر الأحمر
عسفان
الحديبية
الطريق إلى جدة
مكة المكرمة
ذات عرق
الطريق إلى العراق
الطريق إلى نجد
منى
مزدلفة
عرفة
الطريق إلى الطائف
الطريق إلى اليمن

الفصل الأول

المدينة .. فى التاريخ

المدينة هى مدينة الرسول صلى الله عليه وسلم ، فإذا قيل المدينة ، غير مضافة ولا منسوبة . علم أنها هى . قال الله تعالى « يقولون لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل » : وهى يثرب ، قال الله تعالى « يا أهل يثرب لا مقام لكم فارجعوا » . وهى الدار ، قال الله تعالى : « والذين تبوءوا الدار والإيمان » . وهى طيبة ، وطابة ، والعذراء ، وهى جابرة ، والمجبورة ، والمحبة ، والمحبوبة ، والقاصمة قصمت الجبابرة(١) .

وقد بنى يثرب ، يثرب بن قائد بن عبيل بن مهلاييل بن عوض ابن عمليق بن لاوذ بن أرم ، من عرب العمالقة الذين ملكوا فيما ملكوا ، ما بين البحرين وعمان والحجاز ومصر ، ومنهم جبابرة الشام وفراعنة مصر ، وكان يسكنها من هؤلاء العمالقة :

بنو ثقيف وبنو سعد وبنو الأزرق وبنو نطرون ، وكانوا أهل بغى ، وظلوا بها إلى أن صار ملكا عليهم الأرقم من العمالقة ، وكان ذلك أيام موسى عليه السلام(٢) .

(١) البكرى معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع ج ٤ ص ١٢٠٢.

(٢) السمهودى : وفاء الوفا بأخبار دار المصطفى صلى الله عليه وسلم ج ١ ص ١١١ .

ويثرب مشتقة من الكلمة المصرية القديمة « اتريبس » (١) .

وقد سماها بطليموس وستيفان البيزنطى ، يثربا Lathrippa كما سمتها بعض النقوش القديمة ثرب Lathrb (1) (٢). ولعل أثرب هى القراءة الصحيحة لإسم المدينة منذ القدم ، يدل على ذلك أنها أقرب من يثرب إلى كلمة اتريبس المصرية . ولعل يثرب الرجل كان يسمى أثرب ثم حرفه العرب إلى يثرب .

ويقال ان يثرب كانت ناحية من المدينة ليس إلا ، ثم أطلق إسمها على المدينة كلها « من قبيل إطلاق إسم البعض على الكل (٣) » .

وقد عد ياقوت لمدينة الرسول صلى الله عليه وسلم خمسة وعشرين إسماً ، أوصلها صاحب كتاب وفاء الوفا إلى نيف وتسعين إسماً ، كلها ألفاظ مدح وثناء على هذه المدينة الكريمة .

ومساحة المدينة ضعف مساحة مكة وهى تقع إلى الشمال منها ، وتبعد عنها نحو ٥٠٠ كيلومتر ، وهى واقعة على الدرجة ٥٠ر٣٩ طولا شرقا . وعلى الدرجة ٣٢ر٢٤ عرضا شمالا ، وهى فى صحراء مستوية ومتسعة مكشوفة من جهاتها الأربع ، وفى شمالها جبل أحد ، وفى جنوبها الغربى جبل عير .

وتنقسم أراضى المدينة إلى قسمين :

---

(١) دائرة معارف القرن العشرين ، المجلد العاشر .

(٢) دائرة المعارف الاسلامية ، المجلد الثالث .

(٣) السمهودى : المرجع السابق ص ١١١ .

القسم الأول : وهو الأكبر مادته رملية بيضاء خالية من الأملاح ملأته أشجار النخيل والكروم وأكثر ذلك شرقي المدينة .

القسم الثانى : طينته سوداء يزرع به القمح ، والشعير ، والرمان والبرتقال والخوخ والعنب والموز والليم والبطيخ والقاوون والليمون والورد والياسمين والنعناع والفل والخس والفجل ، وجميع أصناف الخضروات ، وأكثر هذا القسم بقباء والعوالى وقربان جنوبي المدينة وبالعقيق غربيها .

وتسقى أراضى المدينة من مياه الآبار التى بعضها حلو وبعضها فيه اليسير من الملوحة ، وإخراج الماء من الآبار التى يختلف عمقها بين قامتين وإثنتى عشرة قامة يتم بواسطة السوانى - وتطلق على الدلو وعلى أداته وعلى الناقة التى يستقى عليها ، وأشهر آبار المدينة :

١ - بئر أريس : وتقع داخل حديقة وعمقها ١٢ متراً ، وفى أسفلها فتحتان يجرى منهما الماء إلى قاع البئر ، وفتحة ثالثة تصلها بمجرى العين الزرقاء التى يشرب منها أهل المدينة .

وأريس الذى سميت البئر باسمه رجل من اليهود ، ومعناه بلغة أهل الشام الفلاح(١) .

وتسمى بئر الخاتم لأن بها وقع خاتم الرسول صلى الله عليه وسلم ، أخرج البخارى فى صحيحه من حديث أنس ، قال : كان خاتم رسول الله صلى الله عليه وسلم فى يده ، وفى يد أبى بكر بعده ، وفى يد عمر بعد

(١) إبراهيم رفعت : مرآة الحرمين جـ ١ ص ٤٢٨ .

أبى بكر ، قال : فلما كان عثمان جلس على بئر أريس فأخرج الخاتم فجعل يعبث به فسقط قال : فاختلفنا ثلاثة أيام مع عثمان ننزح البئر فلم نجده .

وكان ذلك بعد ست سنوات من خلافته ، وثبت عن ابن عمر فى صحيح مسلم أنه سقط فى يدى معيقيب وهو دوسى من أصحاب الهجرتين وفى صحيح البخارى حديث طويل فيه أنه صلى الله عليه وسلم ذهب إلى بئر أريس فتوضأ منها وجلس على قفها (المرتفع منها) وكشف عن ساقيه وأدلى بهما فى البئر وان أبا هريرة تبعه إليهما وثلثهما أبو بكر ، وأتى بعده عمر ثم عثمان فتوضئوا جميعاً منها وجلسوا عليها كما جلس رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وقد جدد أبو بكر بن أحمد السلامى درجا لهذه البئر ينزل منه إلى قاعها من يريد الوضوء أو الشرب وذلك فى سنة ٧١٤ هجرية .

وماء البئر غزير يسير إلى بركة داخل الحديقة وهو عذب فرات شديد النظافة .

٢ — بئر الأعواف : وهى إحدى صدقات الرسول صلى الله عليه وسلم .

٣ — بئرانا : وهى التى ضرب الرسول قبته عندها عندما حاصر بنى قريظة وشرب منها ، وهذه البئر غير معروفة الآن .

٤ — بئر أنس بن مالك بن النضر : وتضاف أيضاً لأبيه ، وهى التى ورد ذكرها فى حديث أنس الصحيح قال : أتانا رسول الله صلى

الله عليه وسلم فى دارنا هذه ، فاستقى فحلبنا شاة لنا ثم شبته من بئرنا هذه فأعطيته فشرب وعمر بين يديه وأبو بكر عن يساره وإعرابى عن يمينه فأعطى الإعرابى ، وقال : الأيمن فالأيمن ، وهذه البئر تعرف الآن ببئر الحضارم .

٥ — بئر بضاعة : فى نهاية عمار المدينة من جهة الشمال .

٦ — بئر بيرحاء : تقع هذه البئر شمال المدينة ، وكان الرسول يستعذب ماءها ، وكانت فى بستان لأبى طلحة وقفه على أقاربه وبنى عمه كما دل على ذلك حديث البخارى فى كتاب الأشربة فى (باب إستعذاب الماء) روى عن أنس بن مالك أنه قال : كان أبو طلحة أكثر أنصارى بالمدينة مالا من نخل وكان أحب ماله إليه بئر بيرحاء وكانت مستقبلة المسجد — المسجد قبليها — وكان الرسول صلى الله عليه وسلم يدخلها ويشرب من ماء فيها طيب قال أنس : فلما نزلت (لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون) قام أبو طلحة فقال : يا رسول الله ؟ إن الله يقول : (لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون) وأنا أحب مالى إلى بيرحاء وأنها صدقة لله أرجو برها وذخرها عند الله فضعها يا رسول الله حيث أراك الله .

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : بخ ذلك مال رابح أو رايح — شك من الراوى — وقد سمعت ما قلت إنى أرى أن تجعلها فى الأقربين ، فقال أبو طلحة : إفعل يا رسول الله . فقسمها أبو طلحة فى أقاربه وفى بنى عمه .

٧ — بئر رومة: وتوجد شمالى المدينة ، وبجوارها حوض وحجرة

للإستراحة ومزارع كثيرة وفي شمالي البئر البركة والعيون التي يحف بها النخيل ، وهذه البئر كانت ليهودي فاشتراها منه عثمان بن عفان بماله وتصدق بها على عهد الرسول صلى الله عليه وسلم ، ذكر ابن عبد البر انها كانت ركية (بئراً) ليهودي يبيع ماءها للمسلمين ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : من يشتري رومة فيجعلها للمسلمين يضرب بدلوه في دلائهم وله بها شرب في الجنة ؟ فأتى عثمان اليهودي فساومه عليها فأبى أن يبيعها كلها ، فاشترى عثمان نصفها باثنى عشر الف درهم ، فجعله للمسلمين .

فقال له عثمان : إن شئت جعلت لنصيبي قرنين ، وإن شئت فلي يوم ولك يوم .

فقال : بل لك يوم ولي يوم ، فكان إذا كان يوم عثمان استقى المسلمون ما يكفيهم يومين ، فلما رأى اليهودي ذلك قال : أفسدت على ركيتي فاشتر النصف الآخر فاشتراه بثمانية آلاف درهم ، وهذه البئر في أسفل وادي العقيق قريبة من مجتمع الأسيال في براح واسع من الأرض .

٨ — بئر غرس : وهي بئر بقباء في شرقي مسجدها على نصف ميل من جهة الشمال ، روى ابن حيان في كتاب الثقات عن أنس أنه قال : إئتوني بماء من بئر غرس ، فإني رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يشرب منها ويتوضأ ، وفي المدينة آبار أخرى مثل بئر البويرة وبئر فاطمة ، وكل هذه الآبار جنوبي للمدينة ، وبئر عروة بوادي

العقيق . وكان أهل المدينة فيما سلف يهدون من مياه البئر الأخيرة لأمراء الشام .

هـــذه هي الآبار التي يعتمد عليها أهل المدينة في سقي أراضيهم ومواشيهم ، أما مياه الشرب فيأخذونها من عين الأزرق ، أو العين الزرقاء على ماهو مشهور في عرفهم ، وهذه العين منشؤها بئر بقباء غربي مسجدها ، وتعرف بالجعفرية ، أجراها إلى المدينة مروان بن الحكم عامل معاوية على المدينة بأمر منه فسار بها حتى مصلى الأعياد ، وقد أقيم عليها بعد قبة هنالك مفتوحة من جانبيها الشمالي والجنوبي حيث في كل جانب منها مدرج في الأرض ينزل منه الناس لأخذ المياه من العين ، وبعد أن تخرج العين إلى ظاهر المدينة الشمالي تسير مبحرة فإذا ما كانت بين مسجد السبق وقبر ذي النفس الزكية ابن جعفر الصادق كان لهـا منهل هنالك ، ومنهل آخر شرقي المسجد المذكور على يمين السائر نحو ثنية الوداع التي تسير العين إليها ثم تجاوزها مارة شمال جبل سلع على مقربة من مسجد الراية ، ولها هنالك منهل قريب من ظهر الأرض له باب ودرج ثلاث ثم تمر غربي الجبلين اللذين في شرقهما مساجد الفتح (مسجد الفتح ومسجد علي ومسجد سلمان) ثم تسير حتى تصل إلى مجمع مائها المسمى «بالبركة» حيث الغابة ذات الأشجار الكثيفة والبساتين النضرة والمزارع الطيبة ، وهــذه العين تبدأ بعيدة المجرى من ظهر الأرض وكلما سارت نحو الشمال إقتربت من ظاهرها حتى تكون على سطح الأرض عند إقترابها من الغابة التي شرقي مسجد رومة ، والمناهل التي قدمنا ذكرها تسمى العيون ، وعين الأزرق أو العين الزرقاء – كما

يسميها أهل المدينة ـ قد وصل بمجراها فى أزمنة مختلفة ثلاث آبار تنسب للرسول صلى الله عليه وسلم بقباء وبئر الرباط وبئر عذق ، ولما تخربت فى أوائل حكم العثمانيين بقيت مدة مهملة حتى لحق أهل المدينة من قلة الماء جهد شديد ، وقد عمرها السلطان سليمان سنة ٩٢٣ هـ ، ثم خربها السيل فعمرها السلطان مراد الثالث سنة ٩٩٩ هـ ، وضم إلى منابعها بئر الغربال التى إشتراها سنة ٩٩٠ هـ . فزادت مياهها أضعاف ما كانت عليه ، وفى سنة ١١١١ هـ إشترى السلطان مصطفى بئر العقد وأضافها إلى منابعها أيضاً ، وفى سنة ١٢١٢ هـ بنى مجراها السلطان سليم الثالث . وجدد البناء السلطان عبد الحميد سنة ١٣٠٠ هـ ، واشترى بئر بويرة وأضافها إلى منابعها فصار لها منابع متعددة تتصل بمجراها الأصلى بواسطة قنوات فى جوف الأرض ، وأصبح المجرى كنهر تتدفق فيه المياه فيشرب الناس والأنعام وتسقى الرياض والمزارع .

وفى ضواحى المدينة عدا العين الزرقاء عيون وادى حمزة التى تبلغ أربعين عيناً أو تزيد ، وحقيقة هذه العيون آبار فتح بعضها إلى بعض فتكونت منها مجار ضيقة تارة تكون نصف متر فى مثله ، وتارة تكون أقل من ذلك أو أكثر ، فسموا تلك المجارى عيوناً ، ومنشؤها شرقى المدينة حيث الأرض العالية وتسير مغربة نحو حمزة ثم إلى غربى المدينة حيث الأرض هنالك واطئة ، وكذلك من عيون المدينة عين السلطان وتجرى بحذاء عين الأزرق فى مجرى دون مجراها وماؤها ملح ، والغرض منها تطهير مجارى المدينة وسحب القاذورات إلى خارج البلد .

وحول المدينة أودية كثيرة كوادى العقيق ووادى بطحان غربى المدينة ، وفى جزء منه بعض مبانيهـا ، ووادى رانون يأتى من جبل عير قبلى المدينة ويمر بقباء ويختلط بوادى بطحان غربى المدينـة ، ووادى مذينيب وهو شعبة من بطحان ، ووادى قناة فى شرق المدينة الشمالى ، وقد فاض هذا الوادى فى سنة ٧٣٤ هـ ، فأغرق الجهة الشمالية من المدينة وصعب على الناس ان يصلوا إلى مشهد حمزة أربعة أشهر ، وفى وديانها وادى مهزور ويأتى من الحرة الشرقية وقد سال هـذا الوادى فى عهد عثمان سيلانا خطيراً خيف على المدينة منه الغرق ،فعمل عثمان الردم الذى عند بئر مدرى ليرد به السـيل عن المسجد النبوى والمدينة وتحول إلى وادى بطحان ، وكذلك سال فى خلافة المنصور ١٥٥ هـ حتى بلغ أنصاف النخيل فى بعض الجهات وهدم بيوت بطحان وبنى جشم ، وقد وفق أهل المدينة إلى نقب كبير كشفوا عنه ففاضت فيه المياه ، ووادى العقيق أطيب جهات المدينـة ماء وهواء ، وحسبنا فى ذلك حديث البخارى الذى رواه عبد الله بن عمر ، سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : بوادى العقيق أتانى الليلة آت من ربى فقال : صل فى هذا الوادى المبارك وقل عمرة فى حجة ، وعن عامر ابن سعد أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ركب إلى العقيق ، ثم رجع فقال : يا عائشة جئنا من العقيق ، فما ألين موطئه وأعذب ماءه ، قالت فقلت : يا رسول الله ، أفلا ننتقل إليه ؟ قال : وكيف وقد إبتنى الناس ؟.

ولطيب هذا الوادى استقطعه بلال بن الحارث من الرسول فاقطعه

له كله ، ولما كان عهد عمر بن الخطاب أخذ منه العقيق الأدنى من المدينة وترك له الأقصى الذى به ذو الحليفة ، قال عبد الله بن أبى بكر لما ولى عمر قال : يابلال ، إنك استقطعت رسول الله صلى الله عليه وسلم أرضاً طويلة عريضة فأقطعها لك وأن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يكن يمنع شيئاً سئله وأنك لا تطيق مافى يدك . فقال : أجل . قال : فانظر ما قويت عليه منها فأمسكه وما لم تطق فادفعه إلينا نقسمه ، فأبى . فقال عمر : والله لنفعلن فأخذ منه ماعجز عن عمارته فقسمه بين المسلمين . وهذا الوادى يطوف بالمدينة من جهة الجنوب والغرب والشمال ولكنه بعيد عنها فهو من جهة الجنوب بعد قباء شمالى وادى النقيع الذى حماه الرسول لخيل الجهاد ، وكانت فيه الدوحات العظيمة والغابات الكثيفة التى يستتر فيها الراكب ، ومبدؤه من جهة الغرب على ميلين من المدينة عند المدرج الحجرى القريب من بئر عروة ، ويمتد غرباً إلى ما بعد ذى الحليفة عند آبار على ، أما من الشمال فينتهى عند بئر رومة ، والقسم المقارب للمدينة من العقيق الغربى يسمى العقيق الكبير أو الأكبر وفيه بئر عروة ، والأقصى الذى فيه ذو الحليفة يطلق عليه العقيق فحسب وهو الذى أبقاه عمر بيد بلال بن الحارث ، والقسم الشمالى يسمى العقيق الصغير أو الأصغر ولديه بئر رومة ، وكل مسيل ماء شقه السيل فى الأرض فأنهره ووسعه عقيق ، وبالعقيق عرصتان وجماوات ثلاث ، والعرصة فى الأصل الفضاء المتسع ليس فيه بناء ، والجماء الهضبة سميت بذلك لأنها دون الجبل فهى أشبه بالشاة الجماء التى لا قرن لها : وإحدى العرصتين تلى بئر رومة وهى

الكبرى منها وتسمى عرصة البقل ، والأخرى بينها وبين العقيق الكبير وتسمى عرصة الماء ، والعرصتان من أفضل بقاع المدينة وأكرم أصقاعها .

أما الجماوات الثلاث فالأولى منها جماء تضارع وتنتهى إلى بئر عروة وما والاه .

والثانية جماء أم خالد وهى فى شمال الأولى ، والثالثة جماء العاقر فى شمال الثانية .

قرى المدينة :

يتبع المدينة قباء وقربان والعوالى وكلها جنوبى المدينة وتعتبر من ضواحيها ، وفى شمالها العيون والبركة عند مسجد حمزة وهما من الضواحى والحنا كية ثم خيبر وهما بعيدان عن المدينة فى شمالها الشرقى . وخيبر بلدة عامرة آهلة ذات نخيل وحدائق ومياه تجرى . وعلى مقربة من خيبر فدك التى صالح اهلها الرسول على النصف من ثمارها سنة اربع من الهجرة ولم يوجف المسلمون عليها بخيل ولا ركاب . فكانت له صلى الله عليه وسلم خالصة ينفق منها على المصالح العامة ، وكان معاوية بن ابى سفيان قد وهبها لمروان بن الحكم ثم ارتجعها منه لموجدة وجدها عليه ، فلما ولى عمر بن عبد العزيز الخلافة ردها إلى ما كانت عليه فى عهد الرسول صلى الله عليه وسلم . وتتبع المدينة النقرة ، وهى قرية على جبل مرتفع منيع .

وقد هاجر اليهود إلى يثرب على موجتين :

الموجة الأولى : عند ما ارسل موسى بن عمران عليه السلام جيشاً من بنى إسرائيل إلى عمالقة الحجاز بيثرب ، وامرهم الا يبقوا على من بلغ الحلم منهم إلا من تهود . فلما بلغ الجيش يثرب اظهره الله على اهلها فقتلوهم جميعاً إلا ذلك الأمير الجميل ابن الأرقم . فقد ضنوا به على الموت ، وظنوا ان موسى عليه السلام لو رآه لاستبقاه لجمال طلعته فرجعوا به إليه ليرى رأيه فيه .

وفعلا اخذوه معهم عند رجوعهم ، ولكن موسى عليه السلام كان قد لقى ربه قبل ان ينظر إلى الشاب او يرى فيه رأياً ، فلما سمع اليهود بمقدمهم خرجوا إليهم لملاقاتهم فأخبروهم بما فتح الله عليهم من بلاد ، ولما سألوهم عن تنفيذهم وصيه نبيهم موسى عليه السلام . اخبروهم انهم لم يستبقوا بالغاً إلا ابن الأرقم . فقال لهم اليهود حينئذ :

— إنكم عصاة حيث خالفتم أمر نبيكم ، ولهذا فلن تدخلوا علينا ابداً .

فرجعوا إلى المدينة ، وساكنوا اهلها ، وبقوا بين ظهرانيها(١) ثم لحق بهم بنو الكاهن بن هارون عليه السلام .

ويشك السهيلي في هذه الرواية فيقول :

[ولا احسب(٢) هذا صحيحاً لبعد عمر موسى عليه السلام] .

(١) السمهودي : ج ١ ص ١١١ ابن خلدون ج ٢ ص ١٨٧
(٢) الروض الأنف : ج ٢ ص ١٦

ولكن إذا سلمنا بأن يثرب اسست بعد سنة ١٧٠٣ ق . م ، تلك السنة التي ذهبت فيها ريح العمالقة في مصر بزوال دولة الهكسوس ، وإذا سلمنا بأن فرعون موسى هو منفتاح ، كان هذا دليلا على ان موسى لم يكن ابعد عهداً من تأسيس يثرب وعمرانها ، إذ كان منفتاح احد ملوك الأسرة التاسعة عشرة التي حكمت مصر بعد خروج العمالقة منها بثلاثة قرون تقريباً ، وهى فترة كافية لتأسيس يثرب وعمرانها

وإذا سلمنا بأن فرعون موسى هو الوليد بن مصعب أحد ملوك الهكسوس أو العمالقة في مصر كما يرى أهل الأثر(١) كان السهيلي صادقاً في ظنه . وكانت الرواية التي نحن بصددها غير صحيحة

ومما يؤكد صدق هذه الرواية عندي ، إذا صح أن منفتاح هو فرعون موسى ، إني لا أجد ما يدفع هذا الفريق من مؤرخي العرب الذين ذكروها إلى اختلاقها(٢)

أما الهجرة الثانية لليهود فكانت حين امتلك الروم الشام ، وأذاقوا اليهود ألوان العذاب ، فذهبوا عند أقاربهم هناك في يثرب

يقول الدكتور إسرائيل ولفنسون إن اليهود نزلوا على البلاد ضيوفاً مضطرين فارين من مخالب النسر الروماني

وكان أخذ الربا شائعاً بينهم لا يرون فيه شيئاً معيباً مطلقاً ، بل يعتبرونه نوعاً من البيع والشراء .

(١) ابن خلدون ، ج ٢ ص ٢٧ .
(٢) جمال الدين عياد : حكومة الرسول (ص) في المدينة : ج ١ ص ٦ .

واقبلوا يقيمون الآطام والحصون على رءوس الجبال والقلاع ليتحصنوا بها وقت الحرب[1] .

وكان يهود يثرب ينقسمون إلى ثلاث عشائر : بنى قينقاع ، وبنى قريظة ، وبنى النضير .

أما بنو قينقاع فاستقلوا بحى الصاغة فى يثرب ، وفيه يتكدس ما تملكه يثرب من الذهب ، وتقع المصارف التى تقرض بالربا .

وكانت قبيلة بنى قينقاع تملك معظم رءوس الأموال التى توظف فى صناعة الأسلحة ، وغيرها من الصناعات وفى تمويل القوافل ، وفى تجارة الذهب .

أما اليهود الآخرون من بنى النضير وبنى قريظة فقد كانوا يقدرون النفوذ الذى يمنحه إمتلاك الأرض فى بلد يعتمد معظم إقتصاده على الزراعة ، ولذلك وظفوا أموالهم فى الزراعة فامتلكوا الحدائق الواسعة ، وكثيراً من الحقول والمراعى .

وقد ذكر الواقدى أن أسرة أبى الحقيق اليهودية تخصصت فى صناعة الحلى وأدوات الزينة ، وكان يفد إليها الناس من مكة يشترون منها الحلى لعرائسهن ونسائهن .

وكان يسكن المدينة حين هاجر اليهود إليها الهجرة الثانية من العرب بعض العمالقة السابق ذكرهم ، وبعض بطون من العرب منهم : بنو الحرمان ، وبنو بلى ، وبنو مرثد ، وبنو الحارث بن بهثة .

---

(١) تاريخ اليهود فى بلاد العرب ص ٦٧ .

وكان لهم بعض الآطام وبقوا على دين آبائهم وعدوا من موالى اليهود .

الأوس والخزرج بالمدينة قبل الاسلام :

الأوس والخزرج الذين سماهم القرآن فيما بعد بالأنصار ، قطحانيون[١] . ينتسبون إلى كهلان ، الذى هو وحمير فرعان من سبأ ابن يشجب بن يعرب بن قحطان .

أما الحميريون فقد بقوا فى اليمن ، ولكن الكهلانيين أو بعبارة أدق قبائل الأزد ، فقد نزحت إلى داخل الجزيرة العربية واختلطت بالعرب المستعربة — بنى إسماعيل — لغة ونسبا[٢] .

والأوس والخزرج ولدا رجل واحد .

أمهما قيلة بنت كاهل بن عذرة بن سعد ، وقيل هى بنت الأرقم ابن عمر بن جفنة بن عمرو مزيقياء .

---

(١) أحد أقسام العرب المسماة بالعاربة ، وكانت تقطن ما بين دجلة والفرات قبل نزوحها إلى اليمن . وهناك قسمان آخران هما : العرب البائدة ، وهم الذين بادوا ودرست آثارهم وانقطعت أخبارهم ، ولا نعرف عنهم شيئا إلا ما ورد فى الكتب السماوية والشعر العربى ، كأخبار عاد وثمود ومن أشهر قبائلهم عاد وثمود وطسم وجديس . أما القسم الثانى فهم العرب المستعربة ، وهم بنو إسماعيل وقد عرفوا فيما بعد بالعدنانيين . وقد اختلطت بها العرب القحطانية وساكنتها بلادها بعد أن نزحت من اليمن وامتزجت بها لغة ونسبا .

(٢) السمهودى : ص ١٢٢ .

وأبوهما : حارثة بن ثعلبة العنقاء (١) بن عمرو مزيقياء (٢) ابن عامر بن ماء السماء بن حارثة الغطريف بن إمرىء القيس البطريق ابن ثعلبة بن مازن بن الأزد بن الغوث بن نبت بن مالك بن زيد بن كهلان ابن سبأ بن يشجب بن يعرب بن قطحان (٣) .

وقد هاجرت قبائل الأزد بما فيها الأوس والخزرج من اليمن إلى داخل الجزيرة العربية وسكنوا يثرب .

أما سبب هجرتهم فقد إختلفت فيه روايات المؤرخين .

فمن قائل : إن سبب خروج عمرو بن عامر من اليمن أنه رأى جرذاً يحفر في سد مارب — الذى كان يحبس عليهم الماء ، فيصرفونه حيث شاءوا من أرضهم — فعلم أنه لا بقاء للسد على ذلك ، فاعتزم الهجرة من اليمن ، فكاد قومه ، فأمر أصغر ولده إذا أغلظ له ولطمه أن يقوم إليه فيلطمه . ففعل إبنه ما أمره به .

فقال عمرو : لا أقيم ببلد لطم وجهي فيه أصغر ولدي .

وعرض أمواله للبيع . فقال اشراف من أشراف اليمن : أغتنموا غضبة عمرو ، فاشتروا منه أمواله ، وإنتقل في ولده وولد ولده ، وقالت الأزد : لا نتخلف عن عمرو بن عامر ، فباعوا أموالهم ، وخرجوا معه ، وتفرقوا في البلدان ، فنزلت آل جفنة غسان بالشام ،

---

(١) إشتهر بذلك لطول عنقه .

(٢) عرف بذلك لأنه كان يمزق عنه كل يوم حلة حتى لا يلبسها أحد بعده

(٣) ابن الأثير ج ١ ص ٣٠٣ ، السمهودى ص ١٢٤

ونزلت الأوس والخزرج يثرب ، ونزلت خزاعة مر الظهران — على مرحلة من مكة — ونزلت ازد السراة « السراة » (جبل مشرف على عرفة) ونزلت ازد عمان « عمان »[1] .

ومن قائل : إن الهجرة قد حصلت بعد حدوث السيل وجرفه لسد مأرب ، وهو المسمى بسيل العرم . . ذلك أنه لما حدث السيل الذى جرف السد قام كبير الأزد عمرو بن عامر وجمع القبائل الأزدية جميعها وقال لهم . سأصف لكم البلاد التى يمكنكم الهجرة إليها فاختاروا أيها رغبتم إذ لا عيش لكم هنا بعد الآن .

فمن كان منكم ذا هم بعيد ، وجمل شديد ، ومراد حديد ، فليلحق بقصر عمان المشيد ، فاختار ذلك المكان جماعة منهم وذهبوا إلى هناك فسموا بأزد عمان .

ومن كان منكم يريد الخمر والخمير ، والديباج والحرير ، والأمر والتأمير ، فيلحق ببصرى وسدير ، وهما من أرض الشام فكان الذى سكنوه آل جفنة بن غسان ، ومن كان منكم يريد الراسخات فى الوحل ، والمطعمات فى المحل ، فيلحق بيثرب ذات النخل ، فاختار ذلك جماعة منهم ، وهم الأوس والخزرج ، أولاد حارثة وذهبوا إلى يثرب .

ومن كان منكم يريد الثياب الرقاق ، والخيول العتاق ، والكنوز

---

(١) ابن هشام ج ١ ص ١٢ .

من الأرزاق ، فليلحق بالعراق . فكان الذين لحقوا بالعراق جذيمة الأبرش ومن كان بالحيرة من غسان[1] .

ونحن نرجح الرأى الثانى ، القائل بخروج الازد من اليمن وهجرتها إلى البلاد المختلفة ، بعد حصول سيل العرم ، الذى جرف سد مأرب .

فقد روى القرآن الكريم هذا الحادث ، فقال فى سورة سبا ما يؤيد ذلك :

(لقد كان لسبا فى مسكنهم آية جنتان عن يمين وشمال كلوا من رزق ربكم واشكروا له بلدة طيبة ورب غفور . فأعرضوا فأرسلنا عليهم سيل العرم وبدلناهم بجنتيهم جنتين ذواتى أكل خمط وأثل وشىء من سدر قليل) .

ولأنه لا يعقل أن يهاجر الازد وهم أشراف اليمن ، من بلادهم ويتفرقوا فى البلاد لخرافة أوحت بها كاهنة ، أو إستنتاج بعثه فأر[2].

وبفرض أن الهجرة كانت نتيجة للسيل ، فيكون الاوس والخزرج قد نزحوا إلى يثرب ، قبل البعثة المحمدية بحوالى قرنين من الزمان .

وصل أولاد حارثة من الاوس والخزرج إلى يثرب (المدينة) وتفرقوا فى مرتفعاتها ومنخفضاتها .

---

(١) السمهودى ج ١ ص ١٢٠ والأغانى ج ١٩ ص ٩٥
(٢) الخضرى : تاريخ الأمم الاسلامية ج ١ ص ١٨

فنهم من نزل مع اليهود فى قراهم ، ومنهم من نزل وحده ، ومنهم من نزل مع العرب من موالى بنى إسرائيل .

وكان حالهم مع اليهود كحال العرب الذين كانوا يدينون بالولاء لهم فعاشوا معهم فى شظف من العيش ، وضيق من الحياة ، وليس للواحد منهم إلا النزر اليسير من النخل ، وبعض المزروعات التى يستخرجها من الارض للوات (١) ، وقد طلب الاوس والخزرج من اليهود أن يعقدوا بينهم جواراً وحلفاً يأمن به بعضهم من بعض ويمتنعون به ممن سواهم فتعاقدوا وتحالفوا .

وظل الاوس والخزرج فى إتفاق دائم ، يتساندون ضد اليهود حيناً ، ومع بعضهم أحياناً ، ويتعاونون فى سبل العيش ، ويتآخون فى الرأى ، وبمرور الزمن تتطلع الاوس والخزرج إلى إنتزاع السيادة من اليهود ، فقد أضحوا يساوون اليهود فى العدد والرجال ، ويتفوقون عليهم بالآطام التى يتحصنون بها ، ويتفوقون أيضاً بالمال والثراء العريض .

تخوف الفريقان من بعضهما حينئذ ، سيما عندما رأى اليهود أن الاوس والخزرج قد أثروا بالمال نوعا وبالرجال حقاً ، فردوا إليهم حلفهم ، وصارحهم بذلك بنو قريظة وبنو النضير أقوى بيوتات اليهود.
وشعر الأوس والخزرج بعد ذلك الإعلان أن اليهود لن يكونوا بعد اليوم حلفاء يطمئنون إلى جوارهم ، وإلى العيش بينهم ، فخافوا

(١) الأغانى ج ١ ص ٩٦

أن يجلوهم عن ديارهم . ظل الأوس والخزرج هكذا خائفين ، حتى نبه بينهم مالك بن العجلان السالمى الخزرجى بن عوف بن الخزرج فسوده الحيان (١) .

وكان الفطيون ملك اليهود بزهرة ، وكانت لا تزف عروس بيثرب من الحيين الأوس والخزرج حتى تدخل عليه فيكون هو الذى يفتضها قبل زوجها ، فتزوجت أخت مالك بن العجلان رجلا من قومها .

فبينا مالك فى نادى قومه ، إذ خرجت اخته فضلاء ، فنظر إليها أهل المجلس . فشق ذلك على مالك ودخل فعنفها وأنبها تأنيباً شديداً .

فقالت :

— ما يصنع بى غداً أعظم من ذلك .

قال :

— وما هو ؟

قالت :

— أهدى إلى غير زوجى .

فلما أمسى مالك حمل سيفه ودخل على الفيطون متنكراً مع النساء ، فلما خف من عنده عدا عليه فقتله . وإنصرف إلى دار قومه .

وبعث هو وجماعة من قومه إلى أولاد عمه وهم أقرب الناس إليه « أزد غسان » بالشام يخبرونهم بحالهم ويشكون إليهم غلبة اليهود .

---

(١) السمهودى ج ١ ص ١٢٥ .

وكان رسولهم الرمق بن زيد بن امرؤ القيس أحد بنى سالم ابن عوف بن الخزرج ، وكان قبيحاً دميما شاعراً بليغاً ، فمضى حتى قدم على أبي جبيلة احد بنى جشم بن الخزرج ، فشكا إليه حالهم وغلبة اليهود عليهم ، وما يتخوفون منهم وأنهم يخشون أن يخرجوهم . وأنشده من شعره ، فتعجب من شعره و بلاغته و قبحه و دمامته .

وقال له :

— عسل طيب فى وعاء خبيث .

فقال الرمق :

— ايها الملك . إنما يحتاج من الرجل إلى اصغريه لسانه وقلبه .

قال :

— صدقت . ثم قال :

— والله ما نزل قوم منا ببلد إلا وقد غلبوا اهله ، واصبحوا ذا سيادة وعزة بينهم فما بالكم ؟

وسار ابو جبيلة فى جيش لجب إلى يثرب (المدينة) لمساعدة اولاد عمه ضد اليهود . وعندما وصل إلى يثرب نزل بذى حرض [1] متظاهراً بأنه يريد اليمن حتى يمكر باليهود فلا يتحصنوا منه فى آطامهم ، فيستعصوا عليه ، فيطول حصاره إياهم ، فأمر ببناء حائط

(١) محلة بظاهر المدينة .

وسور واسع ، ثم ارسل إلى بنى إسرائيل وقال : من اراد الحباء من الملك فليخرج .

فخرج إليه اشراف بنى إسرائيل كلهم فأمر لهم بطعام حتى إجتمعوا فقتلهم عن آخرهم [1] . ولهذا ظل مالك مكروها من اليهود لدرجة انه صور فى كنائسهم و بيعهم ليلعنوه كلما دخلوها [2] .

وكان من نتيجة ذلك ان عزت الأوس والخزرج بالمدينة وإتخذوا الديار والأموال والآطام . واصبح لكل حى منزل يعرف باسمه .

فنجد من بطون الأوس :

- بنى عبد الاشهل بن جشم بن الحارث بن الخزرج الاصغر ابن عمر بن مالك بن الاوس بن حارثة ، وكذا بنو حارثة بن الحارث ابن الخزرج الاصغر ينزلون حيا يعرف بحى بنى عبد الاشهل ، ومن آطامهم واقم والرعل .
- بنى ظفر وهو كعب بن الخزرج الاصغر ينزلون منزلا يعرف باسمهم كذلك .
- بنى عمر بن عوف بن مالك بن الاوس ينزلون قباء ، ومن آطامهم يومئذ الشنيف والصياصى ، وكذلك بنو قطمة وبنو امية وبنو عطية وبنو زامل فكان كل يحتل منزلا يناسبه .

وبطون الخزرج :

---

(١) الأغانى ج ١٠ ص ٩٨ ، السمهودى ج ١ ص ١٢٧ .
(٢) الأغانى ج ١٩ ص ٩٧ .

• بنو غنم وبنو سالم إبنا عوف بن عمرو بن عوف بن الخزرج الأكبر وينزلون منزلا واحدا ، وكذا بنو سلمة بن جشم بن الخزرج ، وكذا بنو سواد بن غنم بن كعب ، وكذا بنو عبيد بن سلمة ، وبنو حرام بن سلمة ، وبنو بياضة وزريق إبنا عامر بن غضب ، وبنو حارثة ابن غضب ، وكل قد نزل منزلا خاصا به .

وكذا بنو ساعدة بن كعب بن الخزرج الأكبر .

فبنو عمرو وبنو ثعلبة إبنا الخزرج بن ساعدة قد نزلوا منزلا .

وبنو قشبة عامر بن الخزرج بن ساعدة قد نزلوا منزلا آخر .

وبنو خزيمة بن ثعلبة بن طريف بن ساعدة من الخزرج (١) نزلوا منزلا كذلك (٢) .

وبنو وقش وبنو عثمان .. ابن ساعدة كذلك (٣) .

وبنو مالك بن النجار ، وبنو عدى بن النجار ، وبنو مازن ابن النجار ، وبنو دينار بن النجار ، كل نزل منزلا كذلك .

بعد أن أمتلك الأوس والخزرج نواحى المدينة ومرافقها ، إنحازت كل عشيرة من اليهود إلى قبيل من الأوس والخزرج تاخذ لها حليفا ونصيراً تمده بالأموال والسلاح ليحميها ، وقد فعل اليهود ذلك طمعاً

---

(١) رهط سعد بن عبادة .

(٢) وفيه سقيفه بنى ساعدة ومن آطامهم واسط .

(٣) السمهودى ص ١٥١ .

فى اثارة الفتن والحروب بين الأوس والخزرج حتى ينشغلوا عن اليهود أولا ، وحتى يضعفوا ثانياً ، وحتى يكونوا هم القادة والمحركين لهم ولو من وراء ستار ـ ثالثاً .

ولهذا نرى بين الأوس والخزرج من الحروب الطاحنة ما خلدها الشعراء وسجلها المؤرخون ، والتى ظلت قائمة محتدمة بينهم ، أكلت رجالهم ، وفرقت جماعتهم ، ولم ينتشلهم مادياً وروحياً إلا محمد بن عبد الله عندما آمنوا به وأسلموا إليه زمامهم ، فوحد كلمتهم تحت راية الآسلام .

ومن حروبهم :

حرب سمير :

كان هذا أول خلاف بين الأوس والخزرج ، وسببها : أن حليفاً لمالك بن العجلان الخزرجى ، قتله رجل يدعى سمير الأوسى ، فطالب الخزرج الأوس بديته كاملة ، وكان العرف السائد ، أن دية الحليف هى دية النسيب ، فرفضت الأوس ذلك ، فقامت الحرب الطاحنة بينهما سجالا ، وأخيراً قبلت الأوس المتصرة ، حكم المنذر بن حرام النجارى الخزرجى ، جد حسان بن ثابت ، وقبل الخزرج حكمه كذلك(١) .

يوم فارع :

والسبب فى هذه الحرب أن رجلا من بنى النجار الخزرجيين ، قتل رجلا جاراً لمعاذ بن النعمان الأوسى ، والد سعد بن معاذ الصحابى ،

(١) ابن الأثير ج ١ ص ٣٠٤

فطلب الأوس من الخزرج : الدية أو القاتل . فرفض الخزرج ذلك.
فقال الأوس : والله إن لم تفعلوا فسنقتل به عامر بن الأطنابة الخزرجي
وكان من أشرافهم فلما بلغ ذلك عامراً قال .

إلا من مبلغ الأكفاء عني ؟ وقد تهدى النصيحة للنصيح
فإنكم وما ترجون شطري من القول المزجى والصريح
سيندم بعضكم عجلا عليه وما أثر اللسان إلى الجريح !
أبت لي عزتي وأبى بلائي وأخذ الحمد بالثمن الربيح
وإعطائي على المكروه مالي وضربي هامة البطل المشيح
وقولي كلما جشأت وجاشت مكانك تحمدي أو تستريحي
لأدفع عن مآثر صالحات وأحمي بعد عن عرض صحيح
بذي شطب كلون الملح صاف ونفس لا تقر على القبيح

ولما رأى معاذ بن النعمان إمتناع الخزرج عن الدية أو القاتل ، طلبهم للحرب ، فدارت معركة رهيبة عند فارع[1] ، وحمل عامر ابن الأطنابة الدية إلى الأوس ، كما حمل إليهم السلام مسجلا ذلك في قوله :

أبي من القوم الذين إذا افتدوا بدأوا ببر الله ثم النائل
المانعين من الخنى جيرانهم والحاشدين على طعام النازل
والخالطين غنيهم بفقيرهم والباذلين عطاءهم للسائل

(١) أطم لحسان بن ثابت الخزرجي .

ليسوا بأنكاس ولا ميل إذا ما الحرب شبت أشعلوا بالشاعل
لا يطيعون وهم على أحسابهم يشفون بالأحلام داء الجاهل

حرب حاطب : وسببها أن أحد الأوسيين ، دفع يهودياً للطم ضيف لحاطب الخزرجي بسوق المدينة ، وعندما علم حاطب بذلك قتل اليهودى ، فذهب الأوسى وقتل واحداً من الخزرج ، وهنا قامت الحرب بين الأوس والخزرج في عدة مواضع ، منها : يوم الجسر وكان النصر فيه للخزرج ، ويوم الربيع وكان النصر فيه للخزرج أيضاً ، ثم يوم البقيع وكان النصر فيه للأوس ، وأخيراً تصالحوا على أن يعطى الخزرج ثلاثة غلمان منهم رهينة لدى الأوس ، بيد أن الأوس غدرت بهم وقتلتهم ولذا وقع بينهم .

يوم الفجار الأول [1] : وكان رئيس الخزرج فيه ، عبد الله ابن أبى سلول ، ورئيس الأوس أبو قيس بن الأسلت الأوسى ، ولم يكن النصر فيه لأحد .

ثم كان يوم فعبس ومضرس [2] وكان النصر فيه للخزرج .

طلب الأوس الحلف من قريش :

خرج بعض رجالات الأوس يطلبون حلف قريش ، فساروا إلى مكة وحالفوا قريشاً ، وكان أبو جهل غائباً فلما قدم أنكر ذلك ، وقال لهم :

---

(١) سمي يوم الفجار لغدرهم بالغلمان .
(٢) هما حائطان أسندت إلى الأول الأوس . وإلى الثانى الخزرج حين القتال .

— « أما سمعتم قول الأوائل : ويل للأهل من النازل ، إنهم لأهل عدد وجلد ، ولقلما نزل قوم على قوم منهم إلا اخرجوهم من بلادهم وغلبوهم عليها ؟ » .

قالوا : فما المخرج من حلفهم ؟

قال : انا أكفيكوهم .

ثم خرج حتى اتى الأوس فقال لهم :

— « إنكم حالفتم قومي وانا غائب فجئت لأحالفكم ، واذكر لكم من امرنا ما تكونوا بعده على رأى من امركم . إنا قوم تخرج اماؤنا إلى اسواقنا ، ولا يزال الرجل منا يدرك الأمة فيضرب عجيزتها فإن طابت انفسكم ان تفعل نساؤكم مثل ما تفعل نساؤنا حالفنا كم ، وإن كرهتم ذلك فردوا إلينا حلفنا » .

فقالوا : — وكانوا ذوى غيرة شديدة على نسائهم — لا نقر بهذا ، وردوا إليهم حلفهم ورجعوا إلى بلادهم .

يوم الفجار الثاني :

طلب الأوس من بني قريظة وبني النضير عقد حلف معهم ، فبلغ الخزرج الخبر فطلبوا من اليهود : اما الرهائن حتى لا ينضموا إلى الأوس ، واما الحرب . فأعطوهم اربعين غلاماً يهودياً رهينة ، بيد انهم إنضموا إلى الأوس سراً وغدروا بالخزرج ، فقتل الخزرج الرهائن فقامت معركة طاحنة بين الأوس والخزرج ، ولم يكن النصر فيها حاسما لفريق على آخر .

يوم بعاث :

إنحاز اليهود من بني قريظة و بني النضير إلى الأوس، لأنهم وجدوا ألا مناص من ذلك بعد ان تأكد الخزرج من نياتهم السيئة نحوهم، فساعدوا الأوس بالمال والعتاد والآطام. واستعانت الخزرج بحلفاء آخرين من العرب، واخيراً قامت الحرب ببعاث[1].

وكان على رأس الأوس حضير الكتائب بن سماك. وعلى راس الخزرج عمرو بن النعمان البياضي. وتخلف عبد الله بن ابي بن سلول وجماعته.

فإنهزمت الأوس وولت الأدبار، لولا ان رئيسهم حضيراً عقر دمه بسنان رمحه صائحاً :

- واعقراه ! والله لا اعود حتى اقتل، فإن شئتم يا معشر الأوس فافعلوا !

فتكاثروا حوله يحمونه. فالت رحى الحرب على الخزرج، وقتل رئيسهم عمرو بن النعمان البياضي الخزرجي، وجرح حضير جرحاً مميتاً لم يمهله اياما، وكرت الأوس على الخزرج لنهب الدور وحرق النخيل لولا ان قال قائلهم :

- يا معشر الأوس ! أحسنوا ولا تهلكوا، فإن الخزرج إخوانكم وجوارهم خير من جوار الثعالب (اليهود). فكفوا ايديهم. بيد ان

---

(١) حي من أحياء بني قريظة .

اليهود ظلوا يعملون فيهم السلب والنهب ، وقد وجدوا الفرصة سانحة لإضعاف الخزرج ، وكسر شوكتهم .

وما إنتهى يوم بعاث حتى كان الأوس والخزرج قد سئموا القتال ، واتفقوا على الصلح (١) وتطلعوا إلى حياة اخرى يسود فيها السلام ، ويعم الصفاء . وها هم الآن يتلفتون فيبحثون عن رجل يوحد كلتهم ، ويجمع شملهم كما جمعهم مالك بن العجلان الخزرجي ، فلمسوا من هذه الوحدة السيادة والسؤدد .

واجمع اهل يثرب على تتويج عبد الله بن ابى سلول ملكا عليهم(٢) وكاد الامر يتم لابن ابى فيرأس الحكومة ويلي الملك لولا ان هاجر الرسول صلى الله عليه وسلم إلى المدينة ، فالتف الانصار حوله ، واعرضوا عن ابن ابى فلم تتم حكومته ، إذ قامت حكومة الرسول مكانها .

---

(١) القلقشندى : صبح الأعشى ج ٥ ص ٢٩٥

(٢) ابن هشام : ص ٢٠



الفصل الثاني

أنصار الإسلام

غادر الرسول صلى الله عليه وسلم الطائف إلى مكة ، بعد ان آذته ثقيف واعرضت عن دين الحق ورسالة السماء ، واخذت الإرستقراطية القرشية الطاغية تنكل به وبأصحابه اشد التنكيل . ولكنه إنطلق يدعو إلى الإسلام بالحكمة والموعظة الحسنة . فأخذ يعرض نفسه على قبائل العرب فى كل موسم حج . وصادف ان لقى ستة نفر من الخزرج فدعاهم إلى الإسلام ، وتلا عليهم القرآن ، فاستجابوا له وصدقوه .

وقالوا له : إنا قد تركنا قومنا ولا قوم بينهم من العداوة والشر ما بينهم ، وعسى ان يجمعهم الله بك ، وسنقدم عليهم فندعوهم إلى امرك ونعرض عليهم الذى اجبناك إليه من هذا الدين ، فإن يجمعهم الله عليه ، فلا رجل اعز منك .

ثم انصرفوا عن رسول الله راجعين إلى بلادهم ، فلما قدموا المدينة ذكروا لاهلها رسول الله ودعوهم إلى دين الله ، حتى انتشر بينهم وفشا فيهم (١).

فلما كان موسم الحج الذى يسبق الهجرة بسنة وثلاثة اشهر قدم مكة إثنا عشر رجلا من اهل المدينة ، لقوا الرسول بالعقبة وبايعوه فى

---

(١) ابن سعد . الطبقات الكبرى ج ١ ص ٢١٣ .

تلك الليلة . وقد سميت تلك البيعة « بيعة العقبة الاولى » قال عبادة ابن الصامت:

(كنت فيمن حضر العقبة الاولى ، وكنا اثنى عشر رجلا ، فبايعنا رسول الله صلى الله عليه وسلم على بيعة النساء ، وذلك قبل ان يفترض علينا الحرب ، على الا نشرك بالله شيئاً ، ولا نسرق ولا نعصيه فى مكروه ، فإن وفيتم فلكم الجنة ، وإن غشيتم من ذلك فأمركم إلى الله عز وجل إن شاء غفر ، وإن شاء عذب [1]) .

وقد ارسل الرسول مع اهل يثرب مصعب بن عمير يقرئهم القرآن ويعلمهم الإسلام ، ويؤمهم فى المسجد ، وكان يسمى المقرىء [2] .

وكان سعد بن معاذ واسيد بن حضير ، شيخى بنى عبد الاشهل فى ذلك الحين . وقدحدث ذات يوم أن كان مصعب جالساً مع أسعد بن زرارة فى دار بنى ظفر ، وكانا مشغولين بنشر تعاليم الإسلام بين من دخلوا فيه حديثاً إذ قدم سعد بن معاذ ليعرف مكانهم .

وقال لاسيد بن حضير :

— « لا اباللك ! إنطلق إلى هذين الرجلين اللذين قد أتيا دارنا ليسفها ضعفاءنا ، فازجرهما وانههما ان يأتيا دارنا ، فإنه لولا أن أسعد ابن زرارة من حيث قد علمت ، لكفيتك » .

(وكان سعد بن معاذ بن خالة اسعد) .

---

(١) ابن هشام ، ج ٢ ص ٣٣ .
(٢) ابن سعد : الطبقات الكبرى ج ٣ ص ٨٣ .

عندئذ اخذ أسيد حربته ، وانطلق إلى اسعد ومصعب ، ثم صاح بهما :

— « ما جاء بكما إلينا ؟ اتسفهان ضعفاءنا ؟ إعتزلانا إن كانت لكما في نفسيكما حاجة » .

فأجاب مصعب في هدوء :

— « او تجلس فتسمع ؟ فإن رضيت امراً قبلته ، وإن كرهته ، فكف عنه » .

فركز اسيد حربته في الارض ، وجلس إليهما يسمع ، ومصعب يشرح له مبادىء الإسلام ويقرأ بعض آيات من القرآن الكريم . فصاح بعد برهة :

كيف تصنعون إذا اردتم ان تدخلوا في هذا الدين ؟

فأجاب مصعب :

— تغتسل ، وتطهر ثوبيك ، ثم تشهد ان لا إله إلا الله وان محمداً رسول الله . فاستجاب اسيد لساعته ، وردد شهادة الإسلام ، ثم قال :

— إن ورائي رجلا « يشير إلى سعد بن معاذ » إن اتبعكما ، لم يتخلف عنه احد من قومه ، وسأرسله إليكما الآن .

وانصرف ، وما لبث ان جاء سعد بن معاذ نفسه ثائراً على اسعد لما قدمه لدعاة الإسلام من تأييد ، فرجا منه مصعب الا يحكم على الدين قبل ان ينظر فيه ، عندئذ رضى ان يصغي إلى كلام مصعب ، وسرعان

ما أثر فيه ، وحمل الإقناع إلى قلبه ، فآمن بالإسلام ، ثم رجع إلى قومه يلتهب حماسة وقال لهم :

— « يابنى عبد الأشهل . كيف تعلمون أمرى فيكم ؟

فقالوا :

— سيدنا وافضلنا رأياً وإءننا نقيبة .

فقال سعد :

— فإن كلام رجالكم ونسائكم على حرام حتى تؤمنوا بالله ورسوله .

ومنذ ذلك اليوم أسلم كل آل عبد الأشهل . كما أسلم كثير من أهل يثرب ، حتى لم يبق دار من دورها ، إلا فيها مسلمون ومسلمات .

وفى موسم الحج التالى (السنة الثالثة عشرة من البعثة) خرج من يثرب ثلاثة وسبعون شخصاً من المسلمين قاصدين مكة ، وقد عزموا على أن يدعو الرسول للهجرة إلى يثرب ، وبايعوه على أنه نبيهم وزعيمهم .

واجتمع محمد ومعه عمه العباس بن عبد المطلب باليثربيين عند العقبة ودار بينهم الحوار التالى (١) :

العباس بن عبد المطلب : يا معشر الخزرج ، إن محمداً منا حيث علمتم ، وقد منعناه من قومنا ، فهو فى عز ومنعة فى بلده ، وأنه قد

(١) ابن هشام ج ١ ص٢٦٥ ، السيرة الحلبية ج ٢ ص ١٤ و ٢٠ ، ابن الأثير ج ٢ ص٤٧ ، السمهودى ج ١ ص ١٦٢

أبى إلا الانحياز إليكم ، واللحوق بكم ، فإن كنتم ترون : أنكم وافون له بما دعوتموه إليه ، ومانعوه ممن خالفه ، فأنتم وما تحملتم من ذلك ، وإن كنتم ترون : انكم مسلموه وخاذلوه بعد الخروج به إليكم ، فمن الآن فدعوه .

عبد الله بن رواحة : يارسول الله اشترط لربك ولنفسك ما شئت .

محمد : يتلو شيئاً من القرآن ، ويرغب فى الإسلام ، ويدعو إلى الله ثم يقول : أشترط لربى : أن تعبدوه ولاتشركوا به شيئاً ، واشترط لنفسى : ان تمنعونى مما تمنعون به نساءكم وأبناءكم .

البراء بن عازب : نعم . والذى بعثك بالحق ، لنمنعك مما نمنع به ذرارينا ، فبايعنا يارسول الله ، فنحن والله اهل الحروب ، واهل الحلقة [١] ، ورثناها كابراً عن كابر .

أبو الهيثم بن التيهان : يارسول الله إن بيننا و بين الرجال — اليهود — حبالا [٢] ، ونحن قاطعوها ، فهل عسيت إن نحن فعلنا ذلك ، ثم اظهرك الله ان ترجع إلى قومك وتدعنا ؟

محمد : مبتسما — بل الدم الدم ، والهدم الهدم [٣] ، انتم منى ،

---

(١) الحلقة بفتح الحاء وسكون اللام وفتح القاف اسم لجملة السلاح والدروع وما أشبهها

(٢) الحبال كناية عن العهود

(٢) الهدم الهدم : بسكون الدال وفتحها فبالفتح معناها القبر ، يعنى

وأنا منكم ، أحارب من حاربتم ، وأسالم من سالمتم .

ويهم القوم بالبيعة فيعترضهم العباس بن عبادة بن نضلة الأنصارى قائلا :

يامعشر الخزرج[1] ! اتعلمون علام تبايعون هذا الرجل ؟ إنكم تبايعونه على حرب الأحمر والأسود من الناس ، فإن كنتم ترون أنكم إذا نهكت اموالكم مصيبة واشرافكم قتلا اسلمتموه فمن الآن فدعوه ، فهو والله إن فعلتم خزى الدنيا والآخرة . وإن كنتم ترون انكم وافون له بما دعوتموه إليه على نهكة الأموال وقتل الأشراف فخذوه ، فهو والله خير الدنيا والآخرة .

فأجاب القوم : إنا نأخذه على مصيبة الأموال وقتل الأشراف ، فمالنا يارسول الله إن نحن وفينا بذلك .

ورد عليهم الرسول مطمئن النفس قائلا : الجنة .

ومدوا إليه أيديهم ، فبسط يده فبايعوه ، فلما فرغوا من البيعة قال لهم الرسول :

— اخرجوا لى منكم اثنى عشر نقيباً يكونون على قومهم بما فيهم كفلاء .

— أقبرحيث تقبرون وباسكون معناها إهدار الدم ويأتى المعنى أيضا مع فتح الدال أى إن طلب دمكم فقد طلب دمى ، وإن أهدر دمكم فقدأهدر دمى

(١) كانت العرب تطلقه على الأوس والخزرج معا لأن القوة والمنعة والرجال كانوا فيهم ابن الأثير ج ٢ ص ٤٧

فاختار القوم تسعة من الخزرج وثلاثة من الأوس وهم :

١ — سعد بن عبادة الخزرجى
٢ المنذر بن عمرو الخزرجى نقيبا بنى ساعدة
٣ اسعد بن زرارة الخزرجى نقيب بنى النجار
٤ — سعد بن ربيع الخزرجى
٥ — عبد الله بن رواحة
الخزرجى نقيبا بنى الحارث
٦ — رافع بن مالك الخزرجى نقيب بنى زريق
٧ — البراء بن معرور الخزرجى
٨ — عبد الله بن عمرو بن حرام نقيبا بنى سلمة
الخزرجى
٩ — عبادة بن الصامت
الخزرجى نقيب القوافل او بنى عدى
١٠ — اسيد بن حضير الأوسى نقيب بنى عبد الأشهل
١١ — سعد بن خيثمة الأوسى
١٢ — رفاعة بن عبد المنذر نقيباً بنى عمرو بن عوف
الأوسى

وقال محمد لهؤلاء النقباء : انتم على قومكم بما فيهم كفلاء كـكفالة الحواريين لعيسى بن مريم وانا كفيل على قومى .

النقباء : نعم .

العباس بن عبادة الخزرجي : والله الذى بعثك بالحق ، إن شئت، لنميلن على اهل منى غداً بأسيافنا .

محمد : لم اومر بذلك ، ارجعوا إلى رحالكم .

فرجعوا إلى رحالهم ، وناموا حتى ايقظهم الصبح .

وفى الصباح جاءت جلة قريش إلى الأوس والخزرج فى منازلهم بمكة فقالوا :

— يامعشر الخزرج ، إنه قد بلغنا انكم قد جئتم إلى صاحبنا هذا تستخرجونه من بين اظهرنا ، وتبايعونه على حربنا ! والله إنه ما من العرب احد أبغض إلينا ان تنشب الحرب بيننا وبينه منكم .

وانبعث المشركون من الخزرج يحلفون بالله ما كان من هذا شيء . اما المسلمون فقد اعتصموا بالصمت حين راوا قريشاً مالت لتصديق شركائها فى الدين . وعادت قريش لاتؤكد الخبر ولا تنفيه واخذت تتطسه علها تقف على جلية الأمر فيه . واحتمل اهل يثرب رحالهم وعادوا قاصدين ديارهم قبل ان تثق قريش بشيء مما حصل . فلما عرفت ان الخبر صدق ، خرجت تطلب اهل يثرب فلم تلحق بهم إلا بسعد بن عبادة ، فأخذوه وردوه إلى مكة وعذبوه حتى اجاره جبير بن مطعم ابن عدي والحارث بن أمية لأنه كان يجير لهما من يخرجون فى تجارتهما إلى الشام حين مرورهم بيثرب .

الفصل الثالث

هجرة الرسول إلى المدينة

أخذ المسلمون يهاجرون سراً إلى المدينة ، وهم على ثقة بان الله معهم ، يؤيدهم بنصره ضد الارستقراطية القرشية الباغية .

وما كانت الهجرة قط فى نظر الرسول ، ولا فى نظر أصحابه ، ركوناً إلى الدعة والهدوء ، او ميلا إلى الراحة والسكون ، وإنما كانت محاولة مصممة على قيادة المعركة فى سبيل الله ، من جهة اخرى . .

هاجر المسلمون جميعاً إلى يثرب ، وبقى الرسول بمكة وحده ، وليس معه من اصحابه إلا اثنان : ابو بكر الصديق وعلى بن ابى طالب .

وذات يوم سال ابو بكر الرسول : متى الرحيل ؟

فطلب منه ان يصبر والا يحدثه فى هذا الأمر بعد . ولكن قريشاً ادركت بغريزة الصياد أن الصيد يمكن ان يفلت منها ، وان محمداً يبالغ فى الكتمان لأنه يدبر امراً . . ولئن انضم محمد إلى اصحابه واعتصموا بالمدينة فستأتى الأيام الشداد إذن . . ودبرت قريش امراً . . .

واجتمع القوم فى دار الندوة للتشاور فى هذا كله وفى وسيلة اتقائه

قال قائل منهم : احبسوه فى الحديد ، واغلقوا عليه بابا ثم تربصوا به ما اصاب اشباهه من الشعراء الذين كانوا قبله ، زهيراً والنابغة . ومن مضى منهم ، من هذا الموت ، حتى يصيبه ما أصابهم .

ولكن هذا الراى قوبل بالرفض .

وقال قائل : نخرجه من بين اظهرنا ، فننفيه من بلادنا ، فإذا اخرج عنا ، فوالله ما نبالى اين يذهب ، ولا حيث وقع ، إذا غاب عنا فرغنا عنه فأصلحنا امرنا والفتنا كما كانت. بيد انهم خافوا ان يلحق بالمدينة وان يصيبهم ما يفرقون منه .

وانتهوا إلى الراى الذى عرضه عليهم أبو جهل بن هشام قال :

ارى ان نأخذ من كل قبيلة فتى شاباً جليداً نسيباً وسيطاً فتياً ، ثم نعطى كل فتى منهم سيفاً صارماً ، ثم يعمدوا إليه ، فيضربوه بها ضربة رجل واحد فيقتلوه ، فنستريح منه ، فإنهم إذا فعلوا ذلك تفرق دمه فى القبائل جميعاً ، فلم يقدر بنو عبد مناف على حرب قومهم جميعاً ، فرضوا منا بالعقل (الدية) فعقلناه لهم ! ! واختاروا فتيانهم ، وباتوا يحسبون ان امر محمد قد فرغ منه ، وانه بعد ايام سيوارى وتوارى دعوته فى الثرى ، وسيعود الذين هاجروا إلى المدينة إلى قومهم وإلى دينهم وآلهتهم ، وتعود بذلك لقريش ولبلاد العرب وحدتها التى تمزقت !!

وأتى جبريل الرسول الكريم فقال :

— لاتبت هذه الليلة على فراشك الذى كنت تبيت عليه .

فلما كانت عتمة من الليل اجتمع فتيان قريش على بابه يرصدونه

حتى ينام ، فيثبون عليه . فلما رأى محمد مكانهم قال لعلى بن ابى طالب :

— نم على فراشى وتسج ببردى هذا الحضرمى الأخضر ، فنم فيه فإنه لن يخلص إليك شيء تكرهه منهم .

وخرج محمد فأخذ حفنة من تراب فى يده واخذ الله العلى القدير على ابصارهم عنه ، فلا يرونه ، فجعل ينثر ذلك التراب على رءوسهم وهو يتلو الآيات من يس (يس ، والقرآن الحكيم ، إنك لمن المرسلين على صراط مستقيم ، تنزيل العزيز الرحيم ، لتنذر قوماً ما انذر آباؤهم فهم غافلون ، لقد حق القول على اكثرهم فهم لا يؤمنون ، إنا جعلنا فى اعناقهم اغلالا فهى إلى الأذقان فهم مقمحون ، وجعلنا من بين ايديهم سداً ومن خلفهم سداً فأغشيناهم فهم لايبصرون) .

ثم انصرف إلى حيث اراد ان يذهب ، فأتاهم آت ممن لم يكن معهم فقال :

— ماتنتظرون هاهنا ؟

قالوا : محمداً .

قال : خيبكم الله ! قد والله خرج عليكم محمد ، ثم ماترك منكم رجلا إلا وقد وضع على راسه تراباً ، وانطلق لحاجته ، افما ترون مابكم ؟

فوضع كل رجل منهم يده على راسه ، فإذا عليه تراب ، ثم جعلوا يتطلعون فيرون علياً على الفراش متسجياً ببردة الرسول ، فيقولون :

ـــ والله ان هذا لمحمد نائماً ، عليه برده ، فلم يبرحوا كذلك حتى اصبحوا ، فقام علي بن ابي طالب عن الفراش ، فقالوا : والله لقد كان صدقنا الذي حدثنا(١) .

توجه الرسول إلى بيت الصديق بعد ان ترك علياً يؤدي عنه ما أودعه الناس عنده من امانات . وخرج الصاحبان إلى المدينة ليلا حتى إذا بلغا غار ثور بأسفل مكة دخلاه ليختبئا من قريش ، وكان عبد الله بن أبي بكر يسمع تآمر قريش عليهما ، فيخبرهما بذلك عندما يلقاهما في المساء . فلم تكن قريش في غفلة عنهما منذ ان اختفيا عن الأنظار ، بل كانت تسعى في سعار مجنون لتعرف مكانهما . وقد بلغ يوماً هذا الغار الذي اختبأ فيه محمد وصاحبه بعد ان جدت في البحث عنهما . ولكن الله العلي القدير شاء ان يكونا قاب قوسين او ادنى من رسوله ثم لا يستطيعوا له قتلا ولا اسرا .

احكم الله معجزة الغار ، فأمر اليمامة ان تبيض ، والشجرة أن تنمو ، والعنكبوت ان ينسج ، فظن فتيان قريش ان الطبيعة قد إحتلت هذا الغار من قبل ميلاد محمد ، فما كان له ان يدخله إذن . ورجعوا . فنادوا بأعلى مكة واسفلها : من قتل محمداً او ابا بكر فله مائة من الإبل(٢) .

وكان الرسول وصاحبه ينتظران إبتعاد قريش عن مخبئهما ليخرجا إلى المدينة . فما ان وثقا من ذلك حتى إمتطيا بعيرها وقادها الدليل في غير الطريق الذي اعتاده الناس لينجو بهما من قريش واذاها .

---

(١) ابن سعد . الطبقات الكبرى ج ١ ص ٢١٣ .

(٢) المقريزي . إمتاع الأسماع ج ١ ص ٤٠

وكان اهل المدينة فى تلك الأيام يرجون مقدم الرسول الكريم ، فكانوا كل يوم يخرجون إلى الحرة ينتظرونه فإذا اشتد الحر عليهم رجعوا . وفى شديد الحر طال إنتظارهم حتى كادت الشمس تغيب ، فرجعوا إلى بيوتهم يأسين من لقاء الرسول ، وبينما هم كذلك إذ بصوت رجل من يهود كان على سطح اطم له فنادى بأعلى صوته يا بنى قيلة (١) ، هذا جدكم الذى تنتظرون .

فخرج الأنصار بالمهاجرين فى سلاحهم فلقوه وهو مع ابى بكر فى ظل نخلة ، وحيوا الرسول وقالوا إركبا آمنين . فركب الرسول وابو بكر وحفوا حولهما بالسلاح ، فقيل فى المدينة : جاء نبى الله ، فاستشرفوا (٢) نبى الله صلى الله عليه وسلم ينظرون إليه ، واقبل يسير حتى نزل على ابى قيس كلثوم بن الهدم بن امرىء القيس . فجاء المسلمون يسلمون عليه واكثرهم لم يره بعد ، فكان بعضهم يظنه ابا بكر ، حتى قام ابو بكر حين اشتد الحر يظلل على الرسول بثوب ، فتحقق الناس حينئذ رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وبقباء ظل الرسول اربعة ايام ومعه ابو بكر ، وفى تلك المدة اسس مسجده هناك ، وكان عبد الله بن رواحة الخزرجى يقول ، حين كان هو وغيره من الصحابة يعملون فيه :

افلح من صالح المساجدا . فيرد عليه الرسول قائلا :

(١) يريد الأوس والخزرج .

(٢) استشرفوه : خرجوا إلى لقائه .

المساجدا .

ثم يقول : ويقرأ القرآن قائماً وقاعداً ، فيرد عليه الرسول قائلا . وقاعداً .

ثم يقول : ولا يبيت الليل عنه راقداً ، فيرد عليه الرسول قائلا : راقداً(١) .

وخرج الرسول يوم الجمعة ، وفى طريقه إلى قلب المدينة ، فتدركه هناك ، فيصلى بأحد مساجد بنى سالم بن عوف الخزرجى ، وكانت اول خطبة خطبها انه قام فى الناس فحمد الله واثنى عليه بما هو اهله ثم قال : اما بعد ايها الناس ، فقدموا لأنفسكم ، تعلمن والله ليصعقن احدكم ثم ليدعن غنمه ليس لها راع ثم ليقولن له ربه — ليس له ترجمان ولا حاجب يحجبه دونه : الم يأتك رسولى فبلغك ؟ وآتيتك مالا وافضلت عليك ؟ فما قدمت لنفسك ؟ فلينظرن يميناً وشمالا فلا يرى شيئاً ، ثم لينظرن قدامه فلا يرى غير جهنم ، فمن استطاع ان يقى وجهه من النار ولو بشقة من تمرة فليفعل ، ومن لم يجد فبكلمة طيبة ، فإن بها تجزى الحسنة عشر امثالها إلى سبعمائة ضعف والسلام على رسول الله ورحمة الله وبركاته(٢) .

وركب الرسول ناقته فلم تزل سائرة به ، وقد ارخى زمامها ، حتى جاءت دار بنى النجار — موضع مسجده الآن — فبركت ثم نهضت

---

(١) السمهودى : جـ ١ ص ١٨١ .
(٢) إمتاع الأسماع : جـ ١ ص ٤٧ .

وسارت قليلا ثم التفتت فبركت فى موضعها الأول . فنزل الرسول عنها .
وحمل ابو ايوب خالد الأنصارى رحل الرسول إلى منزله ، وجاء اسعد
ابن زرارة فأخذ بزمام راحلة الرسول فكانت عنده .

واشترى الرسول موضع مسجده وكان مربداً لسهل وسهيل
ابنى عمرو — وكانا يتيمين فى حجر أسعد بن زرارة — بعشرة
دنانير .

وظل الرسول بمنزل ابى ايوب ، حتى تم بناء مسجده ، وكان
منزله متواضعاً غاية التواضع ، يحدثنا ابو ايوب نفسه فيقول :

لما نزل على رسول الله فى بيتى ، نزل فى السفل ، وانا وام ايوب
فى العلو ، فقلت له : يانبى الله ! بأبى انت وامى ، إنى لأكره ان
اكون فوقك وتكون تحتى ، فاظهر انت فكن فى العلو ، وننزل نحن
فنكون فى السفل ، فقال رسول الله : يا ابا ايوب ، إنه لأوفق بنا
وبمن يغشانا ، ان نكون فى اسفل البيت ، ولهذا ظللنا فى العلو ،
ورسول الله فى السفل .

وفى إحدى المرات . . انكسر إناء لنا فيه ماء ، فقمت انا وام
ايوب بقطيفة مالنا لحاف غيرها ، ننشف بها الماء ، تخوفاً ان يقطر على
رسول الله منه شيء فيؤذيه .

كانت الأنصار تتقرب إلى الرسول بالهدايا ، رجالا ونساء ، وكانت
ام سليم تتأسف على ذلك ، وما كان لها شيء فجاءت بابنها انس وقالت
للرسول :

— ليس لدى ما اعطيك إياه يارسول الله ، فهذا ابنى جئت به ليخدمك ، فقبل الرسول منها ذلك [1] .

وقد تتابعت الهدايا على منزل ابى ايوب ، فيحدثنا زيد بن ثابت الأنصاري ، انه قد حمل إليه اول هدية ، وهى قصعة مملوءة خبزاً من البر وسمناً ولبناً ، ووضعها بين يدى الرسول وقال : هذه قصعة بعثتها امى إليك ، فدعا لها ! ثم دعا اصحابه فأكلوا معه ، ثم يقول :

وبينما انا بالباب إذ بقصعة سعد بن عبادة الخزرجى ، على رأس غلام له مغطاة ، فكشفت غطاءها لأنظر ، فرايت ثريداً عليه لحم ، واى لحم ! !

ويقول زيد ايضاً :

— ما مضت ليلة والنبى فى منزل ابى ايوب ، إلا وكنا ثلاثة نحمل الطعام فيما بيننا متناوبين .

ظل الرسول هناك سبعة اشهر ، وما كانت تفوته جفنة سعد بن عبادة الخزرجى ، وجفنة اسعد بن زرارة الخزرجى [2] . وقد كان يحضر طعامه دائماً وابداً ، من خمسة إلى ستة عشر رجلا .

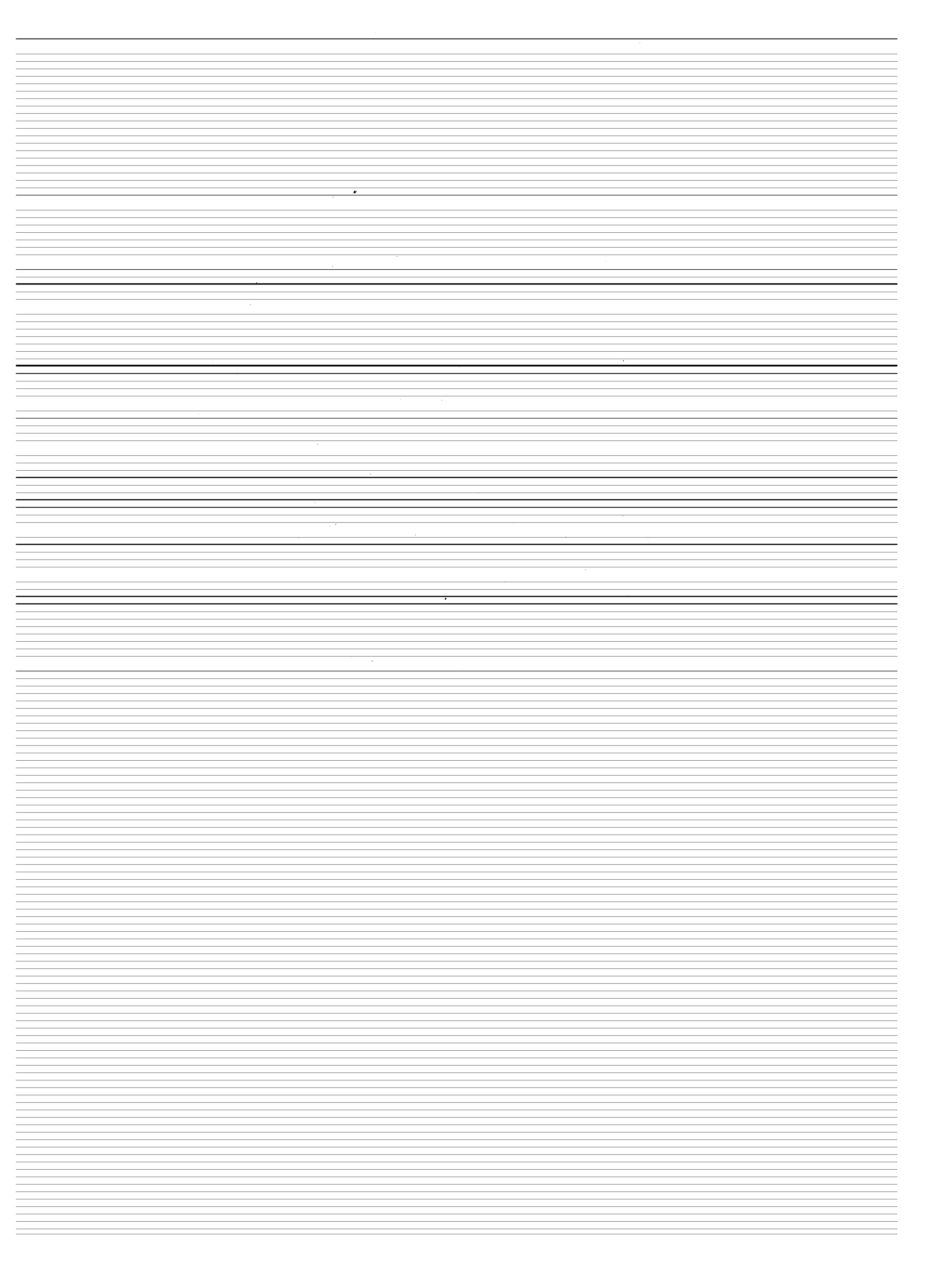
ولما اتم المسلمون بناء المسجد . اتخذ منه الرسول مكاناً لإقامة الشعائر الدينية ، ولتدبير شئون المسلمين ، والبحث فيما يعترضهم من مشاكل . وكان يأذن لفقراء المسلمين بالمبيت فى ناحية منه تسمى

---

(١) السمهودى ج ١ ص١٩٣ .
(٢) امتاع الأسماع ج ١ ص ٤٧

الصفة . وكان هؤلاء فى حالة يرثى لها من الفقر وشظف العيش ، حتى لقد حدث ابو هريرة — وهو منهم — إنه كان يغشى عليه من الجوع فيما بين بيت عائشة وام سلمة . ومن اجل ذلك حث الرسول المسلمين على الإحسان إليهم والتصدق عليهم ، كما كان يدعوهم بين الحين والآخر إلى طعام لا يرفعون ايديهم عنه حتى يشبعهم (١) .

(١) قال ابن سعد فى الطبقات الكبرى : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أمر أبا هريرة أن يدعو أصحابه . يقصد أهل الصفة . فجعل أبو هريرة يتبعهم رجلا رجلا حتى جمعهم عند رسول الله . فقدم عليه السلام لهم شيئا من شعير وقال : خذوا باسم الله فأ كلوا حتى شبعوا .



الفصل الرابع

مجتمع المدينة

كان مجتمع المدينة يتكون من عدة طوائف : أصحاب محمد الذين هاجروا معه ، وانصاره الذين رحبوا به ، واليهود ، والمشركون .. فهو مجتمع حافل بالعقائد والأفكار والآراء . لا تختلف فيه كل طائفة مع الأخرى فحسب ، بل يمتد الشقاق إلى افراد الطائفة الواحدة بعضهم مع بعض .. فالمسلمون من الأوس والخزرج ، قد الف الإسلام بين قلوبهم ولكن العداوات القديمة ، لازالت بينهم مذكورة ، وكان الرسول عندما ينزل بمنازل بني عمرو بن عوف والأوسيين ، يبحث بين الجالسين عن اسعد بن زرارة الخزرجي ، فلا يجده ، فيسأل عنه ، فيرد عليه أحد بني عمرو الأوسيين . إنه قد اصاب منا رجلا يوم بعاث يا رسول الله ، ولهذا فهو لا يأتي دارنا ، ولا نأتي داره ، فيسكت الرسول على مضض ، واضعاً يده على بيت الداء !.

وكذلك يرى الرسول ، انه عندما يحل بحي من أحيائهم ، لا يجد حوله إلا ابناء الحي فقط ، لأن الأوس ما كانت تأتي منازل الخزرج ، والخزرج ما كانت تأتي منازل الأوس .

وقد عالج الرسول هذه المشاكل الإجتماعية علاجا حاسما . فيقول

لأسعد بن زرارة . عندما يأتى إليه ليلا ، وبعد ايام . ومتقنعاً :

— « يا ابا امامة ، جئت من منزلك إلى هنا ، و بينك و بين القوم ما بينك . فقال :

— والذى بعثك بالحق نبياً ، ما كنت لأسمع بك فى مكان إلا جئتك فيه ، ثم يبيت عند رسول الله حتى يصبح .

وقال الرسول لرجال بنى عوف الأوسيين : أجيروا أبا عوف .

فقالوا : آجره انت يا رسول الله ، فمن تستجره فهو جارنا .

قال : ليذهب إليه أحدكم .

فذهب واحد من بنى عوف إلى اسعد بداره ، ويحضر معه . ويده فى يده .

فقال الأوسى : كلنا نجيره يا رسول الله .

فأصبح اسعد بن زراره ، يغدو ويروح . وهو آمن مطمئن .

وكذلك عندما مات اسعد بن زرارة النجارى الخزرجى ، يتحدث بنو النجار إلى الرسول ، ويطلبون منه إختيار نقيب لهم ، فيقول :

— انتم أخوالى ، أفلا ترضون ان اكون نقيبكم ؟ !

بمثل هاتين الوسيلتين ، قضى الرسول على ما بين الأوس والخزرج من عداوات ، واحن واحقاد ، اسستها الحقب ، ووطدت أقدامها الأزمان .

وآخى الرسول بين اصحابه من المهاجرين والأنصار ، فقال :

— تآخوا فى الله اخوين اخوين .

والإخاء بين شخصين يعنى ان يصبح احدهما اخا للآخر . عليه مواساته بكل مايملك ، وله ارثه فى كل ما يتخلف عنه ، فالملابس تشطر بينهما ، والأموال هى حق لكل منهما . حتى الزوجات كان الانصارى يتخلى عن بعضهن بالطلاق ، ليتزوجها المهاجر حلالا . وظل التوارث بينهما إلى ما بعد موقعة بدر ، حتى نزلت آية : « واولوا الارحام بعضهم أولى ببعض[1] » . فقصر التوارث على صلة القربى والدم فقط ، لأن الهدف من المؤاخاة ، كان تبديد وحشة الغربة ، وضيق مفارقة الاهل ، وشد ازر بعضهم بعضاً ، فلما قوى الإسلام واجتمع الشمل ، وذهبت الوحشة ، بطل التوارث ، ورجع كل إنسان إلى ذى رحمه[2] .

وقد اثمرت هذه المؤاخاة ثمرتها الطيبة . فنجد المهاجرين يأتون الرسول ويقولون له :

« يا رسول الله ! ما رأينا مثل قوم قدمنا عليهم . أحسن مواساة فى قليل ، ولا احسن بذلا فى كثير ، كفونا المئونة ، وأشركونا فى المهنة — الخدمة — حتى لقد خشينا ، أن يذهبوا بالاجر كله . فاستدرك الرسول قائلا : إلا ما اثنيتم عليهم ، ودعوتم لهم[3] » .

* * *

(١) الآية ٦ سورة الأحزاب
(٢) السمهودى : ج ١ ص ١٩١ ، السيرة الحلبية ج ٢ ص ١٢٢ .
(٣) أى أنكم بهذا الثناء والدعاء ، حصل منكم لهم نوع من المكافأة السيرة الحلبية ج ٢ ص ١٢١ .

منذ فتحت المدينة أبوابها للرسول ، والذين معه ، لم يبق لليهود من أمل إلا ان يوادعهم الرسول ريثما يفيقون من صدمة التحول الخطير في موازين القوى ، ويتدبرون وسيلة للخلاص من هذا الإسلام الذى لا يمكن أن يسالموه .

وتعلق املهم بأن يذكر الرسول أنهم اهل كتاب واتباع نبي مرسل والقرآن فيما سمعوا من آياته ، مصدق لما بين يديه من التوراة والإنجيل ومقر بنبوة إبراهيم وموسى وعيسى ، وسائر الانبياء . لا يفرق بين احد من رسل الله .

وتقدموا بكل دهاء وخبث يرحبون بالرسول ويسألونه الموادعة والامان ، وله عليهم ان يكونوا مع أهل المدينة ضد أى عدوان عليها من الإرستقراطية القرشية بمكة .

وكان الضمان ، ما يحرص عليه اليهود من أمن للمنطقة . ولهم فيها مستعمرات غنية وتجارة يملكون قيادها . وحصون مكدسة بالذهب والاموال .

وأعطاهم الرسول عهده بالموادعة، مسجلا فى كتابه إلى اهل المدينة إثر هجرته عليه الصلاة والسلام :

بسم الله الرحمن الرحيم : هذا كتاب من محمد النبي ، بين المؤمنين والمسلمين من قريش ويثرب ومن تبعهم فلحق بهم وجاهد معهم : أنهم أمة واحدة من دون الناس ، المهاجرون ، من قريش على ربعتهم[1]

(١) ربعتهم أى على إستقامتهم ، يريد على أمرهم الذى كانوا عليه .

يتعاقلون بينهم ، وهم يفدون عانيهم بالمعروف والقسط بين المؤمنين . وبنى عوف على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى ، وكل طائفة تفدى عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين . . . ثم ذكر كل بطن من بطون الأنصار ، وأهل كل دار مثل : بنى الحارث ، وبنى ساعدة ، وبنى جشم ، وبنى النجار ، وبنى عمرو بن عوف ، وبنى النبيت ، وبنى الأوس بن هشام ، إلى ان قال : وان المؤمنين لايتركون مفرحاً(١) بينهم حتى يعطوه بالمعروف فى فداء او عقل ولا يحالف مؤمن مولى مؤمن دونه . وان المؤمنين المتقين على من بغى منهم او ابتغى ، دسيعة ظلم او إثم ، او عدوان او فساد بين المؤمنين ، وان ايديهم عليه جميعاً ، ولو كان ولد احدهم ، ولا يقتل مؤمن مؤمناً فى كافر ولا ينصر كافر على مؤمن وان ذمة الله واحدة ، يجير عليهم ادناهم ، وان المؤمنين بعضهم موالى بعض دون الناس ، وان من تبعنا من يهود فإن له النصر والأسوة(٢) ، غير مظلومين ولا متناصرين عليهم ، وان سلم المؤمنين واحدة ، لايسالم مؤمن دون مؤمن فى قتال فى سبيل الله ، إلا على سواء وعدل بينهم ، وان كل غازية غزت معنا يعقب بعضها بعضاً وان المؤمنين يبيء(٣) بعضهم عن بعض بما نال دماءهم فى سبيل الله . وان المؤمنين المتقين على أحسن هدى واقومه ، وأنه لا يجير مشرك مالا لقريش ولا

---

(١) المثقل بالدين والعيال

(٢) أى المساواة فى المعاملة

(٣) يقال أبات فلانا بفلان اذا قتلته به ، يريد أن المؤمنين بعضهم أولياء بعض فيما ينال دماءهم

نفساً ، ولا يحول دونه على مؤمن ، وانه من اعتبط[1] مؤمناً قتلا عن بينة ، فإنه قود به ، إلا ان يرضى ولى المقتول ، وان المؤمنين عليه كافة ، ولا يحل لهم إلا قيام عليه وانه لا يحل لمؤمن اقر بما فى هذه الصحيفة ، وآمن بالله واليوم الآخر ، أن ينصر محدثاً[2] ولا يؤويه ، وانه من نصره او آواه فإن عليه لعنة الله وغضبه يوم القيامة ، ولا يؤخذ منه صرف ولا عدل ، إنكم مهما اختلفتم فيه من شىء فإن مرده إلى الله ، وإلى محمد عليه الصلاة والسلام ، إن اليهود ينفقون مع المؤمنين ماداموا محاربين . وأن يهود بنى عوف امة مع المؤمنين . لليهود دينهم ، وللمسلمين دينهم ، مواليهم وانفسهم إلا من ظلم او اثم فإنه لا يوتغ[3] إلا نفسه واهل بيته ، وان اليهود وبنى النجار ، ويهود بنى الحارث ، ويهود بنى ساعدة ، ويهود بنى جشم ، ويهود بنى الأوس ويهود بنى ثعلبة ، ولجفنة ، ولبنى الشطيبة مثل ماليهود بنى عوف ، وان موالى ثعلبة كأنفسهم ، وان بطانة يهود كأنفسهم ، وانه لا يخرج منهم احد إلا بإذن محمد عليه الصلاة والسلام وانه لا يتحجر على ثأر جرح وانه من فتك بنفسه واهل بيته إلا من ظلم ، وان على اليهود نفقتهم ، وان بينهم النصر على من حارب اهل هذه الصحيفة ، وان بينهم النصح والنصيحة ، والبر دون الإثم ، وانه لم يأثم امرؤ بحليفة ، وان النصر للمظلوم ، وان اليهود ينفقون مع المؤمنين ماداموا محاربين ، وان يثرب حرام جوفها لأهل هذه الصحيفة . وان الجار كالنفس غير

---

(١) اعتبطه أى قتله بلا جناية كانت منه ولا جريرة توجب قتله
(٢) جانيا .
(٣) يهلك ويفسد .

مضار ولا آثم ، وأنه لاتجار حرمة إلا بإذن أهلها ، وأنه ما كان بين اهل هذه الصحيفة من حدث او شجار يخاف فساده فإن مرده إلى الله وإلى محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأن الله على اتقى مافى هذه الصحيفة وابره ، وانه لاتجار قريش ولا من نصرها وان بينهم النصر على من دهم يثرب ، وإذا دعوا إلى أصلح يصالحونه ويلبسونه ، فإنهم يصالحونه ويلبسونه ، وانهم إذا دعوا إلى مثل ذلك فإن لهم على المؤمنين ، إلا من حارب فى الدين ، على كل اناس حصتهم من جانبهم الذى قبلهم ، وان يهود الأوس مواليهم وانفسهم على مثل مالأهل هذه الصحيفة مع البر المحض ، من أهل هذه الصحيفة ، وان البر دون الإثم ، لا يكسب كاسب إلا على نفسه . وان الله على اصدق مافى هذه الصحيفة وابرها ، وانه لايحول هذا الكتاب دون ظالم أو آثم ، وانه من خرج آمن ، ومن قعد آمن بالمدينة . إلا من ظلم وأثم ، وان الله جار لمن بر واتقى (١)

هذه هى وثيقة الرسول الجامعة ، وإذا لم يكن قد ورد فيها ذكر لبنى قريظة وبنى النضير وبنى قينقاع فليس معنى ذلك أن الرسول لم يعاهدهم كما عاهد غيرهم ممن ذكر فى وثيقته ، فالثابت انه عقد معهم معاهدات منفردة . ومما لاشك فيه ان هذه المعاهدات لم تكن تختلف فى جوهرها ، لأن سياسة الرسول كانت واحدة إزاء اليهود جميعاً .

ويجدر بنا ان نقف عند هذه الوثيقة السياسية ، ونحللها تحليلا دقيقاً ، لنصور السياسة الإسلامية أول العهد بالمدينة تصويراً اميناً .

---

(١) ابن هشام جـ ١ ص ١٨٧

أولا : تكوين الأمة :

إذ جاء فيها [إن المؤمنين والمسلمين من قريش ويثرب ومن تبعهم فلحق بهم وجاهد معهم أمة واحدة من دون الناس] .

إن الرسول لم يقصر هذه الأمة على النفر الذى كان سباقاً إلى الإيمان بدعوة الحق ، بل جعلها عامة لكل من أسلم وآمن ولو بعد حين ، على أن يكون عاملا مجاهداً يقاتل دفاعاً عن دينه وأرضه فكأن الرسول يريد أن يجعل الجهاد فرضاً على كل مسلم ليكون عضواً فى الأمة الإسلامية .

إن الإسلام ليس دين الإستسلام ، وليست الفضيلة فى الإسلام الركون إلى الدعة ولو كان فيها الرضا بالهوان وطلب للعيشة الذليلة المستكينة . إنما الفضيلة فى الإسلام هى رد الإعتداء ، ومنع الخضوع للأقوياء ، ولذلك شرع القتال لمنع الفساد فى الأرض إذ أنه لو ترك الأشرار يعيثون فساداً من غير رادع يردعهم ، ولامانع يمنعهم لعم الفساد البر والبحر ولصار هو الهوان الذى يسيطر ، وأن الرحمة بالأشرار قسوة بالأخيار ، وإن الذين يذهب فرط حبهم للتسامح مع الأشرار وهم لايلوون على شىء إلا جعلوه خراباً ، إنما يحضون على الشر ، ورب تسامح يحوى فى ذاته أكبر الجرائم فتكا بالجماعة الإنسانية ، ولذلك قال الله تعالى : « ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض ، ولكن الله ذو فضل على العالمين[1] » .

وإن الدين لابد أن تكون له شوكة ترد أذى للمعتدين ، وتفل حدة الطغاة حتى لايذهب الخير ، ولا يبقى إلا الشر ، وإذا كان الذين يدعون

---

(١) الحج الآية رقم ٤٠ .

إلى الإثم والعدوان لا ينفكون عن إعتدائهم ، فيجب أن يقفوا عند حدهم .

ولذلك أذن الله بالقتال دفاعاً عن الفضيلة ولقد قال الله تعالى فى ذلك :

— « أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وإن الله على نصرهم لقدير الذين اخرجوا من ديارهم بغير حق إلا ان يقولوا ربنا الله ، ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها إسم الله كثيراً ولينصرن الله من ينصره ، إن الله لقوى عزيز »(١) .

وقال الرسول الكريم :

— « الجهاد واجب عليكم مع كل امير براً كان أو فاجرا »

وقال عليه الصلاة السلام :

— « جاهدوا المشركين بأنفسكم » .

والرسول لم يحـدد من يتبع المهاجرين والأنصار ويلحق بهم ويجاهد معهم بصفة محددة لأنه كان يقصد ان تشمل الأمة الإسلامية من أراد الإنضمام إليها من شتى القبائل والأجناس والأديان .

وهو إذ يقول [امة واحدة من دون الناس] إنما يريد ان تكون امة قائمة بذاتها ، لها شخصيتها المستقلة ، فتعتمد على نفسها ، ولا تكون عالة على غيرها .

(١) الأستاذ الشيخ محمد أبو زهرة . الجهاد ، ص ٤

ثانياً : وحدة الأمة .

يقول الرسول صلى الله عليه وسلم : [وإن سلم المؤمنين واحدة لا يسالم مؤمن دون مؤمن فى قتال] ولعله لا يعنى السلم فحسب ، بل يشير إلى الوحدة بكل معانيها ، وكل ابعادها ، فلا معنى للوحدة فى السلم والفرقة فى الحرب أو فى غيره فى امور الحياة .

وقال : [وإن أيديهم عليه جميعاً] يعنى بذلك الذى يسعى بالفساد بين المؤمنين . فى القرآن آيات كثيرة فيها وصف للفئات المفسدة والدساسة والمنافقة والمرجفة . وتحذير منها وتنديد بها . وبيان مايبدو منها من تصرفات وشذوذ ومكائد وعدوان على الأمن العام وحياة المجتمع ، من شأنه إلحاق الأذى والضرر فى الكيان الإسلامى دولة ومجتمعاً وافراداً . مثل معاكسة أوامر الله ورسوله ، وعبث فى النظام والطمأنينة العامة . وعدوان جرىء على أموال الناس ودمائهم . ومؤامرات خفية فيها عصيان لله ورسوله . ودعايات خبيثة من شانها إحداث الاضطراب والفوضى والتفكك . وإضعاف الثقة والتضامن . وتعطيل المصالح العامة . وإنتقاص امر الدولة والمجتمع . وكيد للكيان الإسلامى . وموالاة الأعداء ، وتودد لهم ، جرياً للمغانم(١) .

يقول الله تعالى :

— « ومن الناس من يعجبك قوله فى الحياة الدنيا ويشهد الله على ما فى قلبه وهو ألد الخصام . وإذا تولى سعى فى الأرض ليفسد فيها

---

(١) محمد عزه دروزه : الدستور القرآنى ص ٢٠٩

ويهلك الحرث والنسل، والله لا يحب الفساد. وإذا قيل له اتق الله اخذته العزة بالإثم، فحسبه جهنم، ولبئس المهاد[1] ».

— « إنما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون فى الأرض فساداً ان يقتلوا او يصلبوا أو تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف او ينفوا من الأرض، ذلك لهم خزى فى الدنيا، ولهم فى الآخرة عذاب عظيم. إلا الذين تابوا من قبل أن تقدروا عليهم، فاعلموا ان الله غفور رحيم[2] ».

وقال الرسول : [وأن المؤمنين عليه كافة] يعنى الذى يعتبط مؤمناً قتلا، فالرسول إذ يأتى بلفظى « جميع وكافة » فى وصفه للمؤمنين عند قيامهم بالقصاص ممن يفسد بينهم أو يقتل واحداً منهم إنما يقرر مبدأ الوحدة التامة الكاملة للأمة الإسلامية.

ثالثاً — حرية العقيدة :

قال الرسول :

[لليهود دينهم وللمسلمين دينهم].

وحين نتحدث عن حرية العقيدة فى الإسلام نعنى شيئين :

اولهما : حرية المسلم فى تفكيره الدينى وفى طريقة فهمه للدين وشرائعه دون ان يحول بينه وبين تلك الحرية تسلط من فرد أو جماعة

---

(١) سورة البقرة : ٢٠٥ — ٢٠٦ .

(٢) سورة المائدة : ٣٣ — ٣٤ .

ودون أن يصيبه من وراء آرائه الدينية ضرر في نفسه أو ماله او عمله .

وثانيهما : حرية غير المسلم الذى يعيش فى دار الإسلام فى أن يحيا حياته الدينية الخاصة ، ويتعبد على طريقة دينه ، وينظم شئون حياته وفقا لمقتضيات ذلك الدين ، دون أن يتعرض لمضايقة أو اضطهاد أو أن يضار فى نفسه او ماله أو عمله من جراء مخالفته فى الدين للمجتمع من حواليه . والموقف الأساسى للإسلام من أهل الأديان الأخرى مقرر واضح فى الآية القرآنية :

« قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا و بينكم ، ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون[١] » .

وقد اتخذ الرسول هذه الآية الكريمة شعاراً لموقفه من أهل الكتاب فضمنها كتابه إلى النجاشى ملك الحبشة ، وإلى هرقل عظيم الروم ، وغيرهما من رؤساء الأمم المجاورة . هذه هى الدعوة التى أمر الرسول ان يوجهها إلى اهل الأديان الأخرى ، فإن هم لم يستمعوا إليها فلهم شأنهم وله شانه ، ولهم دينهم وله دينه ، والقرآن الكريم يقول :

[قل يا أيها الكافرون لا أعبد ما تعبدون ، ولا أنتم عابدون ما أعبد ، ولا أنا عابد ما عبدتم ، ولا أنتم عابدون ما أعبد ، لكم دينكم ولى دين[٢]] .

(١) سورة آل عمران – الآية ٦٤

(٢) سورة الكافرون .

وقد روى سليمان بن بريدة عن ابيه عن عائشة رضى الله عنها قالت: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا أمر أميرا على جيش أو سرية أوصاه فى خاصته بتقوى الله ، ومن معه من المسلمين خيراً ثم قال : اغزوا على اسم الله ، قاتلوا من كفر بالله ، ولا تغلوا ولا تغدروا ولا تقتلوا وليدا وإذا لقيت عددا من المشركين فادعهم إلى ثلاث خصال ، فأيهن أجابوك إليها فاقبل منهم ، ثم ادعهم إلى التحول من دارهم إلى دار المهاجرين . فإن أبوا فأخبرهم بأنهم يكونون كأغراب المسلمين ، ولا يكون لهم فى الغنيمة والفيء شيء إلا أن يجاهدوا مع المسلمين ، فإن هم أبوا فاسألهم الجزية . فإن هم أجابوك فاقبل منهم وإن هم أبوا فاستعن بالله وقاتلهم] .

وجاء فى كتاب « محاسن الإسلام وشرائع السلام » لأبى عبد الله محمد بن عبد الرحمن البخارى [إن الجزية لم تجب على من وجبت عليهم لأجل كفرهم ، وإنما وجبت لأجل حربهم لنا ، فهى تعويض لنا عما ضاع منا فى حربهم ، ولهذا لم تجب على النساء والذرارى ممن لا يصلح للحرب] .

إن حرية العقيدة مقررة فى الإسلام وهذه الحقيقة يؤكدها مؤلف مسيحى فى كتابه عن « قصة العرب فى أسبانيا » فيقول :

[. . . ثم أخذ الناس(١) بعد قليل يشعرون بأنهم أفادوا من تغير الحكم ، فقد كان للأسبانيين أن يحتفظوا بشرائعهم وقضاتهم ؛

(١) قصة العرب فى أسبانيا تأليف ستانلى لين بول وترجمة على الجارم .

وعين لهم حكام من أنفسهم يديرون المقاطعات ويجمعون الضرائب ويفصلون فيما شجر بينهم من خلاف ، وأصبح سكان المدن لا يكلفون إلا الجزية — والخراج إن كانت لهم أرض تزرع — بعد أن كانوا في عهد القوط يحملون وحدهم عبء الضرائب والأموال التي تنفق على الدولة وقصرت الجزية على المخالفين في الدين . أما ضريبة الأرض فإنها فرضت بعدل ومساواة على النصارى واليهود والمسلمين جميعاً . ولم يدع التسامح الديني للأسبانيين سبباً للشكوى فقد تركهم العرب يعبدون ما يشاءون من غير أن يضطهدوهم أو يلزموهم إعتناق عقيدة خاصة كما كان يفعل القوط باليهود . وكان من أثر هذه المعاملة وذلك التسامح أن رضي المسيحيون بالنظام الجديد ، واعترفوا صراحة أنهم يؤثرون حكم العرب على حكم الافرنج أو القوط ا .

أما ما قرره الإسلام من حرية العقيدة للمسلمين ، فهو نابع من طبيعة العقيدة الإسلامية ذاتها فيما دعت إليه من الخضوع لله وحده ، وسن الإسلام شريعة تقوم على أصول وقواعد عامة يتم بها نظام المجتمع وترك أفراد المسلمين أحرارا في عباداتهم وطرائق تفكيرهم ، ولم يدع للسلطة أن تتدخل في هذه الحرية إلا حين يعطل أصل من أصول الدين، كأن يقوم من بين الأفراد من ينكر وحدانية الله ، او رسالات الأنبياء ويدعو إلى ذلك علانية ، أو تمنع جماعة من الناس إيتاء الزكاة أو تسد على المسلمين طريق الحج ، ولهذا التدخل حدود . وأوضاع مقررة في كتب الفقه الإسلامي ، لم يترك فيها الأمر لهوى أو اجتهاد شخصي .

رابعا ــ التكافل الاجتماعي :

قال الرسول صلى الله عليه وسلم : [وإن المؤمنين لايتركون مفرحا أن يعطوه بالمعروف في فداء او عقل] .

قال الأصمعي المفرح هو الذي اثقله الدين . يقول يقضى عنه دينه من بيت المال ولا يترك[1] مدينا ويقول الدكتور مصطفى السباعي[2] : المدين إذا لزمته الديون بسبب التجارة أو بسبب بعض الأعمال الاجتماعية كما إذا تحمل زعيم في منطقة ما ، ديات القتلى من المتخاصمين لصيانة الدماء وإحلال الوئام محل النزاع ، أو تحمل الأموال لعمل المبرات والخيرات الإجتماعية ، فإن ديونه تسدد من بيت المال وهو داخل في قوله تعالى : [والغارمين][3] .

والقاتل إذا قتل خطأ ، فإن دية القتيل لا يتحملها وحده ، بل تتحملها عاقلته وهم عصبته من أقربائه أو أهل ديوانه أو أهل نقابته ، على تفصيل يعرف في موضعه من كتب الفقه .

والمنقطع في بلد غير بلده ، ويسمى « ابن السبيل » فيعان حتى يصل إلى بلده ولو كان فيها غنياً » .

إن الإسلام يحقق للناس حياة كريمة ، يقول الإمام الغزالي في « المستصفى » :

---

(٢) مختار الصحاح .
(٢) اشتراكية الاسلام ص ١٢٠
(٣) قال تعالى : « إنما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم وفى الرقاب والغارمين وفى سبيل الله وابن السبيل » (سورة البقرة : ٦١)

« إن مقصود الشرع فى الخلق خمسة : وهو أن يحفظ عليهم دينهم ونفسهم وعقلهم ونسلهم ومالهم . فكل ما يتضمن حفظ هذه الأصول الخمسة فهو مصلحة . وكل مايفوت هذه الأصول فهو مفسدة ودفعها مصلحة » .

ويقول الإمام الشاطبى فى الموافقات :

« تكاليف الشريعة ترجع إلى حفظ مقاصدها فى الخلق ، وهذه المقاصد لاتعدو ان تكون «ضرورية » او « حاجية » او «تحسينية» أما الضرورية فمعناها أنها لابد منها فى قيام مصالح الدين والدنيا . بحيث إذا فقدت لم تجر مصالح الدنيا على استقامة ؛ بل على فساد وتهارج وفوت حياته ، وفى الأخرى فوت النجاة والنعيم والرجوع بالخسران المبين ومجموع الضروريات خمسة . وهى: حفظ الدين والنفس والنسل والمال والعقل » .

والمسلمون إذ يعطون المفرح فى فداء أو عقل ، أو فى غير الفداء والعقل ، إنما يحققون مبدأ التكافل الاجتماعى الذى تعتز به الإنسانية .

خامسا ــ فصل الرسول فى قضايا الناس :

قال الرسول صلى الله عليه وسلم : [وإنه ما كان بين أهل هذه الصحيفة من حدث أو شجار يخاف فساده ، فإن مرده إلى الله وإلى محمد رسوله] .

يشير هذا النص إلى سلطة الرسول القضائية على المسلمين . وتقرير

لواجبهم فى السمع والطاعة له والإستجابة إلى دعوته ، والرضا بأحكامه كما يقوم الرسول بالفصل فى قضايا أهل الكتاب .

يقول الله تعالى :

« ويقولون آمنا بالله وبالرسول وأطعنا ثم يتولى فريق منهم من بعد ذلك ، وما أولئك بالمؤمنين . وإذا دعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم إذا فريق منهم معرضون . وإن يكن لهم الحق يأتوا إليه مذعنين أفى قلوبهم مرض أم إرتابوا أم يخافون أن يحيف الله عليهم ورسوله ، بل أولئك هم الظالمون . إنما كان قول المؤمنين إذا دعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم أن يقولوا سمعنا وأطعنا ، وأولئك هم المفلحون . ومن يطع الله ورسوله ويخش الله ويتقه فأولئك هم الفائزون[1] » .

ويقول جل شأنه :

– « فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم » .

ولم يكن فى زمنه صلى الله عليه وسلم قاض سواه ، لقلة عدد المتقاضين ، فقد ازال الإسلام ما كان بينهم من الشحناء والبغضاء . وألف بين قلوبهم ، وجعلهم يؤثرون على انفسهم ولو كان بهم خصاصة .

كان يحكم بينهم بما أنزل الله امتثالا لقوله جل شأنه : « فاحكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم عما جاءك من الحق » .

---

(١) سورة النور : ٤٧ – ٥٢ .

سادساً : مراعاة حق الجار :

يقول الرسول : « وأن الجار كالنفس غير مضار ولا آثم » .

إن الجيران تجمعهم خلطة دائمة ، وهذه الخلطة تجعل إحتمال الخلاف والنزاع بينهم كثيراً . . فيطغى القوى على الضعيف ، وينقطع بينهم ما أمر الله به ان يوصل .

وهنا يركز محمد تركيزاً شديداً على حق الجوار .

يقول :

« ما زال جبريل يوصيني بالجار حتى ظننت أنه سيورثه » .

ويقول :

— (والله لا يؤمن ، والله لا يؤمن ، والله لا يؤمن ...

قيل : من هو يا رسول الله ؟ قال : الذى لا يأمن جاره بوائقه) .

إن الرسول يريد الا يخاف جار ضعيف ، جاره القوى . وهو لهذا ينفى الإيمان نفياً أكيداً ، عن كل جار يخاف جاره ولا يامن غوائله وشروره .

إنه يعلم حاجة الناس إلى الأمن والإطمئنان في جوارهم ، فالجار مطلع على أسرار جاره ، قادر على وضع الأذى فى طريقه . ولذلك يشير الرسول إلى أهم حقوق الجار فيقول :

(إذا إستعانك أعنته ، وإذا إستقرضك أقرضته ، وإذا إفتقر عدت عليه ، وإذا مرض عدته ، وإذا أصابه خير هنأته ، وإذا أصابته مصيبة عزيته ، وإذا مات تبعت جنازته . ولا تستطل عليه بالبنيان ، فتحجب عنه الريح إلا بإذنه ، ولا تؤذه بقتار [ريح] قدرك إلا أن تغرف

له منها ، وإن إشتريت فاكهة فاهد له منها ، فإن لم تفعل فأدخلها سراً ، ولا يخرج بها ولدك ليغيظ بها ولده !) .

سابعاً : موادعة اليهود :

فقد أقرهم على دينهم واموالهم ، وقد بينا ذلك عندما تحدثنا عن حرية العقيدة ، وجعلهم والمسلمين أمة واحدة فقال : [إن اليهود أمة مع المؤمنين] .

وجاء فى الوثيقة : [ولا يحل لمؤمن اقر بما فى هذه الصحيفة وآمن بالله واليوم الآخر ان ينصر محدثاً أو يؤويه] .

حاول الرسول ان يجذب اليهود إلى الإسلام ، بل إن المؤرخ « توماس[1] ارنولد » يذهب إلى أن إتخاذ بيت المقدس قبلة للمسلمين فى الصلاة — قبل إتخاذ الكعبة — كان المقصود به إستمالة اليهود .

ومضى[2] الرسول شوطاً آخر فى سبيل تأليف قلوب اليهود ، وإنزالهم عن طبيعة الحذر والعناد ، فأحل للمسلمين الأكل من طعام اليهود كما احل لهم التزوج من بناتهم ، وجاء فى القرآن الكريم نص على هذا فى سورة المائدة :

(اليوم احل لكم الطيبات . وطعام الذين اوتوا الكتاب حل لكم وطعامكم حل لهم ، والمحصنات من المؤمنات والمحصنات من الذين أوتوا

---

(١) الدعوة إلى الاسلام : ص ٤٧

(٢) مواقف حاسمة من تاريخ محمد بن عبد الله ، للمؤلف ، ص ٥٢ — طبعة دار الشعب .

الكتاب ، إذا آتيتموهن اجورهن محصنين غير مسافحين، ولا متخذى اخدان ، ومن يكفر بالإيمان فقد حبط عمله وهو فى الآخرة من الخاسرين) .

على ان هذه الموادعة لا تقوم لها قائمة إذا ما ظلم اليهود .

يقول الرسول : [إلا من ظلم وأثم فإنه لا يوتغ « يهلك » إلا نفسه] .

ويعنى الرسول بالظلم ما قد يقوم به اليهود من محاولات ومؤامرات تستهدف بذر بذور الفتنة بين الناس ، وصد القبائل عن الدخول فى الإسلام ، إلى غير ذلك من الأمور التى تضر بالدعوة وتقف عقبة فى سبيل إنتشار الإسلام وإعلاء كلمة الحق .

ثامناً : تحريم خروج اليهود من المدينة بغير إذن الرسول :

يقول الرسول : [وإنه لا يخرج أحد منهم إلا بإذن محمد صلى الله عليه وسلم] فقد كان الرسول يتوقع غدر اليهود به ، ويشك فى إخلاصهم له ، فحرم عليهم الخروج من المدينة بغير اذنه ، كى يراقب حركاتهم ، ويأمن فى الوقت نفسه شرهم . فليس يبعيد ان يخرج منهم من يفشى اسرار المسلمين ، ويخبر قريشاً بما يود الرسول ان يكتمه عنها ، وليس يبعيد كذلك ان يخرج من اليهود من يؤلب الإرستقراطية القرشية على الرسول فيشعل بين الفريقين نار الحرب ، بل لقد حدث هذا فعلا ، كما سيأتى الحديث فى الفصل القادم .

تاسعا — محالفة اليهود :

فقد جاء فى الوثيقة: [وأن بينهم النصر على من دهم يثرب] فقد كان الرسول يتوقع أن تهاجم قريش المدينة فى يوم ما . فلم يكن يعتقد أن الأمر قد انتهى بينه وبينها بهجرته ، ولم يكن يرى فى المسلمين — فى أول عهدهم بالمدينة — من القوة ما يمكنهم من قتال قريش وحدهم ، فأبرم هذه المعاهدة الدفاعية بهذا النص من وثيقته كى يجد من ينصره على قريش أو غيرها ممن يكيد له ويعاديه .

وجاء فى الوثيقة ايضاً أن الرسول إذا دعا اليهود إلى صلح حليف فإنهم يصالحونه ، وأن اليهود إذا دعوا المسلمين إلى مثل ذلك فإنه لهم على المؤمنين .

وقد استثنى الرسول من هذا النص الأخير من حارب الدين ، فليس ينبغى للمسلمين ان يصالحوا من حارب دينهم ، بل ليس لليهود أن يصالحوا اعداء الإسلام ثم يدعوا المسلمين إلى مصالحة من صالحوا[1] .

وقد نص فى الوثيقة على اشتراك اليهود فى النفقة مع المسلمين وقت الحرب ، فقال : [وان اليهود ينفقون مع المسلمين ما داموا محاربين] .

يقول ابو عبيد (فهذه النفقة فى الحرب خاصة ، شرط عليهم المعاونة له على عدوه . وإنما كان يسهم لليهود إذا غزوا مع المسلمين

---

(١) المصدر السابق ص ٥٥ .

بهذا الشرط الذى شرط عليهم من النفقة . ولولا هذا لم يكن لهم فى غنائم المسلمين سهم .. وإنما كان هذا الكتاب قبل ان يظهر الإسلام ويقوى، وقبل ان يؤمر باخذ الجزية من اهل الكتاب[1]) .

عاشرا : صيانة الأمن وتحريم الجريمة :

جاء فى الوثيقة [وانه لا يحل لمؤمن اقر بما فى هذه الصحيفة او آمن بالله واليوم الآخر ان ينصر محدثاً او يؤويه ، فمن نصره او آواه فإن عليه لعنة الله وغضبه إلى يوم القيامة] .

والمحدث هو كل من جنى او اجرم ، فليس لأحد ان يمنع من إقامة الحد عليه . وفى هذا يقول الرسول : (من حالت شفاعته دون حد من حدود الله فقد ضاد الله فى امره) .

حادى عشر — حق الحياة :

فقد جاء فى الوثيقة : [وانه من اعتبط مؤمناً قتلا فإنه قود به إلا أن يرضى ولى المقتول بالعقل، وأن المؤمنين عليه كافة] . والذى يعتبط مؤمناً قتلا هو الذى يقتله بغير حق ، وجزاؤه كما فى النص من الوثيقة القتل ، إلا إذا رضى ولى المقتول بالدية .

إن الإسلام يعلن مبدأ حق الحياة ، ووجوب صيانة الحياة من كل ما يقضى عليها او يتلفها او يضعفها .

وسنذكر فيما يلى امثلة فيما يتعلق بحفظ الحياة[2] :

---

(١) أبو عبيد : الاموال ص ٢٠٦ .
(٢) دكتور مصطفى السباعى : إشتراكية الاسلام ص ٤٠ .

١ — تحريم قتل النفس بغير حق : « ولا تقتلوا النفس التى حرم الله إلا بالحق » .

٢ — عقوبة الإعدام للقاتل بغير حق « كتب عليكم القصاص فى القتلى » .

٣ — القتل بحق ، وهو إعدام القاتل ، وقتل الخارج على الجماعة وانظمتها العامة فى بعض الحالات .

٤ — تحريم الانتحار مهما كان الباعث على ذلك « ولا تقتلوا أنفسكم » .

٥ — النهى عن المخاطرة بالنفس : « ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة » .

٦ — حق الدفاع عن النفس ، فمن صال على إنسان ليقتله . جاز للمهاجم أن يدرأ عن نفسه الخطر ولو بقتل الصائل ، لأن للمهاجم معتد ، والعداون على حياة إنسان بغير حق ولا عذر . مبيح لإهدار دم للمعتدى .

٧ — ومن أكره على قتل إنسان ظلماً . لايجوز له أن يرتكب جريمة القتل ولو كان فى امتناعه قضاء على حياته . إذ لا يجوز أن يفتدى حياته بحياة غيره .

٨ — من الأهداف التى شرع الجهاد من أجلها . حماية « حق الحياة » لأبناء الشعب ، فإن الحرب العدوانية من جانب الأعداء تعرض حياة الأمة وأرواح أبنائها للخطر .

٩ — وإذا خرجت فئة على جمهور الشعب وحملت السلاح فى وجهه وجب قتالها حتى تفيء إلى الحق « وإن طائفتان من المؤمنين إقتتلوا فأصلحوا بينهما ، فإن بغت إحداهما على الأخرى فقاتلوا التى تبغى حتى تفيء إلى أمر الله » .

١٠ — وإذا تجمع بعض الأشقياء فكونوا عصابات تقطع الطرق ، وتقتل الأنفس ، وتسلب الأموال ، وتخيف الآمنين ، وجبت عقوبتهم بأنواع من العقوبة ، منها الإعدام بكيفية خاصة : « إنما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون فى الأرض فساداً أن يقتلوا او يصلبوا أو تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف أو ينفوا من الأرض) وفى تفسير هذه الآية وبيان أحكامها خلاف فى المذاهب الإجتهادية ، ولكن المتفق عليه أن جرائم هؤلاء الأشقياء إن بلغت حد قتل الأبرياء وجبت عقوبتهم بالكيفية التى نص عليها القرآن فى هذه الآية الكريمة .

ثانى عشر : حرمة المدينة :

تنص الوثيقة على أن [يثرب حرام جوفها لأهل هذه الصحيفة] .

وفى هذا النص تأكيد لما أمن الرسول به اليهود على أموالهم وأنفسهم ، ولما افترض عليهم من مسالمة المسلمين وعدم الكيد لهم .

ومن أجل حرمة المدينة يقول أبو هريرة :[لو رأيت الظباء بالمدينة ترتع ما ذعرتها(١)] .

---

(١) صحيح البخارى : ج ١ ص ٢٤٣ .

والهدف من ذلك أن يتعود الناس الحياة الآمنة التى لا تكدرها الجريمة، ولا يعكر صفوها حرب.

ثالث عشر: لاجوار لقريش:

فقد جاء فى الوثيقة: [وأنه لا تجار قريش ولا من نصرها].

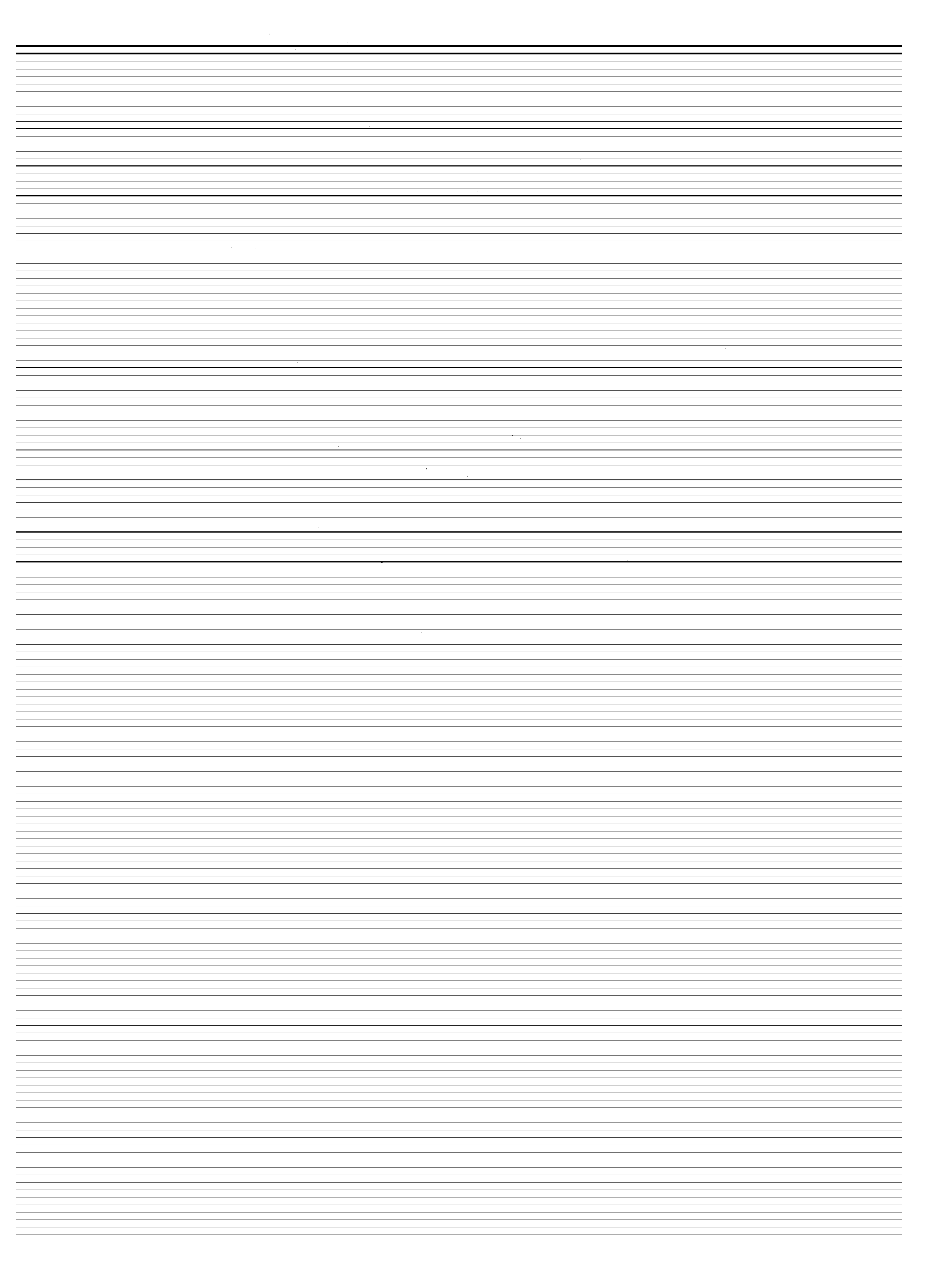
كانت عادة الجوار عميقة الجذور فى نفوس العرب فى الجاهلية، بحيث أصبحت من دواعى الشرف والنجدة، وقد رأى الرسول أنه من الضرورى القضاء على هذه العادة من أجل الحفاظ على حدود وأمن الدولة الإسلامية، فالمدينة ومن إنضم إليها دولة واحدة غير متصلة بما عداها إلا بالشروط الجديدة التى وضعها الرسول، فلا صلة بين المدينة وبين غيرها إلا عن طريق الإسلام وعن طريق الإلتحاق بها والتبعية لها، ولتقوية جبهه المدينة إعتبرت الهجرة إلى المدينة أساساً للحصول على حق الرعوية للدولة الجديدة، فعلى من يدخل الإسلام ويريد أن يكون مواطناً فى المدينة أن يهاجر إليها، وقد نزل القرآن بنص صريح فى ذلك فقال:

« والذين آمنوا ولم يهاجروا ما لكم من ولايتهم فى شىء حتى يهاجروا وإن استنصروكم فى الدين فعليكم النصر إلا على قوم بينكم وبينهم ميثاق(١) ».

هذه هى أهم المبادى التى تضمنتها الوثيقة .. ولكن هل كان اليهود حقاً مخلصين لهذه الوثيقة إخلاصا أكيداً؟ وهل كانوا عازمين حقاً على تنفيذ بنودها؟. هذا ما سنراه فى الفصل القادم.

---

(١) دكتور أحمد إبراهيم شريف - مكة والمدينة فى الجاهلية وعهد الرسول - ص ٣٩٩.



الفصل الخامس

مدينة الجهاد

لم يكد اليهود يطمئنون إلى موادعة الرسول لهم ، حتى عادوا إلى بيوتهم يشحذون أسلحتهم السامة لحرب المسلمين فى معركة غير مكشوفة يتقون بها المواجهة السافرة ، والصدام المسلح .

وكان أقسى ما روعهم من الإسلام ، أن اطفأ نار العداوة والبغضاء بين الأوس والخزرج ، بعد ان عمد اليهود إلى إشعالها بوقود الدس والفتنة منذ حطت جماعتهم على اخصب منطقة بشمال الحجاز فارة من مخالب النسر الرومانى ، ونشبوا فى كل كيان المنطقة على حساب الوجود العربى الممزق .

وها هو الإسلام قد حسم ما بين الأوس والخزرج من فتن وأحقاد فهل يمكن إيقاظ الفتنة من جديد ، وإثارة الحفائظ القديمة بين الأوس والخزرج . علها تعيد الحرب جذعة بينهم ؟ .

لا بأس من المحاولة .

ولذا نرى شاس بن قيس اليهودى يرسل لهم شابا يهوديا يذكرهم يوم بعاث ، وينشدهم بعض الشعر الذى قاله شعراؤهم فيه يوم كانوا يتفاخرون ، مما جعل شباب الحيين يسيرون وراءه فى الإنشاد ، ويلفون

لفه فى التفاخر ، فيهيج الحيان ، ويتواعدان مكانا بظاهر المدينة، ليعيدوها جذعة . . وفعلا يستعد شباب الحيين ، وهناك ، وفى الموعد المحدد ، وفى المكان المعين يجتمعون ! .

ولكن الرسول يأخذ علما بما تم ، فيذهب إليهم ومعه جماعة من المهاجرين . وكبار الأنصار ، فيقول لهم :

(يا معشر المسلمين الله الله ! ابدعوى الجاهلية ؟ وأنا بين أظهركم بعد أن هداكم الله للإسلام ، وأكرمكم به ، وقطع عنكم أمر الجاهلية واستنقذكم به من الكفر ، وألف بين قلوبكم ؟) .

وهنا . . عرف القوم أنها نزعة من الشيطان ، وكيد من عدوهم ، فبكوا ، وعانق الأوس الخزرج ، ثم إنصرفوا مع الرسول سامعين مطيعين (١) .

ولقد أكدت الأحداث على أن المحالفة كانت من جانب اليهود غير صادقة كذلك ، إذ لقى اليهود المسلمين حين رجوعهم من غزوة بدر وهم منتصرون ، لقاء الحاسد ، ولم يشاركوا سكان المدينة فرحهم ، مع أن بنى قينقاع كانت تسكن بداخلها .

يقول ابن هشام (وكان من حديث بنى قينقاع أن رسول الله صلى الله عليه وسلم جمعهم بسوق بنى قينقاع ، ثم قال : يا معشر يهود ، إحذروا من الله مثل ما نزل بقريش من النقمة ، وأسلموا فإنكم قد عرفتم أنى نبى مرسل ، تجدون ذلك فى كتابكم وعهد الله إليكم .

---

(١) السمهودى : ج ١ ، ص ١٩٢ .

قالوا : يا محمد لا يغرنك من لقيت ، إنك قهرت قوما أغماراً[1] وأنا والله أصحاب الحرب ، ولئن قاتلتنا لتعلمن أنك لم تقاتل مثلنا[2])

وبينما هم على ما هم عليه — من إظهار العداوة ونبذ العهد — جاءت إمرأة رجل من الأنصار إلى سوق بنى قينقاع فجلست عند صائغ فى حلى لها ، فجاء أحد بنى قينقاع فحل درعها من ورائها بشوكة ولا تشعر ؛ فلما قامت بدت عورتها فضحكوا بها ، فاتبعه رجل من المسلمين فقتله ؛ فاجتمع عليه بنو قينقاع وقتلوه ونبذوا العهد إلى الرسول وحاربوا ؛ وتحصنوا فى حصنهم ، فأعلمهم الرسول بالحرب ، وحاصرهم فى دورهم خمس عشرة ليلة ، حتى نزلوا على حكمه ، ولما أراد الرسول تنفيذ الحكم ، قام إليه عبد الله بن أبى سلول ، فقال :

— يا محمد ، أحسن فى موالى — وكانوا حلفاء الخزرج — فأبطأ عليه الرسول ، فقال : يا محمد، أحسن فى موالى ، فأعرض عنه ، فأدخل يده فى جيب درع الرسول .

فقال له الرسول : أرسلنى .

وغضب الرسول حتى رأوا لوجهه ظللا ، ثم قال : ويحك ! أرسلنى قال : لا والله لا أرسلك حتى تحسن فى موالى ، أربعمائة حاسر وثلثمائة

---

(١) الغمر : الجاهل الغر الذى لا غناء عنده ولا رأى ولا تجربة ولا علم له بحرب ولا أمر .

(٢) أنظر أيضا امتاع الاسماع ج ١ ص ١٠٤ .

دارع قد منعونى من الأحمر والأسود تحصدهم فى غداة واحدة ، إنى والله امرؤ أخشى الدوائر .

فقال الرسول : هم لك .

وقد تبرأ عبادة بن الصامت من حلف هؤلاء اليهود ، وخلع عهدهم وترك أمرهم للرسول . ولذا أخذ أموالهم ، وعفا عن قتلهم ، وأرسل عبادة بن الصامت الخزرجى معهم ، ليخرجهم من المدينة ، وهناك . . وبأذرعات بالشام تركهم (١) .

راح اليهود يشنون على الرسول والذين معه حربا نفسية ضارية ، وها نحن نرى كعب بن الأشرف اليهودى يبكى أصحاب بدر ، ويحمس قريشاً على الأخذ بثأر قتلاها ، وينشد الأشعار ينال بها من المسلمين ومن نسائهم .

فقال الرسول : من لى بابن الأشرف ؟ .

قال محمد بن مسلمة : أنا به يا رسول الله ، وأنا أقتله .

قال : فافعل إن قدرت على ذلك .

وأمره بمشاورة سعد بن معاذ فاجتمع محمد بن مسلمة ونفر من الأوس منهم : عبـاد بن بشر بن وقش بن رغبه بن عبد الأشهل ، وأبو نائلة بن سلامة ، والحارث بن أوس ، وأبو عبس بن جبر أحد بنى حارثة ، فقالوا : يا رسول الله ، نحن نقتله فأذن لنا فلنقل ، قال : قولوا : فأتاه أبو نائلة وهو فى نادى قومه — وكان هو ومحمد بن مسلمة

---

(١) ابن عساكر جـ ٧ صفحة ٣٠٩ .

أخويه من الرضاعة ـ فتحدثا وتناشدا الأشعار حتى قام القوم فقال له: كان قدوم هـذا الرجل علينا من البلاء ، حاربتنا العرب ورمتنا عن قوس واحدة ، وتقطعت السبل عنا حتى جهدت الأنفس ، وضاع العيال ، فقال كعب : قد كنت أحدثك بهذا ان الأمر سيصير إليه .

قال أبو نائلة : ومعى رجال من أصحابى على مثل رأيى . وقد أردت أن آتيك بهم فنبتاع منك طعاماً وتمراً ، ونرهنك ما يكون لك فيه ثقة ، وأكتم عنا ما حدثك من ذكر محمد .

قال : لا أذكر منه حرفاً ، لكن أصدقنى ، ما الذى تريدون فى أمره ؟

قال : خذلانه والتنحى عنه .

قال : سررتنى ، فماذا ترهنوننى ؟

قال : الحلقة[1] فرضى .

وقام أبو نائلة من عنده على ميعاد ، فأتى أصحابه فأجمعوا أن يأتوه إذا أمسى لميعاده ، فأتوا ابن الأشرف فهتف به أبو نائلة فوثب ونزل من حصنه إليهم ، فجعلوا يتحادثون ساعة ، ثم مشوا قبل شرج العجوز[2] يتحادثوا بقية ليلتهم ، فأدخل أبو نائلة يده فى رأس كعب وقال : ما أطيب عطرك هذا ! ! ثم مشى ساعة وعاد لمثلها وأخذ

---

(١) السلاح عامة والدروع خاصة .

(٢) موضع بقرب المدينة .

بقرون(١) رأسه فضربه الجماعة باسيافهم ، ووضع محمد بن مسلمة سيفاً معه فى سرة كعب حتى إنتهى إلى عانته ، فصاح صيحة أسمعت جميع آطام اليهود ، فخافت اليهود ولم يطلع عظيم من عظمائهم(٢) .

رأى بنو النضير ما حصل لإخوانهم بنى قينقاع فتنمروا للمسلمين وأخذوا يفتحون بيوتهم لأعداء الرسول ، ويقولون ما يقولون ! ! بل عمدوا إلى إغتيال الرسول نفسه ، بإلقاء صخرة كبيرة عليه ، لولا أن الله ألهمه ذلك .

وطلب الرسول من محمد بن مسلمة أن يذهب إلى يهود بنى النضير ويقول لهم : إن رسول الله أرسلنى إليكم ، أن اخرجوا من بلده ، فإنكم قد نقضتم العهد بما هممتم به من الغدر ، وقد أجلتكم عشراً ، فمن رئى بعد ذلك ضربت عنقه .

فأخذوا يتجهزون فى أيام ، ثم بعث حيي بن اخطب مع أخيه جدى ابن أخطب إلى الرسول : « إنا لا نخرج فليصنع ما بداله ! » وقد غره عبد الله بن أبى بأن أرسل إليه بأن يقيم بنو النضير ولا يخرجوا ، فإن من معى من قومى وغيرهم من العرب الذين يدخلون معكم فيموتون من آخرهم دونكم .

فلما بلغ جدى رسالة أخيه حيي كبر الرسول وكبر من معه وقال : « حاربت يهود » ؛ ونادى مناديه بالمسير إلى بنى النضير .

---

(١) القرون : ضفائر الرأس .
(٢) امتاع الاسماع ج ١ ص ١٠٨ .

وسار الرسول فى أصحابه إليهم ، فتحصنوا منه فى الحصون ، فحاصرهم حتى شق عليهم ، وسألوا الرسول ان يجليهم ، ويكف عن دمائهم ، على ان لهم ماحملت الإبل من اموالهم إلا السلاح ، ففعل. فاحتملوا من اموالهم ما استقلت به الإبل ، فكان الرجل منهم يهدم بيته عن عتبة بابه ، فيضعه على ظهر بعيره ، فينطلق به ، فخرجوا إلى خيبر ، ومنهم من سار إلى الشام . وخلوا الأموال للرسول خاصة ، يضعها حيث يشاء ، فقسمها على المهاجرين دون الأنصار بعد ان استبقى قسما خصصت غلته للفقراء والمساكين . وبذلك أصبح المهاجرون فى غنى عن معونة الأنصار واصبح لهم مثل ثروتهم . ولم يشترك فى القسمة من الأنصار إلا ابو دجانة سماك بن خرشة وسهل بن حنيف فقد ذكرا فقراً فأعطاهما الرسول كما اعطى للمهاجرين ، ولم يسلم من يهود بنى النضير غير رجلين ، فأبقى لهما الرسول جميع ثروتهما ، ذلك أنه من قال : لا إله إلا الله فقد عصم نفسه وماله إلا بحقه ، والله وحده بعد هذا يعلم سرائر النفس وما انطوت عليه .

وانطلق بنو النضير مع فلول يهود بنى قينقاع ، الأحقاد تمور فى الصدور ، وأحلام السيطرة على المدينة تملأ الرءوس . . وطاف حيي ابن أخطب وسلام بن أبى الحقيق وكنانة بن أبى الحقيق ومعهم من وائل هوذة بن قيس وأبو عمار حتى قدموا على قريش فى مكة . فقالوا لقريش : نحن معكم حتى نستأصل محمداً ، جئنا لنحالفكم على عداوته وقتاله . فنشطت قريش لذلك ، وتذكروا أحقادهم ببدر فقال أبو سفيان : مرحباً وأهلا ! أحب الناس إلينا من أعاننا على عداوة

محمد . وأخرج خمسين رجلا من بطون قريش كلها وتحالفوا وتعاقدوا . ألا يخذل بعضهم بعضاً ، ولتكونن كلمتهم واحدة على محمد مابقى منهم رجل .

وقال أبو سفيان : يامعشر يهود ! أنتم أهل الكتاب الأول والعلم ، أخبرونا عما أصبحنا نختلف فيه نحن ومحمد ، أديننا خير أم دين محمد ؟ فنحن عمار البيت ، وننحر الكوم[1] ، ونسقى الحجيج ، ونعبد الأصنام !

فقالت يهود : اللهم أنتم أولى بالحق منه ؛ إنكم لتعظمون هذا البيت ، وتقومون على السقاية ، وتنحرون البدن[2] ، وتعبدون ما كان عليه آباؤكم ، فأنتم أولى بالحق منه ! !

فأنزل الله تعالى فى ذلك : (ألم تر إلى الذين أوتوا نصيباً من الكتاب يؤمنون بالجبت والطاغوت ويقولون للذين كفروا هؤلاء أهدى من الذين آمنوا سبيلا . أولئك الذين لعنهم الله ومن يلعن الله فلن تجد له نصيراً . أم لهم نصيب من الملك فإذاً لا يؤتون الناس نقيراً . أم يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله فقد آتينا آل إبراهيم الكتاب والحكمة وآتيناهم ملكاً عظيما . فمنهم من آمن به ومنهم من صد عنه وكفى بجهنم سعيراً . إن الذين كفروا بآياتنا سوف نصليهم ناراً

(١) الكوم جمع كوماء : وهى الناقة المشرفة السنام العاليته

(٢) البدن جمع بدنة : وهى من الابل والبقر كالاضحية من الغنم ، تهدى إلى مكة لتنحر ، وسميت كذلك لأنهم كانوا يسمنونها فتكون بادنة

كلما نضجت جلودهم بدلناهم جلوداً غيرها ليذوقوا العذاب إن الله كان عزيزاً حكيما(١) .

واتعدوا لوقت محدد ، وخرجت يهود إلى غطفان ، وجعلت لهم تمر خيبر سنة إن هم نصروهم وتجهزت قريش ، وسيرت تدعو العرب إلى نصرها .

وقد خرجت قريش وعلى رأسها أبو سفيان فى أربعة آلاف مجند وثلثمائة جواد وخمسمائة وألف ممتط بعيره ، وعقد اللواء فى دار الندوة لعثمان بن طلحة ، وخرجت بنو فزارة وعلى رأسها عيينة بن حصن ابن حذيفة فى رجال كثيرين وألف بعير . أما أشجع ومرة فجاء كل منها فى أربعمائة محارب ، يتزعم الحارث بن عوف مرة ، ويتزعم مسعد بن رخيلة أشجع ، وجاءت سليم أصحاب بئر معونة فى سبعمائة رجل ، وانحاز إليهم بنو سعد وأسد ، فصاروا فى عشرة آلاف رجل أو نحوها ، وساروا جميعاً تحت إمرة أبى سفيان قاصدين للمدينـــة .

ولما سمع الرسول بقدوم هذا الجيش الضخم إلى المدينة ، استشار كما تعود أصحابه ، فأشار عليه أحد المسلمين أن يخرج بجيشه وسينصرهم الله نصراً عزيزاً كما نصرهم فى بدر وأشار آخرون أن يعتصموا فى المدينة ليدافعوا عنها ، فلا يستولى الجيش الزاحف على شبر واحد من الأرض إلا على رفات الشهداء .

---

(١) سورة النساء

ورأى الرسول أن فى الخروج من المدينة مخاطرة ، فمن يدرى ماذا يمكن أن يفعله عبد الله بن أبى ؟

وهناك أيضاً يقيم يهود بنى قريظة ، لا أمان لهم ! إنهم لن يخرجوا معه إلى قتال الجيش الزاحف ، إذا قرر الخروج ، وقد ينتهزون فرصة خروج الجيش ليدبروا انقلاباً فى المدينة ، أو ليحالفوا عبد الله بن أبى ويضعوا على رأسه التاج ، ويقيموا له دولة ، فيعود محمد بعد المعركة ليجد قاعدة انطلاقه قد احتلها الأعداء . ومع ذلك فلئن أقام فى المدينة وانهزم عنها بعض القوات ، لدخل جيش الأحزاب المدينة يقتلون الأطفال ، ويسبون النساء ويخربون الدور ويحرقون البساتين . . ستكون مذبحة رهيبة يدفع ثمنها الضعفاء . .

وظل محمد يفكر فى خطة يدفع بها هذا التيار الزاحف . . وأخيراً تقدم سلمان الفارسى باقتراح أن يخرج كل الجيش إلى ظاهر المدينة ، ويتحصن وراء خندق .

ووافق الرسول على الفكرة : وسارع المسلمون إلى تنفيذ الفكرة بحفر الخندق . وكان محمد يعمل فيه بيديه وهو يقول :

اللهم لولا أنت ما اهتدينا ولا تصدقنا ولا صلينا
فأنزلن سكينة علينا وثبت الأقدام إن لاقينا
إن الألى قد بغوا علينا وإن أرادوا فتنة أبينا[1]

يقول البراء بن عازب رضى الله عنه :

---

(1) البخارى ج ٥ ص ١١٠

[أمرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم بحفر الخندق ، قال : عرض لنا صخرة فى مكان من الخندق لا تأخذ فيه المعاول ، قال : فشكونا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فجاء الرسول وأخذ المعول فقال : « باسم الله » فضرب ضربة فكسر ثلث الحجر ، وقال : « الله أكبر أعطيت مفاتيح الشام والله إنى لأبصر قصورها الحمر من مكانى هذا » ثم . قال : « باسم الله » وضرب أخرى فكسر ثلث الحجر ، فقال : « الله أكبر أعطيت مفاتيح فارس . والله إنى لأبصر المدائن وأبصر قصرها الأبيض من مكانى هذا » . ثم قال : « باسم الله » وضرب ضربة أخرى فقلع الحجر ، فقال : « الله أكبر ، أعطيت مفاتيح اليمن ، والله إنى لأبصر أبواب صنعاء من مكانى هذا »[1]] .

ولما كمل الخندق صارت للمدينة كالحصن ، ورفع المسلمون النساء والأطفال فى الآكام . وقد كانت عدة المسلمين ثلاثة آلاف مقاتل ، وعلى رأس الأنصار ، حامل لوائهم ، سعد بن عبادة الخزرجى[2] ، وعلى رأس المهاجرين زيد بن حارثة ، وعسكر الرسول بجيشه هذا بظاهر المدينة ، وجعل الخندق بينه وبين الأحزاب .

وكان حيي بن أخطب يقول -- لأبى سفيان بن حرب ولقريش فى مسيره معهم — إن قومى قريظة معكم وهم اهل حلقة وافرة ، وهم سبعمائة مقاتل وخمسون مقاتلا ، فلما دنوا قال له أبو سفيان : ائت قومك

(١) الفتح الربانى ج ٢١ ص ٧٨

(٢) السيرة الحلبية : ج ٢ ص ١٣٣ .

حتى ينقضوا العهد الذى بينهم و بين محمد (١) فاتى بنى قريظة . . واراد ان يتحدث إلى كعب بن أسد ، فلما سمع كعب بحيي بن أخطب ، أغلق دو نه باب حصنه ، فاستأذن عليه ، فأبى أن يفتح له ، فناداه حيي : ويحك يا كعب ! افتح لى ، قال : ويحك ياحيي ! إنك امرؤ مشئوم ، وانى قد عاهدت محمداً ، فلست بناقض ما بينى و بينه ، ولم أر منه إلا وفاء وصدقا ، قال : ويحك ! افتح لى أكلك ، قال : ما أنا بفاعل ، قال : والله إن أغلقت دونى إلا عن جشيشتك (٢) أن آكل معك منها ، فأحفظ الرجل ، ففتح له . فقال : ويحك يا كعب ! جئتك بعز الدهر و ببحر طام (٣) ، جئتك بقريش على قادتها وسادتها ، حتى انزلتهم بمجتمع الأسيال من رومه ، و بغطفان على قادتها وسادتها ، حتى أنزلتهم إلى جانب أحد ، قد عاهدونى وعاقدونى على ألا يبرحوا حتى نستأصل محمداً ومن معه . فقال له كعب : جئتنى والله بذل الدهر ، ويحك يا حيي ! فدعنى وما أنا عليه ، فإنى لم أر من محمد إلا صدقاً ووفاء . فلم يزل حيي بكعب يفتله فى الذروة والغارب ، حتى سمح له ، على أن أعطاه عهداً من الله وميثاقاً : لئن رجعت قريش وغطفان ، ولم يصيبوا محمداً ، أن أدخل معك فى حصنك ، حتى يصيبنى ما أصابك . فنقض كعب بن أسد عهده ، وبرىء مما كان بينه وبين الرسول صلى الله عليه وسلم (٤) .

(١) امتاع الأسماع ج ١ ص ٢٢٥ .
(٢) الجشيشة : طعام يصنع من البر .
(٣) يريد كثرة الرجال .
(٤) ابن هشام .

وبينما الرسول فى قبته[1] ، والمسلمون على خندقهم يتناوبونه ، معهم بضع وثلاثون فرساً ، والفرسان يطوفون على الخندق ، إذ جاء عمر بن الخطاب فقال : يا رسول الله . بلغنى أن بنى قريظة نقضت العهد وحاربت . فاشتد ذلك على الرسول وقال : حسبنا الله ونعم الوكيل . وبعث الزبير بن العوام إليهم لينظر فعاد بأنهم يصلحون حصونهم ، ويدربون طرقهم ، وقد جمعوا ماشيتهم ، فقال : إن لكل نبى حوارياً ، وإن حوارى الزبير . ثم بعث سعد بن معاذ ، وسعد بن عبادة ، وأسيد ابن خضير لينظروا ما بلغه عن بنى قريظة ، وأوصاهم — إن كان حقاً — أن يلحنوا لئلا يفت ذلك فى أعضاد المسلمين ويورث وهنا . فوجدوهم مجاهرين بالعداوة والغدر ، وقالوا : من رسول الله ؟ لا عهد بيننا وبين محمد ولا عقد فشاتمهم سعد بن معاذ وشاتموه . فقال سعد ابن عبادة : دع عنك مشاتمتهم ، فما بيننا وبينهم أربى من المشاتمة . ثم أقبل سعد ابن معاذ وسعد بن عبادة ومن معهما ، إلى الرسول ، فسلموا عليه ، ثم قالوا : عضل والقارة — أى كغدر عضل والقارة بأصحاب الرجيع — فقال الرسول : الله أكبر أبشروا يا معشر المسلمين . وانتهى الخبر إلى المسلمين ، فاشتد الخوف وعظم البلاء ، ونجم النفاق وفشل الناس . وكانوا كما قال الله تعالى : [إذ جاءوكم من فوقكم ومن أسفل منكم وإذ زاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر ، وتظنون بالله الظنونا هنالك إبتلى المؤمنون وزلزلوا زلزالا شديداً[2]] .

(١) إمتاع الاسماع جـ ١ ص ٢٢٦ . وسيرة ابن هشام جـ ٢ ص ١٩٢ .
(٢) سورة الأحزاب : ١١ .

وتكلم قوم بكلام قبيح فقال معتب بن قشير : كان محمد يعدنا أن نأكل كنوز كسرى وقيصر ، وأحدنا اليوم لا يأمن على نفسه أن يذهب إلى الغائط .

وقال أوس بن قيظي : يارسول الله ، أن بيوتنا عورة من العدو ، وذلك عن ملأ من رجال قومه ، فائذن لنا أن نخرج فنرجع إلى دارنا ، فإنها خارج من المدينة .

وأقام الرسول وأصحابه محصورين بضع عشرة ليلة حتى اشتد الكرب ، ، وقال الرسول : «اللهم إني أنشدك عهدك ووعدك ، اللهم إنك إن تشأ لا تعبد » .

وأرسل إلى عيينة بن حصن ، والحارث بن عوف — وهما رئيسا غطفان — أن يجعل لهما ثلث ثمر المدينة ، ويرجعان بمن معهما ، فرضيا ، ، وجاء في عشرة من قومهما حتى تقارب الأمر ، وأحضرت الصحيفة والدواة ليكتب عثمان بن عفان الصلح — وعباد بن بشر قائم على رأس الرسول مقنع في الحديد — فأقبل أسيد بن حضير ، وعيينة ماد رجليه فقال له :

— يا عين الهجرس[1] ، أقبض رجليك . أتمد رجليك بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ والله لولا رسول الله لأنفذت حضنيك بالرمح ! ثم قال : يا رسول الله صلى الله عليك ، إن كان أمراً من السماء

(١) الهجرس : ولد الثعلب ويقال هو القرد .

فامض له ، وإن كان غير ذلك فو الله لا نعطيهم إلا السيف . متى طمعتم بهذا منا ؟

فدعا الرسول سعد بن معاذ وسعد بن عبادة فاستشارهما خفية ، فقالا : إن كان هذا أمراً من السماء فامض له ، وإن كان أمراً لم تؤمر فيه ولك فيه هوى فسمع وطاعة ، وإن كان إنما هو الرأى فما لهم عندنا إلا السيف .

فقال الرسول : إنى رأيت العرب رمتكم عن قوس واحدة فقلت أرضيهم ولا أقاتلهم . فقالا : يارسول الله ، والله إن كانوا ليأكلون العلهز (١) فى الجاهلية من الجهد ، ما طمعوا بهذا منا قط ؟ أن يأخذوا تمرة إلا بشراء أو قرى ! فحين أتانا الله بك وأكرمنا بك ، وهدانا بك ، نعطى الدنية ! لا نعطيهم أبداً إلا السيف .

فقال الرسول : شق الكتاب ، فشقه سعد ، فقام عيينة والحارث ، فقال الرسول : إرجعوا ، بيننا السيف (٢) .

وجاء نعيم بن مسعود الغطفانى ، وقال للرسول ، إنى أسلمت ولم يعلم قومى بإسلامى ، فمرنى بما شئت .

فقال الرسول القائد كلمته الخالدة ، التى تعتبر دستور الحرب ، ورائد المقاتل فى كل زمان ومكان :

---

(١) العلهز : وبر يخلط بدماء القراد والابل والحلم ، ثم يسوونه بالنار ويأكلونه . كان أهل الجاهلية يتخذونه فى سنى المجاعة والقحط .

(٢) امتاع الاسماع : جـ ١ ص ٢٣٦ .

— (إنما أنت رجل واحد ، فخذل عنا ما استطعت ، فإن الحرب خدعة) .

فمضى نعيم بن مسعود إلى بنى قريظة ، وكان نديما لهم فقال : قد عرفتم محبتى قالوا : نعم .

فقال : إن قريشاً وغطفان ليست هذه بلادهم وأنهم لمن رأوا فرصة إنتهزوها وإلا رجعوا إلى بلادهم وتركوكم فى البلاد مع محمد ولا طاقة لكم به .

قالوا : فما ترى ؟

قال : لا تقاتلوا معهم حتى تأخذوا منهم رهناً .

فقبلوا رأيه فتوجه إلى قريش فقال لهم : إن اليهود ندموا على الغدر بمحمد فراسلوه فى الرجوع إليه فراسلهم بأنا لا نرضى حتى تبعثوا إلى قريش فتأخذوا منهم رهنا فأقتلهم .

ثم جاء غطفان بنحو ذلك . فلما أصبح أبو سفيان بعث عكرمة ابن أبى جهل إلى بنى قريظة بأنا قد ضاق بنا المنزل ولم نجد مرعى فاغدوا للقتال حتى تناجز محمداً . فأجابوه : إن اليوم يوم السبت ولا نعمل فيه شيئاً ولابد لنا من الرهن منكم حتى لا تغدروا بنا .

فقالت قريش : هذا ما حذركم نعيم .

فراسلوهم ثانياً ، إنا لا نعطيكم رهناً ، فإن شئتم أن تخرجوا فافعلوا .

فقالت قريظة : هذا ما أخبرنا نعيم .

وبعث الله عليهم الريح ، فما تركت لهم بناء إلا هدمته ، ولا إناء إلا أكفئته لا تقر لهم قراراً ، ولا ناراً ، ولا بناء .. فقام أبو سفيان فقال :

— يا معشر قريش ، والله ما أصبحتم بدار مقام . لقد هلك الكراع والخف وأخلفتنا بنو قريظة ، ولقينا من شدة الريح ما ترون فارتحلوا فإني مرتحل .

فتحملت قريش وإن الريح لتغلبهم على بعض أمتعتهم . وسمعت غطفان بما فعلت قريش فانشمروا راجعين إلى بلادهم[1] وأصبح الرسول بعد رحيل الأحزاب ، فأذن للمسلمين في الإنصراف فلحقوا بمنازلهم .

وكتب أبو سفيان إلى الرسول كتاباً فيه : (باسمك اللهم . فإني أحلف باللات والعزى ، لقد سرت إليك في جمعنا وإنا نريد لا نعود أبداً حتى نستأصلكم ، فرأيتك قد كرهت لقاءنا ، وجعلت مضايق وخنادق . فليت شعري من علمك هذا . ؟ فإن نرجع عنكم فلكم منا يوم كيوم أحد) . وبعث به مع أبي أسامة الجشمي ، فقرأه أبي ابن كعب على رسول الله في قبته ، وكتب إليه : (من محمد رسول الله إلى أبي سفيان بن حرب . أما بعد ، فقديماً غرك بالله الغرور . أما ما ذكرت — إنك سرت إلينا في جمعكم ، وإنك لا تريد أن تعود حتى تستأصلنا — فذلك أمر يحول الله بينك وبينه ، ويجعل لنا العاقبة حتى لا تذكر اللات والعزى .

وأما قولك : من علمك الذي صنعنا من الخندق ؟ فإن الله ألهمني

(١) السمهودي : ج ١ ص ٢١٧ .

ذلك لما أراد من غيظك وغيظ صحابك ، وليأتين عليك يوم تدافعني بالراح ، وليأتين عليك يوم أكسر فيه اللات والعزى وأساف ونائلة وهبل ، حتى أذكرك ذلك[1]) .

وأنزل الله تعالى — في شأن الخندق يذكر نعمته وكفايته عدوهم بعد سوء الظن منهم ، ومقالة من تكلم بالنفاق — قوله عز وجل :

(يا أيها الذين آمنوا أذكروا نعمة الله عليكم إذ جاءتكم جنود فأرسلنا عليهم ريحا وجنوداً لم تروها وكان الله بما تعملون بصيراً . إذ جاءوكم من فوقكم ومن أسفل منكم وإذ زاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر وتظنون بالله الظنونا . هنالك إبتلى المؤمنون وزلزلوا زلزالا شديداً . وإذ يقول المنافقون والذين في قلوبهم مرض ما وعدنا الله ورسوله إلا غروراً . وإذ قالت طائفة منهم يا أهل يثرب لا مقام لكم فارجعوا ويستأذن فريق منهم النبي يقولون إن بيوتنا عورة وما هي بعورة إن يريدون إلا فراراً . ولو دخلت عليهم من أقطارها ثم سئلوا الفتنة لأتوها وما تلبثوا بها إلا يسيراً ، ولقد كانوا عاهدوا الله من قبل لا يولون الأدبار وكان عهد الله مسئولا . قل لن ينفعكم الفرار إن فررتم من الموت أو القتل وإذا لا تمتعون إلا قليلا . قل من ذا الذي يعصمكم من الله إن أراد بكم سوءاً أو أراد بكم رحمة ولا يجدون لهم من دون الله ولياً ولا نصيراً . قد يعلم الله المعوقين منكم والقائلين لإخوانهم هلم إلينا ولا يأتون البأس إلا قليلا . أشحة عليكم فإذا جاء الخوف رأيتهم ينظرون إليك تدور أعينهم كالذي يغشى عليه من الموت فإذا ذهب الخوف

(١) امتاع الاسماع : ج ١ ص ٢٣٩ .

سلقوكم بألسنة حداد أشحة على الخير أولئك لم يؤمنوا فأحبط الله أعمالهم وكان ذلك على الله يسيراً . يحسبون الأحزاب لم يذهبوا وإن يأت الأحزاب يودوا لو أنهم بادون فى الإعراب يسألون عن أنبائكم ولو كانوا فيكم ما قاتلوا إلا قليلا . لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيراً . ولما رأى المؤمنون الأحزاب قالوا هذا ماوعدنا الله ورسوله وصدق الله ورسوله وما زادهم إلا إيماناً وتسليماً . من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر وما بدلوا تبديلا . ليجزى الله الصادقين بصدقهم ويعذب المنافقين إن شاء أو يتوب عليهم إن الله كان غفوراً رحيماً . ورد الله الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيراً وكفى الله المؤمنين القتال وكان الله قويا عزيزاً . وأنزل الذين ظاهروهم من أهل الكتاب من صياصيهم وقذف فى قلوبهم الرعب فريقاً تقتلون وتأسرون فريقاً . وأورثكم أرضهم وديارهم وأموالهم وأرضاً لم تطؤوها وكان الله على كل شيء قديراً[1]] .

وقد سجل شعراء الأنصار يوم الأحزاب ، فقال كعب بن مالك السلمي الخزرجي :

وسائلة تسائل ما لقينا ؟ ولو شهدت رأتنا صابرينا
وكان لنا النبي وزير صدق به نعلو البرية أجمعينا
نقاتل معشراً ظلموا وعقوا وكانوا بالعداوة مرصدينا

(١) سورة الاحزاب : ٩ — ٢٧ .

نهاجمهم إذا نهضوا إلينا   بضرب يعجل المتسرعينا
لننصر أحمدا والله حتى   نكون عباد صدق مخلصينا
ويعلم أهل مكة حين ساروا   وأحزاب أتوا متحزبينا
بأن الله ليس له شريك   وأن الله مولى المؤمنينا

* * *

رأينا خيانة اليهود من بنى قريظة للرسول ، ولذلك فلم يكن من الطبيعى أن يتركهم بلا عقاب بعد نقضهم العهد ، ومآزرتهم جيش الأحزاب .

وتحركت كتيبة الإيمان ، فى طريقها إلى بنى قريظة ..

وكان حيي بن أخطب قد دخل مع بنى قريظة فى حصنهم ، حين رجعت عنهم قريش وغطفان ، وفاء لكعب بن أسد بما كان عاهده عليه. فلما أيقنوا بأن الرسول غير منصرف عنهم حتى يناجزهم ، قال كعب بن أسد لهم :

— يا معشر يهود ، قد نزل بكم من الأمر ما ترون ، وإنى عارض عليكم خلالا ثلاثا ، فخذوا أيها شئتم .

قالوا وما هى ؟

قال .

نتابع هذا الرجل ونصدقه ، فوالله لقد تبين لكم أنه لنبى مرسل ، وأنه للذى تجدونه فى كتابكم فتأمنون على دمائكم وأموالكم وأبنائكم ونسائكم .

قالوا :

— لا نفارق حكم التوراة أبداً ، ولا نستبدل به غيره .

قال :

— فإذا أبيتم على هذه ، فهلم فلنقتل أبناءنا ونساءنا ، ثم نخرج إلى محمد وأصحابه رجالا مصلتين السيوف ، لم نترك وراءنا نسلا نخشى عليه ، وإن نظهر فلعمري لنجدن النساء والأطفال .

قالوا :

— نقتل هؤلاء المساكين ! فما خير العيش بعدهم ؟

قال :

— فإن أبيتم على هذه ، فإن الليلة ليلة السبت ، وأنه عسى أن يكون محمد وأصحابه قد أمنونا فيها ، فأنزلوا لعلنا نصيب من محمد وأصحابه غرة .

قالوا :

— نفسد سبتنا علينا ، ونحدث فيه ما لم يحدث من كان قبلنا إلا من قد علمت ، فأصابه ما لم يخف عليك من المسخ ؟

قال :

— ما بات رجل منكم منذ ولدته أمه ليلة واحدة من الدهر حازما .

ثم إنهم بعثوا إلى الرسول : إن أبعث إلينا أبا لبابة بن عبد المنذر

أخا بنى عمرو بن عوف ، وكانوا حلفاء الأوس ، لنستشيره فى أمرنا .

فأرسله الرسول إليهم ، فلما رأوه قام إليه الرجال ، وجهش إليه النساء والصبيان يبكون فى وجهه ، فرق لهم .

وقالوا له : يا أبا لبابة ! أترى أن ننزل على حكم محمد ؟

قال : نعم ، وأشار بيده إلى عنقه ، أنه الذبح .

قال أبو لبابة : فوالله مازالت قدماى من مكانهما حتى عرفت أنى قد خنت الله ورسوله صلى الله عليه وسلم .

ثم انطلق أبو لبابة على وجهه ، ولم يأت الرسول حتى ارتبط فى المسجد إلى عمود من عمده ، وقال :

— لا أبرح مكانى هذا حتى يتوب الله على مما صنعت ، وعاهد الله : ألا أطأ بنى قريظة أبداً ، ولا أرى فى بلد خنت الله ورسوله فيه أبداً .

فلما بلغ الرسول خبره ، وكان قد استبطأه قال :

— « أما إنه لو جاءنى لاستغفرت له ، فأما إذ قد فعل مافعل . فما أنا بالذى أطلقه من مكانه حتى يتوب الله عليه » .

وتاب الله على أبى لبابة . .

وطال الحصار على بنى قريظة ، فنزلوا على حكم الرسول ، فتواثبت الأوس ، فقالوا ، يارسول الله ، إنهم موالينا دون الخزرج ، وقد فعلت فى موالى إخواننا بالأمس ماقد علمت .

فقال الرسول :

— ألا ترضون يامعشر الأوس أن يحكم فيهم رجل منكم ؟

قالوا : بلى .

قال :

— فذاك إلى سعد بن معاذ .

وكان الرسول قد جعل سعد بن معاذ فى خيمة لامرأة من أسلم ، يقال لها رفيدة ، فى مسجده ، كانت تداوى الجرحى ، وتحتسب بنفسها على خدمة من كانت به ضيعة من المسلمين ، وكان الرسول قد قال لقومه حين أصابه سهم بالخندق : اجعلوه فى خيمة رفيدة ، حتى أعوده من قريب . فلما حكمه الرسول فى بنى قريظة ، أتاه قومه ، فحملوه على حمار ، ثم أقبلوا معه إلى الرسول ، وهم يقولون : يا أبا عمرو ، أحسن فى مواليك ، فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم إنما ولاك ذلك لتحسن فيهم ، فلما أكثروا عليه قال : « لقد آن لسعد ألا تأخذه فى الله لومة لائم » فرجع بعض من كان معه من قومه إلى دار بنى عبد الأشهل ، فنعى لهم رجال بنى قريظة ، قبل أن يصل لهم سعد ، عن كلمته التى سمع منه . فلما انتهى سعد إلى الرسول والمسلمين قال الرسول : قوموا إلى سيدكم . فقاموا إليه . فقالوا : يا أبا عمرو ، إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد ولاك أمر مواليك لتحكم فيهم .

فقال سعد بن معاذ : عليكم بذلك عهد الله وميثاقه ، أن الحكم فيهم لما حكمت ؟

قالوا : نعم ، وعلى من هاهنا ؟ فى الناحية التى فيها الرسول ، وهو معرض عن الرسول إجلالاً له ، فقال الرسول : نعم .

قال سعد : فإنى أحكم فيهم أن تقتل الرجال ، وتقسم الأموال ، وتسبى الزرارى والنساء .

وقال الرسول : « لقد حكمت فيهم بحكم الله من فوق سبعة أرقعة » .

وخرج الرسول إلى سوق المدينة وأمر بمجىء باليهود ، ثم ضربت أعناقهم ، ودفنوا فى خنادق حفرت لهذا الغرض[1] .

لقد أدانهم سعد بنص التوراة الذى يؤمنون به كما جاء فى التثنية :

[حين تقرب من مدينة لكى تحاربها استدعها إلى الصلح ، فإن أجابتك إلى الصلح وفتحت لك فكل الشعب الموجود فيها يكون لك للتسخير ويستعبد لك . وإن لم تسالمك بل عملت معك حرباً فحاصرها ، وإذا دفعها الرب إلهك إلى يدك فاضرب جميع ذكورها بحد السيف ، وأما النساء والأطفال والبهائم وكل ما فى المدينة فغنيمة تغتنمها لنفسك وتأكل غنيمة أعدائك التى أعطاك الرب إلهك[2]] .

* * *

تحددت بعد هزيمة الأحزاب ، غايات المدينة السياسية ووضحت

---

(١) ابن كثير : البداية والنهاية جـ ٤ ص ١٢٢

(٢) اصحاح ١٠ - ١٥ تثنية .

معالمها ، وظهر للرسول أنه لكى يفتح مكة ، لابد له من التخلص من العدو الغادر . . وهو اليهود .

كما أن اليهود كانوا أشد من الارستقراطية القرشية عداوة له ، وليس من اليسير أن يوادعهم ، ولا أن يطمئن لهم وقد سبقت بينه وبينهم خصومات لم ينتصروا فى إحداها ، فما أجدرهم أن يثأروا لأنفسهم إذا هم وجدوا من ناحية قريش مؤازرة ؛ فتكون أزمة جديدة قد لاتقل عن أزمة الأحزاب خطورة ، ولذلك أخذ الرسول يراقب يهود خيبر بعناية وحذر .

هناك فى هذا الوادى الجميل تعيش أسطورة غريبة . . أن بنى إسرائيل حين خرجوا من مصر وعبر بهم موسى عليه السلام البحر ، وضاعوا فى التيه سنوات طويلة ، لم يجتمع لهم شمل إلا فى خيبر ، فلتكن خيبر بحقولها الواسعة الخصبة قاعدة لليهود إلى آخر الزمان ! !

وتحت تأثير هذه الأسطورة عاش فى خيبر يهود استقروا جيلا بعد جيل ، وأصبحت خيبر مأوى لكل يهودى لايطمئن به مكانه ، وهكذا لجأ إليها فلول يهود بنى قينقاع وبنى قريظة ، وانضموا إلى سكانها الأصليين وأخذوا يعملون على إقامة دولة كبرى تبسط نفوذها وسيطرتها على الجزيرة العربية كلها !

وكانت أحلام السيطرة هى التى تحركهم ، ثم الرغبة الكامنة فى أن ينتقموا من الرسول ، وأنهم الآن يستعدون لقطع الطريق على تجارة المدينة التى بدأت تنمو وتزدهر ، وأنهم يحشدون قواهم ، ليزحفوا على

المدينة ، ولئن كانت قريش قد صالحت الرسول ، فليبحثوا لهم عن حلفاء جدد .

وأمر الرسول أصحابه بالتهيؤ للغزو ، واستنفر من حوله يغزون معه . وجاءه المخلفون عنه فى غزوة الحديبية ليخرجوا معه رجاء الغنيمة ، فقال : لاتخرجوا معى إلا راغبين فى الجهاد ، وأما الغنيمة فلا . وبعث منادياً فنادى : لايخرجن معنا إلا راغب فى الجهاد .

وكان يهود خيبر لا يظنون أن الرسول يغزوهم لمنعتهم وحصونهم وسلاحهم وعددهم كانوا يخرجون كل يوم عشرة آلاف مقاتل صفوفاً ثم يقولون : محمد يغزونا !! هيهات .. هيهات !! فعمى الله عليهم مخرج الرسول حتى نزل بساحتهم ليلا .

ولما أشرف على خيبر قال لأصحابه : قفوا . ثم قال : قولوا : اللهم رب السموات السبع وما أظلت ، ورب الأرضين السبع وما أقلت ، ورب الرياح وما ذرت ، فإنا نسألك خير هذه القرية وخير أهلها وخير مافيها . ونعوذ بك من شرها وشر أهلها وشر مافيها ! ثم قال : ادخلوا على بركة الله .

وكان اليهود يقومون كل ليلة قبل الفجر ، فيلبسون السلاح ويصفون الكتائب . وخرج كنانة بن أبى الحقيق فى أربعة عشر رجلا إلى غطفان ، يدعوهم إلى نصرهم ولهم نصف ثمر خيبر سنة ، فلما نزل الرسول بساحتهم ، لم يتحركوا تلك الليلة ولم يصح لهم ديك حتى طلعت الشمس ، فأصبحوا وأفئدتهم تخفق وفتحوا حصونهم ،

وغدوا إلى أعمالهم [1] ، ومعهم المساحى والكرازين والمكاتل ، فلما نظروا المسلمين قالوا : محمد والخميس [2] !! وولوا هاربين إلى حصونهم والرسول يقول : الله أكبر ! خربت خيبر ! إنا إذا نزلنا بساحة قوم فساء صباح المنذرين .

وقاتل يومه هذا ذلك الليل أهل النطاة [3] ، فلما أمسى تحول بالناس إلى الرجيع ، وكان يغدو بالمسلمين على راياتهم ، وكان شعارهم : يامنصور أمت .

قال الواقدى : وجلس محمد بن مسلمة الأنصارى تحت حصن ناعم يتبع فيئه ، وقد قاتل يومئذ ، وكان يوما صائفاً ، فدلى عليه مرحب اليهودى رحى فهشمت البيضة . وسقطت جلدة جبينه على وجهه ، وندرت عينه ، فأتى به الرسول فرد الجلدة كما كانت ، وعصبها بثوب ، وتحول إلى الرجيع خشية على أصحابه من البيات ، فكان مقامه بالرجيع سبعة ايام .

يغدو كل يوم للقتال ، ويستخلف على العسكر عثمان بن عفان ، ويقاتل أهل النطاة يومه .

---

(١) ابن سعد : الطبقات الكبرى ج ٢ ص ٧٧

(٢) الخميس : الجيش يكون خمس فرق ، المقدمة ، والقلب ، الميمنة والميسرة ، والساقة

(٣) كانت بخيبر عدة حصون هى حصن النطاة ، وحصن القموص ، وحصن ناعم ، وحصن الشق ، وحصن الوطيح ، وحصن الكتيبة وحصن السلالم ، وحصن الصعب بن معاذ ، وحصن قلعة الزبير ، وحصن آبى ، وحصن النزار

وكانت الحراسة نوبا بين المسلمين ، حتى فتح الله حصن النطاة ، فوجد فيه منجنيقاً ، فنصب على حصن النزار ، ففتحه الله .

وكان عيينة بن حصن قد أقبل فى مدد ليهود بغطفان فى أربعة آلاف فأرسل الرسول إليه أن يرجع وله نصف تمر خيبر ، فأبى أن يتخلى عن حلفائه ، فبعث الله على غطفان الرعب ، فخرجوا على الصعب والذلول ، فذل عند ذلك كنانة بن أبى الحقيق ، وأيقن بالهلكة .

وجثم الرسول على الحصون ، وألح على حصن ناعم بالرمى ، ويهود تقاتل ، ودفع الرسول لواءه إلى رجل من المهاجرين فرجع ولم يصنع شيئاً ، فدفعه إلى آخر من المهاجرين فرجع ولم يصنع شيئاً ودفع لواء الأنصار إلى رجل منهم فرجع ولم يصنع شيئاً .

فقال الرسول : لأعطين الراية غداً رجلا يحبه الله ورسوله ، يفتح الله على يديه فلما أصبح الرسول أرسل إلى على بن أبى طالب ودفع إليه الراية ، ودعا له ومن معه بالنصر (١) . ومضى على بالراية فلما دنا من الحصن خرج إليه أهله فقاتلهم قتالا رهيباً ، فضربه رجل من اليهود فطاح ترسه ، فتناول على باباً كان عند الحصن فترس به ، فلم يزل فى يده وهو يقاتل حتى فتح الحصن ، ثم جعل الباب قنطرة اجتاز المسلمون عليها إلى داخل أبنية هذا الحصن .

وبعد حصن ناعم فتح المسلمون حصن القموص بعد قتال مرير ، وبعد أن قلت المؤونة عندهم قلة توجه بسببها جماعة منهم يشكون إلى

---

(١) امتاع الاسماع ج ١ ص ٣١٤

الرسول أمرهم ، ويطلبون ما يسدون به رمقهم ، فلم يجد شيئاً يعطيهم إياه وأذن لهم فى أكل لحوم الخيل(١) .

وبعد أن تم لهم فتح حصن الصعب بن معاذ قلت حاجتهم ، إذ وجدوا فيه طعاماً كثيراً مكن لهم من متابعة قتال اليهود وحصارهم فى سائر حصونهم .

وقد خرج مرحب اليهودى من أحد الحصون وقد جمع للحرب سلاحه وأكمل عدته وهو يرتجل .

قد علمت خيبر أنى مرحب شاكى السلاح بطل مجرب
أطعن أحياناً وحيناً أضرب إذا الليوث أقبلت تجرب(٢)
إن حماى للحمى لايقرب يحجم عن صولتى المجرب

فقال الرسول لأصحابه : من لهذا ؟

فقال محمد بن مسلمة : أنا له يارسول الله ، أنا والله الموتور الثائر! قتل أخى بالأمس .

وقام إليه بإذن الرسول وتصاولا حتى كاد مرحب يقتله — ولكن مسلمة اتقى سيفه بالدرقة (الدرع) فدفع السيف فيها فعضت به فامسكته ، وضربه محمد بن مسلمة حتى قتله .

حاصر المسلمون حصن الزبير وطال حصارهم إياه وقاتلوا حوله قتالا مراً حتى اضطر اليهود إلى رفع راية التسليم . وكذلك جعلت

(١) ابن هشام ج ٣ ص ١٧٢
(٢) تجرب : تغضب

الحصون تقع واحداً بعد الآخر فى أيدى المسلمين ، حتى انتهوا إلى الوطيح والسلالم بمنطقة الكتيبة وكانا آخر حصنين منيعين لهم ، هنالك استولى على نفوسهم اليأس فطلبوا الصلح ، وعفا الرسول عن أهل هذين الحصنين وأمر أن يتركوا أموالهم كلها وسلاحهم وأن يسيروا إلى الشام .

وتنقسم حصون خيبر التى دانت للرسول إلى قسمين : قسم فتح عنوة وأسر من فيه وأزيل أهله عن مكانهم . وقسم عرض الصلح قبل الهزيمة ، فأبقاهم الرسول يزرعون الأرض لحساب المسلمين ، وذلك أن هذه القرى قسمت عليهم من مهاجرين وأنصار وشرط على من يقيم فيها من اليهود الذين عفا عنهم أن يكون لهم نصف الثمار وأن يكون للمسلمين من أصحاب الأنصبة فى الأرض النصف الآخر .

وقد أصاب سقوط خيبر فى أيدى الجيش الإسلامى بقية قرى اليهود فى فدك وأم القرى وتيماء بزلزال عظيم ، فقررت فدك أن تسالم دون قتال ، على أن يكون لها نصف أموالها ونصف غلتها كل عام ، فرضى الرسول .

ولما ذهب الرسول بجيشه إلى أم القرى عرض على يهودها الإسلام فأبوا عليه ذلك وقاتلوا ذلك اليوم إلى الليل ثم تصالحوا وأقامهم الرسول على أراضيهم رذراريهم وأموالهم .

ولما وصل أمر خيبر وفدك وأم القرى إلى يهود تيماء خافوا وقبلوا الجزية(١) .

---

(١) تاريخ الخميس ج ٢ ص ٦٤

يقول الدكتور إسرائيل ولفنسون[1] :

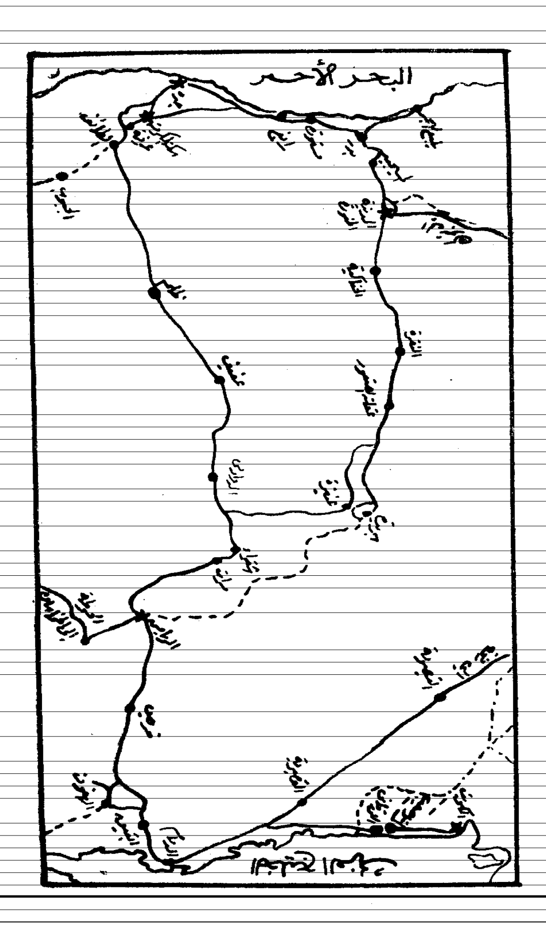
[وهناك أمر يستوقف النظر وهو أنه كان من بين الغنائم التى غنمها المسلمون فى غزوة خيبر صحائف متعددة من التوراة فلما جاء اليهود يطلبونها أمر النبي بتسليمها لهم .

ويدل هذا على ما كان لهذه الصحائف فى نفس الرسول من المكانة العالية مما جعل اليهود يشيرون إلى النبي بالبنان ويحفظون له هذه اليد حيث لم يتعرض بسوء لصحفهم المقدسة ويذكرون بإزاء ذلك مافعله الرومان حين تغلبوا على أورشليم وفتحوها سنة ٧٠ إذ أحرقوا الكتب المقدسة وداسوها بأرجلهم] .

وبالقضاء على اليهود العنصر الخطر ، تنفست المدينة الصعداء فقد كان اليهود على صدرها ككابوس مخيف ، مرهق للأعصاب وللأنفس . . وشعر المسلمون بالراحة الغامرة ، إذ حرروا مدينتهم ، فأصبحت خالصة لهم ، وقاعدة إنطلاق لرسالة الإسلام ليعم كل الآفاق . .

---

(١) تاريخ اليهود فى بلاد العرب ص ١٧٠ .


البحر الأحمر

الفصل السادس

الأنصار وقريش

بايع الأنصار الرسول على الجهاد فى سبيل الله العلى القدير ، فهو فرض عينى وشخصى على كل فرد منهم ، بخلاف المسلمين الآخرين ، وبخلاف الأعراب الذين دخلوا فى الإسلام بعد ذلك(١) . لذا نراهم لا يتخلفون عن غزوة ما ، خاصة عندما يرون أنها ضرورية لحماية الإسلام ، وأنها حتمية للدفاع عن الدين .

وإذا ما تخلف أحد منهم فإنه يعذر نفسه إلى الرسول أولا فإن أجاز له التخلف تخلف ، وإلا فعليه السمع والطاعة لله ولرسوله .

ويبدأ الأنصار جهادهم البطولى مع قريش ، فيقدمون أموالهم وأرواحهم وأولادهم عندما يأمرهم الرسول بالاستعداد لقتال قريش التى حاربت الإسلام ، وطاردت المسلمين فى كل مكان .

غزوة بدر :

علم الرسول أن عيراً لقريش ، خرج على رأسها أبو سفيان فى طريقه

(١) السيرة الحلبية ج ٢ ص ١١٨

إلى الشام ، فخرج الرسول لاعتراضها بيد أنه لم يتمكن من إدراكها . فأعد العدة لملاقاتها أثناء عودتها إذ ترامى إليه أنها عير عظيمة وأن أهل مكة جميعاً اشتركوا فيها حتى قدر ماتحمله بخمسين ألف دينار . ونظراً لما كان يخشاه الرسول من إفلات القافلة عند عودتها ، فقد أرسل طلحة بن عبيد الله وسعيد بن زيد لاستطلاع أمرها فنزلا عند قبيلة جهينة بالحوراء ، وما كادت القافلة تمر بهما حتى أسرعا إلى الرسول ليفضيا إليه بنتيجة الاستطلاع .

وكان خبر خروج المصطفى عليه الصلاة والسلام لاعتراض العير فى رحلتها إلى الشام قد ذاع على الملأ وكذا عزمه على ملاقاتها عند أوبتها ، ووصلت هذه الأنباء إلى أبى سفيان بن حرب وهو يدنو بقافلته فى طريق الحجاز وحذره بعض الأعراب من احتمال المفاجأة عند بدر . ولما كانت القوة التى تتولى حراسة القافلة لا تزيد عن أربعين رجلا فقد خشى أبو سفيان أن تقع قافلته لقمة سائغة فى أيدى المسلمين ، ولذلك عزم على طلب النجدة من عشيرته بمكة فاستأجر ضمضم بن عمرو الغفارى وبعثه إلى مكة على جناح السرعة ليستنفر قريشاً ويخبرهم بالخطر الذى تتعرض له قافلتهم ..

ولقد أبلغ ضمضم هذا الخبر إلى قريش بطريقة مسرحية أثارت ثائرتهم وألهبت مشاعرهم فقد قطع أذنى بعيره وجدع أنفه وحول رحله ووقف عليه ثم دخل إلى مكة ، وقد شق قميصه وأخذ يصيح : « يا معشر قريش . . اللطيمة ! اللطيمة ! أموالكم مع أبى سفيان قد عرض لها محمد فى أصحابه ، لا أرى أن تدركوها الغوث .. الغوث » !

وانتهز أبو جهل هذه الفرصة السانحة لاستنفار قريش لقتال المسلمين فمضى يخطب الناس عند الكعبة ويصيح فى جموعهم كى يخرجوا لإنقاذ قافلتهم . غير أن طائفة من أهل مكة خشوا أن تهاجمهم قبيلة كنانة من خلفهم إذ كان بينها وبين قريش ثأر قديم وكادت هذه الحجة تحملهم على القعود ، لولا أن جاء أحد أشراف كنانة وهو مالك ابن جعشم ، وأعطى لهم المواثيق بأن كنانة سوف لا تهاجمهم ، وعلى أثر ذلك خرج من قريش يوم ٢٨ شعبان كل قادر على القتال وأرسل من تخلف عن الخروج رجلا مكانه فبلغت عدة الجيش نحو ألف رجل برفقتهم نحو مائة فرس وسبعمائة بعير .

فى هذا الوقت كان الرسول متخذاً أهبته حتى لا تفوته القافلة ، وما كادت تصله أنباؤها حتى أقبل على المسلمين يحثهم على الخروج قائلا : « هذه عير قريش فيها أموالهم فأخرجوا إليها لعل الله أن ينفلكموها » . وفى يوم الاثنين ٨ رمضان من السنة الثانية للهجرة خرج الرسول من المدينة على رأس خمسة وثلاثمائة رجل منهم ثلاثة وثمانون من المهاجرين والباقى من الأنصار ، ولم يكن برفقتهم سوى فرسين وسبعين بعيراً جعلوا يتعاقبون على ركوبها .

وقد جد المسلمون فى السير خشية إفلات القافلة ولما نزلوا وادى ذفران جاءهم الخبر بأن قريشاً قد ساقت من مكة جيشاً لحماية قافلة أبى سفيان . فاستشار الرسول أصحابه فى الموقف الذى يتخذونه بعد سماعهم بمسير قريش إليهم فقال المقداد بن عمرو :

« يا رسول الله ، امض لما أراك الله ، فنحن معك ، والله لا نقول

لك كما قالت بنو إسرائيل لموسى : (فاذهب أنت وربك فقاتلا ، إنا ههنا قاعدون) . ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا ، إنا معكما مقاتلون ، فوالذى بعثك بالحق لو سرت بنا إلى برك الغماد لجالدنا معك من دونه حتى تبلغه » .

وأراد الرسول استجلاء موقف الأنصار قبل أن يخوض المعركة ولذا قال : « أشيروا على أيها الناس » فلما أحس الأنصار أنه يقصدهم وقف سعد بن معاذ صاحب رايتهم وقال : «لقد آمنا بك وصدقناك ، وشهدنا أن ما جئت به هو الحق ، وأعطيناك على ذلك عهودنا ومواثيقنا ، على السمع والطاعة . فامض يارسول الله لما أردت ، فنحن معك . فوالذى بعثك بالحق ، لو استعرضت بنا هـذا البحر فخضته ؛ لخضناه معك ، ما تخلف منا رجل واحد ، وما نكره أن تلقى بنا عدونا غداً ، إنا لصبر فى الحرب ، صدق فى اللقاء ، لعل الله يريك منا ما تقر به عينك ، فسر بنا على بركة الله » .

ولم يكد سعد يتم قوله حتى فاض الرسول بشراً وأشرق وجهه وقال :

« سيروا وأبشروا ، فإن الله تعالى قد وعدنى إحدى الطائفتين ، والله لكأنى الآن أنظر إلى مصارع القوم » .

ولقد برهن الرسول فى جميع تصرفاته على عبقرية حربية فقد اتبع ماينبغى أن يسلكه كل قائد ماهر فى الميدان فلم يسمح لقوته بالتقدم من وادى ذفران قبل أن يستطلع موقف العدو لمعرفة المعلومات

اللازمة عن قوته ومواقعه حتى يقرر خطته تبعاً لذلك وليأمن على قوته من خطر المفاجأة .

ولذا أرسل الرسول علي بن أبي طالب ، والزبير بن العوام ، وسعد بن أبي وقاص ، في نفر من أصحابه ، إلى ماء بدر ، يلتمسون الخبر له عليه ، وكانت مفاجأة حين عادت الدورية ومعها غلامان عرف منهما الرسول أنهما من جيش قريش الذي اتخذ موقعه وراء الكثيب الذي بالعدوة القصوى .

وقد أجرى الرسول استجواب الغلامين فسألهم : كم القوم ؟ قالا : كثير ، قال : ما عدتهم ؟ قالا : لاندري ، قال : كم ينحرون كل يوم ؟ قالا : يوماً تسعاً ، ويوما عشراً .

فقال الرسول : القوم فيما بين التسعمائة والألف . ثم قال لهما : فمن فيهم من أشراف قريش ؟ قالا : عتبة بن ربيعة ، وشيبة بن ربيعة ، وأبو البختري بن هشام ، وحكيم بن حزام ، ونوفل بن خويلد ، والحارث بن عامر بن نوفل ، وطعيمة بن عدي بن نوفل ، والنضر ابن الحارث ، وزمعة بن الأسود ، وأبو جهل بن هشام ، وأمية بن خلف ، ونبيه ، ومنبه ابنا الحجاج ، وسهيل بن عمرو ، وعمرو بن عبد ود ، فأقبل الرسول على الناس ، فقال :

— هذه مكة قد ألقت إليكم أفلاذ أكبادها .

في هذا الوقت اقتربت قافلة أبي سفيان من بدر ولشدة حذره ترك القافلة في واد أمين وأقبل بنفسه إلى بدر لاستطلاع أخبار المسلمين خشية أن يفاجئوا قافلته فعلم أن راكبين جاء إلى بدر وأناخا

خلف تل مجاور ، ثم رحلا فأقبل أبو سفيان يبحث فى المكان الذى حل به الرجلان فوجد فى روث بعيرهما نوى عرفه من علائف المدينة فحدس أن الرجلين من المسلمين . وأسرع عائداً إلى أصحابه وعدل عن السير فى الطريق المعتاد واتجه ناحية البحر حيث ساحله وجد فى السير نحو مكة حتى بعد ما بينه وبين المسلمين ونجا .

أما المسلمون فكانوا قد تقدموا من موقعهم بوادى ذفران متجهين إلى بدر ، وكانت أنباء قد وصلت الرسول باقتراب قافلة أبى سفيان ، فلما وصلوا بدراً جاءتهم الأنباء بأن القافلة قد فاتتهم ، وأدركوا أنه لم يبق أمامهم سوى قتال جيش قريش الذى كان لايزال حتى ذلك الوقت مستتراً خلف العدوة القصوى .

وقد أثر إفلات القافلة فى نفوس جماعة من المسلمين ، فأخذ بعضهم يحاول إقناع الرسول بالرجوع إلى المدينة فنزل فى ذلك قوله تعالى :

« وإذ يعدكم الله إحدى الطائفتين أنها لكم وتودون أن غير ذات الشوكة تكون لكم ويريد الله أن يحق الحق بكلماته ويقطع دابر الكافرين » .

أما أبو سفيان فلم يكد يضمن نجاته حتى أرسل إلى جيش قريش بالعدوة القصوى يقول لهم .

[إنكم إنما خرجتم لتمنعوا عيركم ورجالكم وأموالكم ، فقد نجاها الله ، فارجعوا ، فقال أبو جهل بن هشام : والله لانرجع حتى نرد بدراً — وكان بدر موسماً من مواسم العرب ، يجتمع لهم به من سوق كل عام — فنقيم عليه ثلاثاً ، فننحر الجزور ، ونطعم الطعام ،

ونسقى الخمر، وتعزف علينا القيان، وتسمع بنا العرب، وبمسيرنا وجمعنا، فلا يزالون يهابوننا أبداً بعدها(1)].

وتردد القوم قليلا بين اتباع أبي جهل مخافة أن يتهموا بالجبن وبين الرجوع بعد أن نجت قافلتهم وانتهى الأمر بعودة بنى زهرة فقط بينما اتبعت أبا جهل سائر بطون قريش وتحرك تبعاً لذلك جيش قريش نحو بدر.

على أثر وصول المسلمين إلى بدر تقدم الرسول صوب الماء حتى إذا جاء أدنى مكان منه نزله فقال الحباب بن المنذر: يا رسول الله أهذا منزل (مكان المعسكر) أنزلكه الله ليس لنا أن نتقدمه أو نتأخر عنه أم هو الرأى والحرب والمكيدة؟».

فقال رسول الله: بل هو الرأى والحرب والمكيدة.

قال: يارسول الله. فإن هذا ليس بمنزل. فانهض بالناس حتى تأتى أدنى ماء من القوم فننزله. ثم نغور ماوراءه من القلب (أى نفسده بإلقاء التراب والأحجار) ثم نبنى عليه حوضاً فنملؤه ماء ثم نقاتل القوم، فنشرب ولا يشربون.

ولما كان الأمر شورى بين الرسول وبين المسلمين فقد نفذ فكرة الحباب بن المنذر حين اتضح له صواب رأيه.

يقول ابن إسحق . . . إن سعد بن معاذ قال للرسول:

— يانبى الله. ألا نبنى لك عريشاً (2) تكون فيه، ونعد عندك

---

(1) امتاع الأسماع: ج 1 ص 71

(2) هو شبه الخيمة يستظل بها

ركائبك ، ثم تلقى عدونا ، فإن أعزنا الله وأظهرنا على عدونا ، كان ذلك ما أحببنا ، وإن كانت الأخرى ، جلست على ركائبك ، فلحقت بمن وراءنا ، فقد تخلف عنك أقوام – يا نبي الله – ما نحن بأشد لك حباً منهم ، ولو ظنوا أنك تلقى حرباً ما تخلفوا عنك ، يمنعك الله بهم ، يناصحونك ويجاهدون معك .

فأثنى عليه الرسول خيراً ، ودعا له بخير ، ثم بنى للرسول عريش ، فكان فيه .

إن فكرة بناء العريش للرسول لوقايته خلال المعركة ثم لتمهيد السبيل له للاتصال بمن ترك بالمدينة من المسلمين فى حالة وقوع الهزيمة أمر يدل بوضوح على مبلغ إيمان المسلمين وعظيم محبتهم للرسول وتصديقهم لرسالته ولذا أقبلوا لقتال قريش التى كانت قوتها ثلاثة أمثالهم بعزم ثابت وإيمان عميق .

وما كاد زعماء قريش يصلون إلى بدر حتى أرسلوا عمر بن وهب لاستطلاع قوة المسلمين فجال بفرسه حولهم ثم عاد وأخبرهم أنهم يقدرون بنحو ثلاثمائة مقاتل ليس لهم نعة ولا ملجأ إلا سيوفهم فلا يموت منهم رجل قبل أن يقتل رجلا مثله .

وقد سبب هذا القول إنزعاج بعض ذوى الحكمة خشية أن يقتل المسلمون زعماء قريش الذين كانت صفوتهم ضمن صفوف الجيش مما قد يؤدى إلى ضياع مكانة مكة بين القبائل فهب عتبة بن ربيعة من بينهم فقال :

[يا معشر قريش . إنكم والله ما تصنعون بأن تلقوا محمداً وأصحابه

شيئاً . والله لئن أصبتموه لا يزال الرجل ينظر فى وجه رجل قتل ابن عمه أو ابن خاله أو رجلا من عشيرته فارجعوا وخلوا بين محمد وسائر العرب فإن أصابوه فذلك الذى أردتم وإن كان غير ذلك لم تتعرض منه لما تكرهون] .

فلما بلغ أبا جهل ذلك القول استشاط غضباً لأن شدة حقده على الرسول أطاحت بما بقى من صوابه ولذلك صمم على قتاله بأى ثمن وكانت له اليد الطولى فى سوق هذا الجيش ودفعه دفعاً لقتال المسلمين ، ولما خشى من تأثير مقالة عتبة بن ربيعة على قريش بادر باستدعاء عامر ابن الحضرمى الذى سبق أن قتل المسلمون أخاه عمراً فى سرية عبد الله ابن جحش وقال له :

« هذا حليفك يريد أن يرجع بالناس وقد رأيت ثأرك بعينيك فقم فانشد مقتل أخيك » فقام عامر صارخاً (واعمراه ، واعمراه) .

وهنا ثارت فى القرشيين نزعة القتال ، وتحركت فيهم كل دوافع العصبية القبلية ، فجرفت أمامها صوت العقل الذى كان يسمع منذ حين .

ولم يبق بعدئذ مفر من الصدام وزخف جيش قريش نحو صفوف المسلمين واصطف الجيشان متواجهين لا ينتظران سوى الشرارة التى ستشعل نار القتال .

وخطب الرسول يومئذ(١) فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: أما بعد ،

(١) إمتاع الاسماع جـ ١ ص ٨١ .

فإني أحثكم على ما حثكم الله عليه ، وأنهاكم عما نهاكم عنه ، فإن الله عظيم شانه ، يأمر بالحق ويحب الصدق ، ويعطي على الخير أهله ، على منازلهم عنده ، به يذكرون وبه يتفاضلون . وأنكم قد أصبحتم بمنزل الحق لا يقبل الله فيه من أحد إلا ما ابتغى به وجهه وان الصبر في مواطن البأس مما يفرج الله به الهم ، وينجي به من الغم ، وتدركون النجاة في الآخرة . فيكم نبي الله يحذركم ويأمركم ، فاستحيوا اليوم أن يطلع الله عز وجل على شيء من أمركم يمقتكم عليه ، فإن الله يقول : « لمقت الله أكبر من مقتكم انفسكم ».

أنظروا الذي أمركم به من كتابه ، وأراكم من آياته ، وأعزكم به بعد ذلة ، فاستمسكوا به يرضى به ربكم عنكم ، وابلوا ربكم في هذه المواطن امراً تستوجبوا الذي وعدكم به من رحمته ومغفرته ، فإن وعده حق وقوله صدق وعقابه شديد وإنما أنا وأنتم بالله الحي القيوم ، إليه ألجأنا ظهورنا ، وبه اعتصمنا ، وعليه توكلنا ، وإليه المصير ، يغفر الله لي وللمسلمين] .

ولما رأى الرسول قريشاً تصوب من الوادي ـ وكان أول من طلع زمعة بن الأسود على فرس له يتبعه إبنه ، فاستحال بفرسه يريد أن يتبوا للقوم منزلا ـ قال الرسول : « اللهم إنك أنزلت على الكتاب ، وأمرتني بالقتال ، ووعدتني إحدى الطائفتين ، وانت لا تخلف الميعاد . اللهم هذه قريش قد اقبلت بخيلائها وفخرها تحادك(١)

(١) حاده : خالفه وعاصاه ونازعه .

وتكذب رسولك ، اللهم فنصرك الذى وعدتنى ، اللهم أحنهم[1] الغداة » .

ويبدأ القتال كعادة العرب بالمبارزات فقد خرج الأسود بن عبد الأسد المخزومى من بين صفوف قريش قائلا : « أعاهد الله لأشربن من حوضهم أو لأهدمنه أو لأموتن دونه » ، وما كاد يندفع نحو الحوض حتى طاوله حمزة بن عبد المطلب بضربة أطاحت بساقه فوقع على الأرض ولكنه استمر يحبو إلى الحوض واقتحمه ليبر بقسمه فتبعه حمزة وقتله فى الحوض .

وما كاد يسقط الأسود حتى خرج عتبة بن ربيعة بين أخيه شيبة وابنه الوليد ، ونادى :

— هل من مبارز ! !

فأسرع نفر من شباب الأنصار هم عوف ومسعود — ابنا الحارث وأمهما عفراء ، وعبد الله بن رواحة .

فقالوا : من انتم ؟

قالوا : رهط من الأنصار .

قالوا : مالنا بكم حاجة . ثم نادوا : يامحمد ، اخرج إلينا أكفاءنا من قومنا .

فقال الرسول : قم ياعبيدة بن الحارث . وقم ياحمزة ، وقم ياعلى ، فلما قاموا ودنوا منهم .

---

(١) احنهم ، من أحانه الله ، اهلكه

قالوا : من أنتم ؟ فأعلنوا أسماءهم . فقالت قريش : نعم أكفاء كرام .

فبارز عبيدة عتبة فجرح كل منهما صاحبه ، وبارز حمزة شيبة فخر شيبة تحت سيف حمزة صريعاً . وبارز على الوليد فلم يلبث أن صرعه ، ثم أسرع حمزة وعلى إلى عبيدة بن الحارث يدفعان عنه ، فقتلا عتبة وحملا صاحبهما الجريح إلى معسكر المسلمين .

وما أن عاد الأبطال الثلاثة ، حتى خرج الرسول من عريشه ، وخاطب جنده قائلا : « والذى نفس محمد بيده ، لا يقاتلهم اليوم رجل ، فيقتل صابراً محتسباً ، مقبلا غير مدبر ، إلا أدخله الله الجنة » .

وكان بالقرب منهم عمير بن الحمام يأكل تمراً فى يده فالتفت إلى الرسول وقال :

— بخ ! بخ !! فما بينى وبين أن أدخل الجنة إلا أن يقتلنى هؤلاء؟»

ثم قذف الثمرات من يده ، واخذ سيفه ، واندفع نحو قريش ، واخذ يقاتلهم فتجمعوا عليه حتى قتلوه ، وبذا نال الشهادة التى تمنى . وكانت الجنة التى وعده الرسول بها منذ حين هى المأوى .

تزاحفت القوتان بعد ذلك واقتربت صفوف الفريقين وامر الرسول المسلمين بعدم البدء فى الهجوم حتى يأمرهم وقال : « ان اكتنفكم القوم فأنضحوهم (لرموهم) بالنبل » فأخذ رماة المسلمين يقذفون وابلا من نبلهم اوقف قريشاً عن التقدم .

وفى غمار هذا القتال دخل الرسول العريش ومعه أبو بكر وهو يدعو الله ، وازداد الرسول فى استغراقه وابتهاله حتى سقط رداؤه فوضعه عليه أبو بكر ثم قال :

— « يا نبى الله بعض مناشدتك ربك فإن الله منجز لك ما وعدك » .

وأغفى الرسول فى العريش إغفاءة راى خلالها نصر الله وانتبه بعدها وقال :

« أبشر يا أبا بكر أتاك نصر الله . هذا جبريل آخذاً بعنان فرسه يقوده على ثناياه النقع » .

وخرج الرسول إلى المسلمين يحرضهم ، ثم اخذ حفنة من الحصباء واستقبل قريشاً بها وهو يقوله : « شاهت الوجوه .. شاهت الوجوه » .

سرت من روح الرسول القوية وإيمانه الثابت العميق نفحة نبوية غمرت قلوب المسلمين فحولت قلتهم كثرة وضعفهم قوة . وهكذا تسلح المسلمون بأمضى اسلحة الحرب وهى الروح المعنوية ، تلك التى ادت إلى إنتصار الفريق الذى يتسلح بها فى مختلف حروب التاريخ .

ونشب القتال بعنف وشدة وإرتطمت صفوف الفريقين إرتطاماً مروعاً وبذل المسلمون غاية جهدهم لاستئصال شأفة زعماء قريش وساداتها جزاء وفاقاً لما عذبوهم بمكة ..

رأى بلال أمامه أمية بن خلف الذى طالما اشتط فى تعذيبه ، وكان

يخرجه إلى رمضاء مكة ليضجعه على ظهره ويأمر بوضع الصخرة الثقيلة على صدره ليرده عن الإسلام، فيقول بلال « احد . احد » فما كاد يراه في المعركة حتى صاح به : « امية راس الكفر لا نجوت ان نجا » فأحاط به المسلمون وقتلوه .

اما عدو الإسلام ابو جهل بن هشام، فقد اقبل عليه معاذ بن عمرو بن الجموح وضربه ضربة اطاحت بساقه، ثم تركه ولما عاد إليه وجد به رمقاً فوضع رجله على عنقه وقال له : أخزاك الله يا عدو الله ؟

فرد أبو جهل : وبم أخزاني ؟ أخبرني لمن الدائرة ؟

فقال له : لله ولرسوله .

فقال ابو جهل : لقد إرتقيت يا رويعي الغنم مرتقى صعباً .

فضربه معاذ بن عمرو ضربة اوقعت رأسه فحملها إلى الرسول الذي حمد الله على سقوط رأس الكفر والطغيان .

أيد الله المسلمين بروح من عنده، وأنزل الملائكة تثبت أقدامهم، فانبعثت صيحاتهم « أحد . أحد » تدوى فى آذان قريش فتزلزل أفئدتهم، وإنطلق جنود الله وعلى راسهم حمزة بن عبد المطلب وعلى ابن أبي طالب كعاصفة يجرفون أمامهم صفوف قريش المتداعية وجالت سيوف الإسلام تحطم أعلام الشرك، وقد نزلت فى ذلك الآية الكريمة : [إذ يوحى ربك إلى الملائكة أنى معكم فثبتوا الذين آمنوا سألقى فى قلوب الذين كفروا الرعب فاضربوا فوق الأعناق وإضربوا منهم كل بنان] .

وسرعان ما تمزقت صفوف قريش وتركوا ساحة المعركة ناجين بأنفسهم فطاردهم المسلمون وأسروا بعضهم .

وأمر الرسول أن تجمع جثث القتلى ، وأن تطرح فى القليب (البئر) ثم وقف وقال : [يا أهل القليب . بئس عشيرة النبى كنتم لنبيكم : كذبتمونى وصدقنى الناس . وأخرجتمونى وآوانى الناس . وقاتلتمونى ونصرنى الناس .

يا أهل القليب . ياعتبة بن ربيعة . وياشيبة بن ربيعة . ويا أبى بن خلف ، ويا أبا جهل بن هشام (وعدد ممن قتل من قريش) .. هل وجدتم ما وعد ربكم حقاً ! فإنى قد وجدت ما وعدنى ربى حقاً ..]

وسأل عمر بن الخطاب : يا رسول الله . أتكلم قوماً موتى ؟

فأجاب الرسول : ما أنتم بأسمع لما أقول منهم . ولكنهم لايستطيعون أن يجيبونى .

بعث الرسول إلى المدينة عبد الله بن رواحة وزيد بن حارثة بشيرين إلى المدينة يلقيان إلى أهلها بما فتح الله على المسلمين من نصر ، وقام هو وأصحابه قافلين إلى المدينة ومعهم الأسرى وما أصابوا من قريش من غنيمة . وفى الوقت الذى كان المسلمون يحتفلون فيه بنصرهم العزيز الكريم كان الحيسمان بن عبد الله الخزاعى يحث الطريق إلى مكة فكان أول من دخلها وأخبر أهلها بهزيمة قريش ومصابها فى زعمائها فخروا صعقين حتى لقد حم أبو لهب ومات بعد سبعة أيام .

وقد اختلف المسلمون فى النفل[1] الذى غنموه فى غزوة بدر فقد طالب به الذين جمعوه وكذا الذين باشروا القتال كما طالب به الذين أحاطوا بالرسول يحرسونه خشية أن تغتاله قريش . وقد أغفل كل فريق من هؤلاء نصيب الآخرين واستحقاقهم فى النفل ، كما أهملوا أولئك الذين عهد إليهم الرسول بأعمال أخرى ، وأولئك الذين تخلفوا عن القتال لظروف قاهرة كعثمان بن عفان الذى استبقاه الرسول فى المدينة لتمريض رقيـة بنت الرسول وزوجة عثمان التى فاضت روحها والمسلمون فى المعركة .

ولما رفع الأمر إلى الرسول نزل قوله تعالى :

[يسألونك عن الأنفال قل الأنفال لله والرسول فاتقوا الله وأصلحوا ذات بينكم وأطيعوا الله ورسوله إن كنتم مؤمنين[2]]

ثم أقبل الرسول إلى المدينـة وحمل معه النفل وقسم الغنائم بين المسلمين على السواء .

وفى طريق العودة إلى المدينـة أمر الرسول بقتل رجلين من الأسرى كانا أشد الناس عداوة وإيذاء للمسلمين هما : النضر بن الحارث وعقبة بن أبى معيط . ولما دخل الرسول المدينـة استشار أصحابه فيما يفعل بالأسرى .

فقال عمر بن الخطاب : يارسول الله . اضرب أعناقهم .

---

(١) النفل هو الغنيمة التى يكسبها المسلمون فى المعركة من أعدائهم .
(٢) سورة الانفال . ١ .

فأعرض عنه الرسول فكررها ثلاثاً. وقال أبو بكر: يا رسول الله. أرى أن تعفو عنهم وأن تقبل منهم الفداء.

وأخذ كل من الصاحبين يؤيد رأيه ويستميل له الرسول، فقام من مجلسه وخلا إلى نفسه ساعة من الزمان ثم عاد فقال:

[إن الله ليلين قلوب أقوام فيه حتى تكون ألين من اللبن، وإن الله ليشدد قلوب أقوام فيه حتى تكون أشد من الحجارة.. مثلك يا أبا بكر كمثل ميكائيل ينزل بالرحمة. ومثلك من الأنبياء مثل إبراهيم قال: فمن تبعني فإنه مني، ومن عصاني فإنك غفور رحيم.. ومثلك يا أبا بكر مثل عيسى بن مريم.. قال: إن تعذبهم فإنهم عبادك. ومثلك يا عمر في الملائكة مثل جبريل ينزل بالشدة والبأس والنقمة على أعداء الله. ومثلك من الأنبياء مثل نوح إذ قال: لا تذر على الأرض من الكافرين دياراً. ومثلك في الأنبياء مثل موسى إذ قال: ربنا اطمس على أموالهم.. الآية].

ثم أخذ الرسول برأي أبي بكر. وأجاز الفداء.

وأخرج الترمذي عن ابن مسعود أنه لما كان الغد غدوت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فإذا هو وأبو بكر يبكيان. فقلت: يا رسول الله. أخبرني ما يبكيك أنت وصاحبك، فإن وجدت بكاء بكيت وإلا تباكيت لبكائكما.

فقال الرسول:

« أبكي للذي عرض على أصحابك من الفداء. لقد عرض على

عذابكم أدنى من هذه الشجرة » وأشار الرسول إلى شجرة قريبة .
لقد أنزل الله تعالى القرآن فى موضوع الأسرى [ما كان لنبى أن يكون له أسرى حتى يثخن فى الأرض . تريدون عرض الدنيا والله يريد الآخرة والله عزيز حكيم . لولا كتاب من الله سبق لمسكم فيما أخذتم عذاب عظيم] .

واستأنف رسول الله حديثه لابن مسعود قائلا :

[إن كاد ليمسنا فى خلاف ابن الخطاب عذاب عظيم . ولو نزل العذاب ما أفلت منه إلا ابن الخطاب] .

وبلغ قريشاً ما عزم عليه الرسول فى أمر الإسرى فعقدوا النية على ألا يعجلوا فى دفع الفدية حتى لا يتغالى المسلمون فيها . بقى هؤلاء الأسرى فى دور المسلمين ضيوفا مكرمين حتى أتت قريش تفتدى أبناءها بالمال(١) ، ومن لم يستطع إفتداء نفسه وكان يحسن القراءة والكتابة كانت فديته أن يعلم عشرة من فتيان المدينة .

وقد سجل شاعر الأنصار كعب بن مالك السلمى الخزرجى إنتصار بدر بقوله :

عجبت لأمر الله والله قادر ... على ما يرى إذ ليس لله قاهر
فنى يوم بدر إن تلاقى معشراً ... بغوا ، وسبيل البغى بالناس جائر
وقد حشدوا واستنفروا من يليهم ... من الناس حتى جمعهم متكاثر

(١) روى ابن سعد فى الطبقات : أن رسول الله كان يفاديهم على قدر أموالهم .

وسارت إلينا لا تحاول غيرنا بأجمعها كعب جميعاً وعامر
وفينا رسول والأوس حوله له معقل منهم عزيز وناصر
فلما لقيناهم وكل مجاهد لأصحابه مستبسل النفس صابر
شهدنا بأن الله لا رب غيره وأن رسول الله بالحق ظاهر(١)

غزوة أحد :

رجع القرشيون إلى مكة وهم حريصون على الأخذ بثأرهم ، فأثر الهزيمة يحز فى نفوسهم . فأخذوا يستعدون ... ووجدوا فى العير التى قدم بها أبو سفيان بن حرب من الشام مصدراً لتمويل جيش كثيف لمحاربة الرسول والذين معه ، فنزل فيهم قوله تعالى :

[إن الذين كفروا ينفقون أموالهم ليصدوا عن سبيل الله فسينفقونها ثم تكون عليهم حسرة ثم يغلبون ، والذين كفروا إلى جهنم يحشرون(٢)] .

خرجت قريش بنسائها ، وشبابها وصناديدها ، بعددها وعديدها ، خرجوا فى ثلاثة آلاف ، زاحفين إلى المدينة ، منهم سبعمائة من الرجال اللابسين الدروع ، ومائتان من الفرسان . فلما سمع بهم الرسول ، قال للمسلمين(٣) : أيها الناس ، إنى رأيت فى منامى رؤيا ، رأيت كأنى

(١) ابن الأثير ج ٢ ص ٦٥ ، سيرة ابن هشام ج ٢ ص ٦٧ .
(٢) سورة الانفال : ٣٦
(٣) إمتاع الاسماع ج ١ ص ١١٦ .

فى درع حصينة ورأيت كأن سيفى ذا الفقار انقصم [1] من عند ظبته [2] ، ورأيت بقرة تذبح ، ورأيت كأنى مردف كبشاً . فقال الناس : يا رسول الله ، فما أولتها ؟ قال : أما الدرع الحصينة فالمدينة ، فامكثوا فيها ، وأما انقسام سيفى من عند ظبته فمصيبة فى نفسى ، وأما البقر المذبح فقتلى فى أصحابى ، وأما أنى مردف كبشاً فكبش الكتيبة نقتله إن شاء الله . وقال : أشيروا على .

ورأى الرسول ألا يخرج من المدينة فوافقه عبد الله بن أبى سلول وأيد رأيه بقوله : يا رسول الله ، أقم بالمدينة ، لا تخرج إليهم ، فوالله ما خرجنا منها إلى عدو لنا قط إلا أصاب منا ، ولا دخلها علينا إلا أصبنا منه ، فدعهم يا رسول الله فإن أقاموا أقاموا بشر محبس ، وإن دخلوا قاتلهم الرجال فى وجههم ورماهم النساء والصبيان بالحجارة من فوقهم ، وإن رجعوا رجعوا خائبين كما جاءوا .

ووافق على هذا الرأى جماعة من المهاجرين والأنصار ..

وكان هناك رأى آخر يقول بالخروج إليهم ، وقتالهم بظاهر المدينة وهذا قول شبابهم وفتيانهم يقول خيثمة الأنصارى ، مفضلا الخروج ، متحدثاً إلى الرسول :

عسى الله أن يظفرنا بهم أو تكون الأخرى فهى الشهادة ، لقد أخطأتنى وقعة بدر ، وكنت عليها حريصاً ، حتى بلغ من حرصى عليها

(١) انقصم : تكسر وتثلم .
(٢) الظبة : حد السيف من قبل ذبابة طرفه

أن ساهمت ابنى فى الخروج فخرج سهمه . فرزق الشهادة ، وقد رأت ابنى البارحة فى النوم وهو يقول : إلحق بنا ترافقنا فى الجنة . فقد وجدت ماوعدنى ربى حقاً ، وقد — والله يا رسول الله — أصبحت مشتاقاً إلى مرافقته فى الجنة ، وقد كبرت سنى ، ورق عظمى ، وأحببت لقاء ربى !

وقال حمزة بن عبد المطلب ، وسعد بن عبادة ، والنعمان بن مالك ابن ثعلبة ، فى طائفة من الأنصار :

— إنا نخشى يا رسول الله أن يظن عدونا أنا كرهنا الخروج إليهم جبناً عن لقائهم ، فيكون هذا جرأة منهم علينا ؛ وقد كنت يوم بدر فى ثلاثمائة رجل فظفرك الله عليهم ، ونحن اليوم بشر كثير . قد كنا نتمنى هذا اليوم وندعو الله به ، فساقه الله إلينا فى ساحتنا .
والرسول لما يرى من إلحاحهم كاره وقد لبسوا السلاح .
وقال حمزة :

— والذى أنزل عليك الكتاب لا أطعم اليوم طعاماً حتى أجالدهم (١) بسيفى خارجاً من المدينة . وأخيراً .. وأخذ الرسول الكريم بجانب الرأى القائل بالخروج ، فدخل بيته ، ولبس لامته (درعه) ، وتقلد سيفه . وخرج على الناس وهو يقول :

— ما ينبغى لنبى لبس لامته ، أن ينزعها ، حتى يحكم الله

(١) جالد بالسيف ضرب به كأنه يجلد بسوط لسرعة ضربه وتتابعه

بينه وبين أعدائه ، أنظروا ما آمركم به فاتبعوه ، والنصر لكم ماصبرتم !.

خرج الجيش الإسلامى ، فى عدة ألف رجل ، بينهم مائة يلبسون الدروع ، وفارسان فقط ، ولواء الأوس مع أسيد بن خضير ، ولواء الخزرج مع الحباب بن المنذر ، ولواء المهاجرين مع على بن أبى طالب وخرج السعدان أمامه ، سعد بن عبادة الخزرجى وسعد بن معاذ الأوسى(١) .

ولكن بعد أن يخرج الجيش يرجع عبد الله بن أبى سلول ، فيمن معه من الخزرج والأوس المنافقين ، ومن معه من اليهود حلفائه وكانوا حوالى ثلثمائة . وقال :

— أطاعهم وعصانى ، ماندرى علام نقتل أنفسنا ها هنا أيها الناس !!

وأتبعهم عبد الله بن عمرو بن حرام ، يقول : ياقوم ، أذكركم الله ألا تخذلوا قومكم ونبيكم ، عندما حضر من عدوكم . فقالوا : لو نعلم أنكم تقاتلون لما أسلمناكم ، ولكنا لا نرى أنه يكون قتال . فلما استعصوا عليه وأبوا إلا الانصراف عنهم ، قال : أبعدكم الله أعداء الله . فسيغنى الله عز وجل عنكم نبيه .

زحف الجيش الإسلامى حتى وصل إلى جبل أحد ، وقسم الرسول جنده بطريقة تمكنهم من مواجهة عدوه ، وتمنع عنه التطويق فى

---

(١) السمهودى ج ١ ص ٣٠١ .

نفس الوقت ، فاختار من الرماة خمسين رجلا وأمرهم بارتقاء الجبل ومعهم نبالهم وجعل على رأسهم عبد الله بن جبير . وقال الرسول لهذه الفرقة تحريضاً على البقاء فى مواضعها .

[إن رأيتمونا تخطفنا الطير ، فلا تبرحوا من مكانكم حتى أرسل إليكم . وإن رأيتمونا هزمنا القوم وأوطأناهم الجبل فلا تبرحوا حتى أرسل إليكم] .

أما جيش قريش فقد عبأه أبو سفيان بن حرب بأن وضع على ميمنته الفرسان وقيادتهم لخالد بن الوليد وعلى ميسرته عكرمة بن أبى جهل ، وعلى المشاة صفوان بن أمية وعلى الرماة عبد الله بن أبى ربيعة .

بدأ الرسول بإثارة الحمية فى نفوس جنده ، فتناول سيفاً ، و و مستعرض الصفوف ، وقال : من يأخذ هذا السيف بحقه ؟

فتقدم أفراد من أبطال الجيش منهم عمر بن الخطاب والزبير بن العوام وغيرهم كثيرون ، وبسطوا أيديهم جميعا وكل يقول :

— أنا له يا رسول الله .

ولكن الرسول ظل يقلب بصره بين الرجال حتى لمح أبا دجانة سماك بن خرشة ، فصوب إليه نظره ، فتقدم أبو دجانة وقال :

— وما حقه يا رسول الله ؟

فقال الرسول :

— أن تضرب به العدو حتى ينحنى .

وكان أبو دجانة رجلا شجاعا يختال عند الحرب ، وكان إذا أعلم بعصابة له حمراء ، فاعتصب بها ، علم الناس أنه سيقاتل ، فلما أخذ السيف من يد الرسول ، أخرج عصابته تلك ، فعصب بها رأسه ، وجعل يتبختر بين الصفوف وهو يقول :

أنا الذى عاهدنى خليلى ونحن بالسفح لدى النخيل
أن لا أقوم الدهر فى الكيول[1] أضرب بسيف الله والرسول

هذا هو أبو دجانة ، يحطم كل شىء أمامه ، ولا يفيق إلا على صوت هند امرأة أبى سفيان التى كانت تقول :

نحن بنات طارق نمشى على النمارق
مشى القطا البوارق والمسك فى المفارق
والدر فى المخانق إن تقبلوا نعانق
ونفرش النمارق أو تدبروا نفارق
فراق غير وامق

فيهم أبو دجانة بضربها ، لولا أنه تذكر أن الذى بيده هو سيف رسول الله . فصانه عما يشين[2] .

وبدأت المعركة .. بأن حاول أبو عامر الأوسى الذى انحاز إلى جانب قريش أن يدهم ميسرة المسلمين ، ولكنه رد رداً عنيفا ، وهنا صاح حمزة بن عبد المطلب صيحة قوية : أمت .. أمت . واندفع

---

(١) مؤخرة الصفوف .
(٢) السيرة النبوية ج ٢ ص ٣٣

كالقدر الداهم بين جيش قريش فى القلب ، يضرب ذات اليمين وذات اليسار ، ومن حوله أبطال الجيش الإسلامى يصيحون صيحته وينكلون بجند قريش . وكان القتال مراً قاسياً لم تعرف جزيرة العرب قبله قتالا فى شدته ولا فى كثرة عدد رجاله ولا فى استماتة كل فريق فى الدفاع والهجوم .

وشد المسلمون على كتائب قريش فجعلوا يضربون حتى اختلت صفوفهم . وحمل لواءهم بعد طلحة إبنه أبو شيبة عثمان بن طلحة ، فحمل عليه حمزة فقتله ، فحمله أخوه أبو سعد بن أبى طلحة فرماه سعد بن أبى وقاص فقتله . فحمله مسافع بن طلحة بن أبى طلحة فرماه عاصم بن ثابت فقتله ، فحمله الحارث بن طلحة فرماه عاصم فقتله ، فنذرت أمهم سلافة بنت سعد بن الشهد — وكانت مع نساء قريش — أن تشرب الخمر فى قحف رأس عاصم ، وجعلت لمن جاء به مائة من الإبل ، ثم تداول حمل لوائهم عدة رجال ، وكلهم يقتلون(١) .

وأمام هذا العنف فى الهجوم ، وهذه الخسائر الفادحة التى منى بها جيش قريش إنهزم عن مواقعه وتراجع فاستل المسلمون سيوفهم وأزالوا جند قريش عن المعسكر جميعه .. وولول النساء وصحن ناديات وأسرعن مع المنهزمين ولواء قريش ملقى على الأرض لم يتقدم إليه أحد من الرجال فأخذته إحدى النساء فى فرارها .

---

(١) إمتاع الاسماع ج ١ ص ١٢٥ .

وهنا حدث الحادث الخطير فى تاريخ هذه المعركة ، وهو أن الرماة الخمسين الذين ذكرنا أمر الرسول لهم بالبقاء على الجبل حسبوا أن القتال قد إنتهى وأن جند قريش قد فروا إلى غير عودة فزالوا عن أماكنهم طمعاً فى الغنائم . . فقد قال بعض الرماة لبعض : لم تقيمون ها هنا فى غير شىء ؟ قد هزم الله العدو ، وهؤلاء إخوانكم ينتهبون عسكرهم ! فادخلوا عسكر المشركين فاغنموا مع إخوانكم .

فقال لهم رئيسهم عبد الله بن جبير : ألم تعلموا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لكم : إحموا ظهورنا ، ولا تبرحوا مكانكم ، وإن رأيتمونا نقتل فلا تنصرونا ، وإن غنمنا فلا تشركونا ، إحموا ظهورنا .

فقالوا : لم يرد رسول الله هذا .

وإنطلقوا ، فلم يبق مع عبد الله بن جبير إلا دون العشرة . وذهبوا إلى عسكر قريش ينتهبون[1] . وينتهز خالد بن الوليد هذه الفرصة ، وهو على رأس فرسان قريش فيعمد إلى رئيس الرماة عبد الله بن جبير فيقتله ، وهنا يقع التفرق والانخذال فى صفوف الرماة ، وقد جعل هذا ظهر المسلمين ينكشف لقريش ، فأغارت عليهم غارة بخيلها تتبعها مشاتها ، فأعملوا السيف فى المسلمين ، وقد انضاف إلى ذلك أن قتل مصعب بن عمير ، صاحب لواء المسلمين ، وكانت قريش تعتقد أنه الرسول ، فأشاعوا خبر موته ، ففت ذلك فى

(١) المصدر السابق ص ١٢٨

عضد المسلمين ، وتفرقوا أيما تفرق ، إذ كان لذلك أثر معنوى ، أضف إلى ذلك الأثر المادى ، الذى نجم عن قتل رئيس الرماة ، وزعزعتهم عن حماية ظهور المسلمين[1] .

وينادى كعب بن مالك الأنصارى فى المسلمين عندما يرى الرسول منهمكا فى رمى النبل ، ولو أن الجراح قد أصابته ، إن رسول الله حى لم يمت . ولكن الرسول أشار إليه وهمس أن أصمت . وهنا أقبل على بن أبى طالب ومعه طلحة بن عبيد الله وغيرهما من الأنصار والمهاجرين يذبون عن الرسول ، ويحيطون به من كل جانب .

وروت أم عمارة الأنصارية :

خرجت أول النهار وأنا أنظر ما يصنع الناس ومعى سقاء فيه ماء فانتهيت إلى رسول الله وهو فى أصحابه والدولة (النصر) والريح للمسلمين . فلما إنهزم المسلمون إنحزت إلى رسول الله فقمت أباشر القتال وأذب عنه بالسيف وأرمى عن القوس حتى خلصت الجراح إلى وأصابنى ابن قميئة ولما ولى الناس عن رسول الله أقبل يقول :

— دلونى على محمد فلا نجوت إن نجا .

فاعترضت أنا وأناس ممن ثبت مع رسول الله فضربنى هذه الضربة فلقد ضربته على ذلك ضربات ولكن عدوى كانت عليه درعات ! !

(١) السمهودى جـ ١ ص ٢٠٤

أما أبو دجانة الأنصارى ، فقد جعل نفسه ترساً ووقاية للرسول ، إذ حنى ظهره فوقه ، فكان النبل يقع فيه .

أما سعد بن معاذ فقيل : إنه رمى فى هذه الموقعة ألف سهم ، وكان يهيئها الرسول ويقول له :

— ارم ! فداك أبى وأمى .

وقد وجد به عند نهاية الموقعة ثمانون جرحاً ! !

وحينئذ فقط ، أمكن للمسلمين ، أن يثبتوا حول الرسول ، ويركزوا قوتهم ، وقد كان من الأنصار ، أبو دجانة ، والحباب بن المنذر ، وسعد بن عبادة ، ومحمد بن مسلمة ، وعامر بن ثابت ، والحارث بن الصمة وسهل بن حنيف ، وسعد بن معاذ .

وكل منهم يقول لمحمد :

— وجهى دون وجهك ، ونفسى دون نفسك ، وعليك السلام غير مودع !

وكذلك إجتمع حوله جماعة من المهاجرين ، على رأسهم : أبو بكر ، وعمر بن الخطاب ، وعبد الرحمن بن عوف ، وسعد بن أبى وقاص ، وطلحة ، والزبير ، وأبو عبيدة بن الجراح ، وعلى ابن أبى طالب[1] .

هناك عند هذا الشعب الذى التجأ إليه الرسول ، جلس وأسرع

(١) السيرة الحلبية ج ٢ ص ٤٥ .

على بن أبي طالب فملأ درقته ماء ، ليشرب منه رسول الله . ولكن الرسول وجد للماء ريحاً فعافه ، واكتفى بأن صب الماء على رأسه ، وغسل آثار الدماء وهو يقول :

— « اشتد غضب الله على من دمى وجه نبيه » .

وما أن فرغ الرسول من غسل جراحه حتى علت صيحة من وراء الجبل ، فإذا خالد بن الوليد يعاود الهجوم فوثب المسلمون الذين كانوا حول الرسول وعلى رأسهم عمر بن الخطاب ليصدوا هذا التيار الزاحف ، والرسول يقول لهم : « اللهم إنه لا ينبغى لهم أن يعلونا » .

وقد تمكنوا هذه المرة من صد خالد فعاد بفرسانه من حيث أتى .

وأحب الرسول أن يغير مكانه من سفح الجبل ، إلى مكان آخر أعلى منه . وكان الإعياء قد بلغ منه فجلس تحته طلحة بن عبيد الله واتخذه الرسول مرتقى ليصل إلى المكان الذى يريد . وأحاط به المسلمون القلائل الذين صمدوا حوله .

وألقى الرسول نظرة على ميدان القتال ليرى مكان العدو .

وكانت قريش قد انحازت إلى نقطة فى الأفق القريب وبعض أفراد مع بعض نساء يجوسون بين القتلى — ثم أشار عليه السلام للمسلمين بأن يتهيأوا للصلاة . وأمهم قاعداً . وهم من خلفه قعود . وصلى لربه صلاة خفيفة . فهو يذكره دائماً ، ولا ينسى رحمته الواسعة فى هذه الساعة العصيبة . ودعا ربه لكى يكشف الغمة ويرد جيش قريش على

أعقابه ، فكان دعاؤه من الله مستجاباً . ولما أراد أبو سفيان بن حرب الانصراف ، أقبل على فرس حتى أشرف على المسلمين فى عرض الجبل فنادى بأعلى صوته : أعل هبل ! ثم صاح : أين إبن أبى كبشة ؟ أين إبن أبى قحافة ، أين إبن الخطاب ؟ يوم بيوم بدر ، ألا إن الأيام دول ، وأن الحرب سجال ، وحنظلة بحنظلة[1] .

فقال عمر بن الخطاب : أجيبه يا رسول الله ؟

فقال الرسول : بلى ، فأجبه !

فقال أبو سفيان : أعل هبل ! أين ابن أبى كبشة ؟ أين ابن أبى قحافة ؟ أين ابن الخطاب ؟

قال عمر : هذا رسول الله ، وهذا أبو بكر ، وهذا عمر .

فقال أبو سفيان : يوم بيوم بدر ، ألا أن الأيام دول وأن الحرب سجال .

فقال عمر : لا سواء ! قتلانا فى الجنة وقتلاكم فى النار .

فقال أبو سفيان : إنكم لتقولون ذلك ، لقد خبنا إذاً وخسرنا ! لنا العزى ولا عزى لكم ! !

فقال عمر : الله مولانا ولا مولى لكم .

فقال أبو سفيان : إنكم لتقولون ذلك ، لقد خبنا إذاً وخسرنا ! قم إلى يا ابن الخطاب أكلمك .

فقام عمر فقال أبو سفيان : أنشدك بدينك ، هل قتلنا محمداً ؟

أجاب عمر : اللهم لا ، وأنه ليسمع كلامك الآن .

(١) يريد حنظله ولده ، وحنظلة غسيل الملائكة .

قال : أنت عندى أصدق من ابن قميئة . ثم قال : إنكم واجدون فى قتلاكم عنتاً ومثلا ، إلا أن ذلك لم يكن عن رأى سراتنا ، ثم أدركته حمية الجاهلية فقال :

— أما إذا كان ذاك فلم نكرهه ، ثم نادى : إلا أن موعدكم بدرا الصغراء على رأس الحول .

فقال الرسول : قل نعم .

فقال عمر : نعم ..

فانصرف أبو سفيان إلى أصحابه وأخذوا فى الرحيل . فاشفق الرسول والمسلمون من أن يغير جند قريش على المدينة فتهلك الذرارى والنساء ، فبعث سعد بن أبى وقاص لينظر : أن ركبوا الإبل وجنبوا الخيل فهو الظعن ، وإن ركبوا الخيل وجنبوا الإبل فهى الغارة .

ثم قال الرسول :

— والذى نفسى بيده لئن ساروا إليها لأسيرن إليهم ثم لأناجزنهم ..

فذهب سعد يسعى إلى العقيق فإذاهم قد ركبوا الإبل وجنبوا الخيل ، بعد ماتشاورن فى نهب المدينة فأشار عليهم صفوان بن أمية ألا يفعلوا ، فإنهم لا يدرون مايغشاهم ، فعاد فأخبر الرسول[١] .

وفرغ الناس لقتلاهم ، فقال الرسول : من رجل ينظر لى مافعل سعد بن الربيع ؟ أفى الأحياء هو أم فى الأموات ؟

---

(١) امتاع الأسماع جـ ١ ص ١٥٩

فقال رجل من الأنصار : أنا أنظر لك يارسول الله مافعل سعد ، فنظر فوجده جريحاً فى القتلى وبه رمق . قال : قلت له : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم أمرنى أن أنظر ، أفى الأحياء أنت أم فى الأموات ؟

قال : أنا فى الأموات ، فأبلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم عنى السلام ، وقل له : إن سعد بن الربيع يقول لك : جزاك الله عنا خير ماجزى نبياً عن أمته . وأبلغ قومك عنى السلام ، وقل لهم : إن سعد ابن الربيع يقول لكم : إنه لاعذر لكم عند الله ، إن خلص إلى نبيكم صلى الله عليه وسلم ومنكم عين تطرف .

قال : ثم لم أبرح حتى مات ، فجئت رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبرته خبره ، فبشر عنه بالجنة(١) .

وخرج الرسول يلتمس حمزة بن عبد المطلب . فوجده ببطن الوادى قد بقر بطنه عن كبده ، ومثل به فجدع أنفه وأذناه ..

ماذا حدث لك ياحمزة ؟

مانال أحد حمزة ، ولا صرعه وجهاً لوجه وإنما قتل غدراً . فقد كانت قريش تحقد عليه أشد الحقد لما صنع بها فى بدر . وكان أعظمها حقداً هند زوج أبى سفيان . وقد خرجت مع المحاربين ولا هدف لها إلا الانتقام من قاتل أبيها وعمها وأخيها . واختارت أحد العبيد واسمه وحشى ، وكان غلام جبير بن مطعم ، ودفعت له أجراً ، ومنته

(١) ابن الأثير ج ٢ ص ٧٦ .

باجر عظيم إن هو اغتال حمزة . ولم يكن وحشى هذا من المحاربين ، ولذا كمن فى مكان يرقب سير المعركة ، ومعه حربة ، وما أن اقترب منه حمزة فى إحدى جولاته حتى صوب نحوه حربته وقذفه بها فأصابته فى أسفل بطنه ، ونفذت فى بدنه فاتجه سريعاً نحو ضاربه وهم به ، بيد أن قواه خارت فوقع على الأرض صريعاً ، وأقبل وحشى نحوه ، فانتزع منه الحربة ، وتنحى بعيداً ينتظر مكافأة هند ، وأتت هند فرأت حمزة مجندلا فى الأرض ، فصاحت صيحة الفرح المجنون ، وأقبلت بخنجرها تبقر بطنه ، وتخرج كبده ، وتلوكها بأسنانها ، فلا تقوى على مضغها فتقذف بها ، وتنكب على الجثة والحقد الأسود يمور فى قلبها فتمثل بها ، طعناً وتمزيقاً . وتسرع فتنزع قرطها وحليها وتعطيها جميعاً للقاتل ومن حولها من خدم . ويأخذ النساء اللائى منها القدوة منها . فتفرقن فى ميدان القتال يلتمسن قتلى المسلمين يصلمن آذانهم ويتخذن منها قلائد .

هكذا مات حمزة ، وهكذا رآه ابن أخيه الرسول ، فقال وهو يرثيه :

[ياحمزة .. لن أصاب بمثلك أبداً . ماوقفت موقفاً قط أغيظ إلى من هذا .. رحمة الله عليك . لقد كنت فعولا للخير ، وصولا للرحم ، لولا أن تحزن صفية (أخت حمزة) وتكون سنة من بعدى لتركته ، حتى يكون فى بطون السباع ، وحواصل الطير ، ولئن أظهرنى الله على قريش فى موطن من المواطن ، لأمثلن بثلاثين رجلا منهم] .

وهنا نزل الوحى على الرسول بقرآن ، يرد عنه عادية الغضب .

قال تعالى لرسوله وهو فى موقفه ذاك :

[وإن عاقبتم فعاقبوا بمثل ماعوقبتم به ولئن صبرتم لهو خير للصابرين . واصبر وما صبرك إلا بالله ، ولا تحزن عليهم ولا تك فى ضيق مما يمكرون . إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون(١)] .

وعفا الرسول ، ولم يمثل بأحد .

تدل الإحصاءات الخاصة بهذه المعركة ، على أن أحداً من المسلمين لم يؤسر لأن شعارهم كان أمت ، أمت .

أما قتلاهم فقد كانوا حوالى السبعين : أربعة من المهاجرين ، والباقين من الأنصار .

رجع المسلمون ومعهم نبيهم ، وهم به جد فرحين ، لدرجة أن امرأة من الأنصار مات عنها زوجها ، وأبوها وأخوها قالت عند ما أخبرت بموتهم : وأين رسول الله ؟ فلما رأته قالت : كل مصيبة بعدك جلل(٢) يارسول الله .

رجع المسلمون ومعهم نبيهم ، وإن انهزموا ، لأنهم يعرفون سبب هزيمتهم ، وهو : عدم طاعة الرماة لقائدهم الأعلى وهو محمد ولقائدهم المباشر وهو عبد الله بن جبير ، ويعرفون كذلك أن هذه المعركة ليست بالموقعة الفاصلة .

رجعوا بالرسول و و الذى سيقودهم إلى النصر العزيز .. نعم ، هكذا قال لهم ، وهو الصادق الأمين .

(١) سورة النحل : ١٢٦ – ١٢٨ .
(٢) يسيرة .

وسجل شعراء الأنصار موقعة أحد ، يقول كعب بن مالك السلمي الخزرجي :

سائل قريشاً غداة السفح من أحد
ماذا التقينا وما لاقوا من الهرب ؟
كنا الأسود وكانوا الحمر إذ زحفوا
ما إن نراقب من إل ولا نسب
فكم تركنا بها من سيد بطل
حامي الذمار كريم الجد والنسب !
فينا الرسول شهاب ثم تتبعه
نور مضيء له فضل على الشهب
الحق منطقه والعدل سيرته
فمن يجبه إليه ينج من تبب
بدا لنا فاتبعناه نصدقه
وكذبوه فكنا أسعد العرب
جالوا وجلنا فما فاؤا وما رجعوا
ونحن نثخنهم لم نأل في الطلب
ليسا سواء وشتى بين أمرهما :
حزب الإله وأهل الشرك والنصب(١)

---

(١) راجع ابن هشام ٤ – ٨٣ ففيه ماقيل من الشعر يوم أحد.

فتح مكة :

خرج مالك بن عباد — حليف بنى بكر — تاجراً ، وكان ذلك قبل الإسلام . فلما توسط أرض خزاعة عدوا عليه فقتلوه ، وأخذوا ماله ، فعدت بنو بكر على رجل من خزاعة فقتلوه ، ثم عدت خزاعة على بنى الأسود بن رزق — وهم أشراف بنى بكر — فقتلوا منهم بعرفة عند أنصاب الحرم .

وبينما بنو بكر وخزاعة على ذلك حجز بينهم الإسلام وتشاغل الناس به[1] .

ولما كان صلح الحديبية بين الرسول وبين قريش كان فيما شرطوا على الرسول ، وشرط لهم أنه من أحب أن يدخل فى عهد محمد وعقده دخل فيه ، ومن أحب أن يدخل فى عهد قريش وعقدهم دخل فيه ، فدخلت بنو بكر فى عقد قريش ، ودخلت خزاعة فى عقد رسول الله .

فلما كانت تلك المدنة إنتهزتها بنو بكر ، وأرادوا أن يصيبوا من خزاعه بأولئك النفر الذى أصابوا منهم ، فخرج نوفل إبن معاوية — من بنى بكر — حتى بيت[2] خزاعة ، وهم على ماء لهم يقال له الوتير ، فأصابوا منهم رجلا ، وتحاوزوا واقتتلوا ، وأعانت قريش

(١) سيرة ابن هشام ج ٤ ص ٣ ، الطبرى ج ٣ ص ١١٠ .

(٢) أوقع بهم ليلا .

بنى بكر بالسلاح ، وقاتل معهم من قريش من قاتل مستخفيا ، حتى حازوا خزاعة إلى الحرم .

فلما تظاهرت قريش على خزاعة ، وأصابوا منهم ما أصابوا ، ونقضوا ما كان بينهم وبين الرسول من العهد والميثاق بما استحلوا من خزاعة ، خرج عمرو بن سالم الخزاعى ، حتى قدم على الرسول بالمدينة ، فوقف عليه وهو فى المسجد جالس بين ظهرانى الناس فقال :

لا هم إنى ناشد محمداً ... خلف أبينا وأبيه الأتلدا
فوالداً كنا وكنت ولدا ... ثمت أسلمنا فلم ننزع يداً
فانصر هداك الله نصراً اعتدا[(١)] ... وادع عباد الله يأتوا مدداً
فيهم رسول الله قد تجردا ... أبيض مثل البدر يسمو صعداً
إن سيم خسفاً وجهه تربداً[(٢)] ... فى فيلق كالبحر يجرى مزبداً
إن قريشاً أخلفوك الموعدا ... ونقضوا ميثاقك المؤكدا
وجعلوا لى فى كداء[(٣)] رصداً ... وزعموا أن لست أدعو أحداً
وهم أذل وأقل عدداً ... هم بيتونا بالوتير[(٤)] هجداً
فقتلونا ركعاً سجداً

(١) اعتد حاضراً .
(٢) الخسف : الذل ، وسيم الخسف : كلفه ، وتربد : تغير .
(٣) كداء : موقع بمكة .
(٤) الوتير : اسم ماء .

فقال الرسول — حين سمع ذلك : قد نصرت يا عمرو ! وجاء بديل بن ورقاء فى نفر من خزاعة ، حتى قدموا على رسول الله فأخبروه بمن أصيب منهم ، ومعاونة قريش بنى بكر عليهم ، ثم انصرفوا راجعين إلى مكة .

وقال الرسول للناس : كأنى بأبى سفيان قد جاء ليشد العقد ، ويزيد فى المدة !

ومضى بديل وأصحابه ، فلقوا أبا سفيان بعسفان[١] قد بعثته قريش إلى الرسول ليشد العقد ، ويزيد فى المدة ، وقد رهبوا الذى صنعوا .

فقال أبو سفيان : من أين أقبلت يا بديل ؟

قال : سرت فى خزاعة فى هذا الساحل ، وفى بطن هذا الوادى .

قال : أجئت محمداً ؟

قال : لا

فلما راح بديل إلى مكة قال أبو سفيان : إن كان بديل قد ذهب إلى المدينة فقد أكلت راحلته النوى ، ثم عمد إلى مبرك ناقته فأخذ من بعرها ففته ، فرأى فيه النوى ، فقال :

— أحلف لقد جاء بديل محمداً !!

---

(١) عسفان : موضع على مرحلتين من مكة .

وخرج أبو سفيان حتى قدم المدينة ، فقال : يا محمد ! إني كنت غائباً في صلح الحديبية ، فاشدد في العهد وزدنا في المدة .

فقال الرسول : ولذلك قدمت يا أبا سفيان ؟

قال : نعم !

قال الرسول : هل كان قبلكم حدث ؟

قال : معاذ الله !

قال : فنحن على مدتنا وصلحنا يوم الحديبية ، لا نغير ولا نبدل[1] .

ثم قام أبو سفيان ودخل على ابنته أم حبيبة — زوج الرسول — فلما ذهب ليجلس على فراش الرسول طوته دونه ، وقالت : إنك امرؤ نجس مشرك ! فقال : يابنية ! لقد أصابك بعدي شر ! قالت : هداني الله للإسلام ، وأنت يا أبتي سيد قريش وكبيرها ، كيف يسقط عنك دخولك في الإسلام ؟ وأنت تعبد حجراً لا يسمع ولا يبصر ! !

قال : يا عجباه ! وهذا منك أيضاً ! أأترك ما كان يعبد آبائي ، وأتبع دين محمد ؟

ثم خرج فلقي أبا بكر الصديق فكلمه ، وقال تكلم محمداً ، أو تجير أنت بين الناس !

فقال : جواري في جوار رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم لقي

(١) إمتاع الاسماع . ج ١ ص ٣٦٢ .

عمر بن الخطاب فكلمه بمثل ما كلم به أبا بكر فقال عمر : والله لو وجدت الذر(١) تقاتلكم لأعنتها عليكم !

فقال أبو سفيان : جزيت من ذى رحم شراً . ثم دخل على عثمان ابن عفان فقال : أنه ليس فى القوم أحد أقرب بى رحما منك ، فزد فى المدنة وجدد العهد ، فإن صاحبك لن يرده عليك أبداً .

قال : جوارى من جوار رسول الله . ثم خرج فدخل على على بن أبى طالب وعنده فاطمة بنت رسول الله ، وعندها حسن بن على غلام يدب بين يديها فقال : يا على ، إنك أمس القوم بى رحماً ، وإنى قد جئت فى حاجة ، فلا أرجعن كما جئت خائباً ، أشفع إلينا إلى محمد .

قال : ويحك يا أبا سفيان ! والله لقد عزم رسول الله على أمر ، ما نستطيع أن نكلمه فيه .

فالتفت إلى فاطمة فقال : يا بنة محمد ، هل لك أن تأمرى بنيك هذا فيجير بين الناس ، فيكون سيد العرب إلى آخر الدهر !

قالت : والله ما بلغ بنى ذاك أن يجير بين الناس ، وما يجير على رسول الله أحد !

قال : يا أبا الحسن : إنى أرى الأمور قد اشتدت على فانصحنى .

فقال : والله ما أعلم شيئاً يغنى عنك شيئاً . ولكنك سيد بنى كنانة ، فقم فأجر بين الناس ، ثم الحق بأرضك .

---

(١) الذر : النمل الأحمر الصغير .

قال : أو ترى ذلك مغنياً عنى شيئاً !

قال : لا ، والله ما أظن ، ولكن لا أجد لك غير ذلك .

فقام أبو سفيان فى المسجد فقال :

أيها الناس ، إنى قد أجرت بين الناس ، ثم ركب بعيره فانطلق .

فلما قدم على قريش قالوا : ماوراءك !

قال : جئت محمداً فكلمته ، فوالله ما رد على شيئاً . ثم جئت ابن أبى قحافة فلم أجد عنده خيراً ، ثم جئت ابن الخطاب فوجدته أعدى القوم ، ثم جئت على بن أبى طالب فوجدته ألين القوم ، وقد أشار على بشىء صنعته ، فوالله ما أدرى هل يغنينى شيئاً أم لا !

قالوا وبماذا أمرك ؟

قال : أمرنى أن أجير بين الناس ففعلت .

قالوا : فهل أجاز ذلك محمد ؟

قال : لا !

قالوا : ويلك ! والله إن زاد على أن لعب بك ، فما يغنى عنا ما قلت .

قال : والله ما وجدت غير ذلك .

وأمر الرسول بالجهاز ، وأمر أهله أن يجهزوه ، فدخل أبو بكر على ابنته عائشة وهى تحرك بعض جهاز الرسول ، فقال : أى بنية : أأمركم رسول الله صلى الله عليه وسلم أن تجهزوه ؟ قالت : نعم ،

فتجهز ، قال : فأين تريـده يريد ؟ قالت : لا والله ما أدرى ؟ ثم إن رسول الله صلى الله عليه وسلم أعلم الناس أنه سائر إلى مكة وأمرهم بالجد والتهيؤ ، وقال : اللهم خذ العيون والأخبار عن قريش حتى نبغتها فى بلادها . فتجهز الناس . ولما أجمع الرسول السير إلى مكة كتب حاطب بن أبى بلتعه كتاباً إلى قريش ، يخبرهم بالذى أجمع عليه الرسول فى أمرهم . وكان كتابه إلى ثلاثة نفر : صفوان بن أميـة ، وسهيل بن عمرو ، وعكرمة بن أبى جهل ، يقول فيه : [إن رسول الله قد أذن فى الناس بالغزو ، ولا أراه يريد غيركم ، وقد أحببت أن يكون عندكم يد بكتابى إليكم (١)] .

وأعطى الكتاب لامرأة وجعل لها جعلا على أن تبلغه قريشاً ، فجعلته فى رأسها ثم فتلت قرونها ، ثم خرجت به . وأتى الرسول الخبر من السماء بما صنع حاطب ، فبعث على بن أبى طالب والزبير بن العوام ، فقال : أدركا امرأة قد كتب معها حاطب بن أبى بلتعة كتاباً يحذر قريشاً .

فخرجا حتى أدركاها بالخليقة (٢) ، فاستنزلاها ، والتمسا الكتاب فى رحلها فلم يجدا شيئاً . فقال لها على : إنى أحلف ما كذب رسول الله ، ولا كذبنا ، ولتخرجن لنا هذا الكتاب أو لنكشفنك ! فلما

(١) إمتاع الأسماع جـ ١ ص ٣٦٢
(٢) الخليقة : ماء بين مكة واليمامة .

رأت الجد منه قالت : أعرضا عنى . فأعرضا عنها . فحلت قرون[1] رأسها واستخرجت الكتاب منه ، فدفعته إليهما فجاء به إلى الرسول .

ودعا الرسول حاطباً ، فقال : يا حاطب ، ما حملك على هذا ؟

قال : يارسول الله ، أما والله إنى لمؤمن بالله ورسوله ما غيرت ولا بدلت . ولكنى كنت امرءاً ليس لى فى القوم أصل ولا عشيرة ، وكان لى بين أظهرهم أهل وولد ، فصانعتهم عليهم .

فقال عمر بن الخطاب : قاتلك الله ! ترى رسول الله يأخذ بالأنقاب ، وتكتب إلى قريش تحذرهم ! دعنى يا رسول الله أضرب عنقه ، فإنه قد نافق .

فقال الرسول : وما يدريك ياعمر؟ لعل الله أطلع يوم بدر على أهل بدر فقال : اعملوا ما شئتم . فقد غفرت لكم .

وأنزل الله عز وجل فى حاطب [يا أيها الذين آمنوا لاتتخذوا عدوى وعدوكم أولياء تلقون إليهم بالمودة وقد كفروا بما جاءكم من الحق يخرجون الرسول وإياكم أن تؤمنوا بالله ربكم إن كنتم خرجتم جهاداً فى سبيلى وابتغاء مرضاتى ، تسرون إليهم بالمودة وأنا أعلم بما أخفيتم وما أعلنتم ، ومن يفعله منكم فقد ضل سواء السبيل[2]].

---

(١) القرون جمع قرن : وهى غدائر المرأة ، وضفائرها .

(٢) سورة الممتحنة : ١ .

برح الرسول المدينة ومضى لسفره ، حتى نزل مر الظهران[1] ، في عشرة آلاف مقاتل ، وعلى رأس كل قبيل زعيمه ولواؤه ، فهاهى ذى قبائل بنى غفار ، وبنى سليم ، ومزينة ، وجهينة ، وتميم ، وأسد ، وقيس . وعلى رأس الجميع الأنصار والمهاجرون .

وكانت قد عميت الأخبار عن قريش فلم يأتهم خبر عن الرسول ، ولا يدرون ما هو فاعل . وخرج فى تلك الليالى أبو سفيان بن حرب وحكيم بن حزام ، وبديل بن ورقاء ، يتحسسون الأخبار ، وينظرون هل يجدون خبراً ، أو يسمعون به . وكان العباس بن عبد المطلب قد لقى الرسول ببعض الطريق ، وكان أبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب وعبد الله بن أبى أميه بن المغيرة ، قد لقيا الرسول أيضاً بنيق العقاب ، فيما بين مكة والمدينة ، فالتمسا الدخول عليه ، وكلمته أم سلمة فيهما ، فقالت :

— يا رسول الله ، ابن عمك وابن عمتك وصهرك .

قال : لاحاجة لى بهما ، أما ابن عمى فهتك عرضى ، وأما ابن عمتى وصهرى فهو الذى قال لى بمكة ماقال .

فلما خرج الخبر إليهما بذلك ، ومع أبى سفيان بنى له . فقال :

والله ليأذنن لى أو لآخذن بيدى بنى هذا ثم لنذهبن فى الأرض حتى نموت عطشاً وجوعاً . فلما بلغ ذلك الرسول رق لهما ، ثم آذن لهما ، فدخلا عليه فأسلما .

(١) وادقرب مكة .

ولما نزل الرسول مر الظهران ، قال العباس بن عبد المطلب ، فقلت :

— واصباح قريش ! والله لئن دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم مكة عنوة ، قبل أن يأتوه فيستأمنوه ، إنه ، لهلاك قريش إلى آخر الدهر . فجلست على بغلة رسول الله صلى الله عليه وسلم البيضاء ، فخرجت عليها ، حتى جئت الأراك ، فقلت :

— لعلى أجد بعض الحطابة ، أو صاحب لبن ، أو ذا حاجة يأتى مكة . فيخبرهم بمكان رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ ليخرجوا إليه فيستأمنوه قبل أن يدخلها عليهم عنوة .

قال : فوالله إنى لأسير عليها ، وألتمس ماخرجت إليه ، إذ سمعت كلام أبى سفيان ، وبديل بن ورقاء ، وهما يتراجعان ، وأبو سفيان يقول : ما رأيت كالليلة نيراناً قط ولا عسكراً . ويقول بديل : هذه والله خزاعة حمشتها الحرب .

ويقول أبو سفيان : خزاعة أذل وأقل من أن تكون هذه نيرانها وعسكرها ، قال : فعرفت صوته ، فقلت يا أبا حنظلة ، فعرف صوتى فقال : أبو الفضل ؟ قلت : نعم ، قال : مالك ؟ فداك أبى وأمى . قلت : ويحك يا أبا سفيان ، هذا رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الناس ، واصباح قريش والله !

قال : فما الحيلة ؟ فداك أبى وأمى ، قلت والله لئن ظفر بك ليضربن عنقك ، فاركب فى عجز هذه البغلة حتى آتى بك رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فاستأمنه لك .

قال : فركب خلفي ، ورجع صاحباه فجئت به ، كلما مررت بنار من نيران المسلمين قالوا : من هذا ، فإذا رأوا بغلة رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنا عليها ، قالوا : عم رسول الله صلى الله عليه وسلم على بغلته ، حتى مررت بنار عمر بن الخطاب ، فقال : من هذا ؟ وقام إلى . فلما رأى أبا سفيان على عجز الدابة ، قال : أبو سفيان عدو الله ! الحمد لله الذى أمكن منك بغير عقد ولا عهد ، ثم خرج يشتد نحو رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وركضت البغلة ، فسبقته بما تسبق الدابة البطيئة الرجل البطيء . فاقتحمت عن البغلة ، فدخلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ودخل عليه عمر ، فقال : يا رسول الله ، هذا أبو سفيان قد أمكن الله منه بغير عقد ولا عهد ، فدعنى فلأضرب عنقه ، فقلت : يا رسول الله ، إنى قد أجرته ، ثم جلست إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأخذت برأسه . فقلت : والله لا يناجيه الليلة دونى رجل . فلما أكثر عمر فى شأنه قلت : مهلا يا عمر ، فو الله لو كان من بنى عدى بن كعب ما قلت هذا ولكنك قد عرفت أنه من رجال بنى عبد مناف ، قال : مهلا يا عباس . فو الله لإسلامك يوم أسلمت ، كان أحب إلى من إسلام الخطاب لو أسلم ، وما بى إلا أنى قد عرفت أن إسلامك كان أحب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم من إسلام الخطاب لو أسلم .

فقال صلى الله عليه وسلم : إذهب به يا عباس إلى رحلك ، فإذا أصبحت فائتنى به .

فذهبت به إلى رحلى ، فبات عندى ، فلما أصبح غدوت به إلى

رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلما رآه الرسول ، قال : ويحك يا أبا سفيان ! ألم يأن لك أن تعلم أنه لا إله إلا الله ؟

قال : يا أبي أنت وأمي ، ما أحلمك وأكرمك وأوصلك ، والله لقد ظننت أن لو كان مع الله إله غيره ، لقد أغنى عني شيئاً بعد .

قال : ويحك يا أبا سفيان ! ألم يأن لك أن تعلم أني رسول الله ؟

قال : بأبي أنت وأمي ، ما أحلمك وأكرمك وأوصلك ، أما هذه والله فإن في النفس منها حتى الآن شيئاً .

فقال له العباس : ويحك ! أسلم وأشهد أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول ، قبل أن تضرب عنقك .

فشهد شهادة الحق ، وأسلم .

قال العباس : قلت : يا رسول الله ، إن أبا سفيان رجل يحب الفخر ، فاجعل له شيئاً يكون له في قومه .

فقال : نعم ، من دخل دار أبي سفيان فهو آمن ، ومن أغلق بابه فهو آمن ، ومن دخل المسجد فهو آمن .

فلما ذهب لينصرف ، قال الرسول :

— يا عباس ، أحبسه بمضيق الوادي عند خطم الجبل حتى تمر به جنود الله فيراها .

قال : فخرجت حتى حبسته بمضيق الوادي ، ومرت القبائل على راياتها ، كلما مرت قبيلة قال :

يا عباس ، من هذه ؟ فأقول : سليم . فيقول : مالى ولسليم ، ثم تمر القبيلة فيقول : يا عباس ، من هؤلاء ؟ فأقول : مزينة ! فيقول : مالى ولمزينة ! حتى نفدت القبائل ، ما تمر قبيلة إلا يسألنى عنها ، حتى مر رسول الله فى كتيبته الخضراء[1] ، فيها المهاجرون والأنصار لا يرى منهم إلا الحدق[2] من كثرة الحديد ، فقال : سبحان الله يا عباس ! من هؤلاء ؟ قلت : هذا رسول الله فى المهاجرين والأنصار ! قال : ما لأحد بهؤلاء قبل ولا طاقة . والله يا أبا الفضل لقد أصبح ملك ابن أخيك عظيماً ! قلت : يا أبا سفيان ، انها النبوة . قال : نعم إذن ! قلت : إلحق بقومك الآن فحذرهم .

فخرج أبو سفيان سريعاً حتى أتى مكة ، فصرخ فى المسجد :

— يا معشر قريش . هذا محمد قد جاءكم بما لا قبل لكم به ، فمن دخل دار أبى سفيان فهو آمن . فقامت إليه هند بنت عتبة فقالت : أقتلوا هذا الحميت الدسم الأحمس[3] . قبح من طليعة قوم !

قال : ويلكم لا تغرنكم هذه من أنفسكم ، فإنه قد جاءكم ما لا قبل لكم به ، فمن دخل دار أبى سفيان فهو آمن .

قالوا : قاتلك الله ! وما تغنى عنا دارك .

---

(١) إنما قيل لها الخضراء لكثرة الحديد وظهوره فيها .

(٢) جمع حدقة . وهى سواد العين .

(٣) الحميت : زق السمن . والأحمس : الشديد اللحم . تشبيه بالزق لسمنه .

قال : ومن أغلق عليه بابه فهو آمن ، ومن دخل المسجد فهو آمن .

فتفرق الناس إلى دورهم وإلى المسجد .

ولما إنتهى الرسول إلى ذى طوى(١) وقف على راحلته متعجرا بشقة حبرة حمراء(٢) وأنه ليضع رأسه تواضعاً لله حين رأى ما أكرمه الله به من الفتح حتى أن عثنونه(٣) ليكاد يمس واسطة الرحل .

وكان الرسول قد فرق جيشه من ذى طوى ، فأمر الزبير بن العوام أن يدخل فى بعض الناس من كدى(٤) ، وأمر سعد بن عبادة أن يدخل فى بعض الناس من كداء(٥) وأمر خالد بن الوليد فدخل من الليط(٦) أسفل مكة فى بعض الناس ، وأبو عبيدة بن الجراح بالصف من المسلمين ينصبب لمكة بين يدى الرسول ، ودخل الرسول من أذاخر حتى نزل بمكة ، وضربت له هناك قبته .

فكل الجنود دخل فلم يلق جمعاً ، إلا خالد بن الوليد ، فإنه وجد

(١) ذو طوى : موضع قرب مكة .

(٢) متعجراً : معتما . والشقة : النصف . والحبرة : ضرب من ثياب اليمن .

(٣) عثنون . لحية .

(٤) كدى . جبل أسفل مكة على طريق اليمن .

(٥) كداء . جبل بأعلى مكة .

(٦) موضع بأسفل مكة .

جمعا من قريش وأحابيشها . فيهم صفوان بن أمية ، وعكرمة بن أبي جهل ، وسهيل بن عمرو ، فمنعوه الدخول ، وشهروا السلاح ، ورموا بالنبل ، وقالوا : لاتدخلها عنوة أبداً . فصاح خالد فى أصحابه وقاتلهم ، فقتل منهم أربعة وعشرين رجلا من قريش ، وأربعة من هذيل ، وانهزموا أقبح هزيمة .

وعند ما دخل سعد بن عبادة قال :

اليوم يوم الملحمة . .

اليوم تستحل الحرمة . .

اليوم أذل الله قريشاً . .

فسمعها رجل من المهاجرين فقال :

— يا رسول الله ، اسمع ماقال سعد بن عبادة ، ما نأمن أن تكون له فى قريش صولة .

وإذا بشاعر قريش ضرار بن الخطاب يقول للرسول بين يديه .

يانبي الهدى إليك لجا حى قريش ولات حين لجاء

حين ضاقت عليهم سعة الأر ض وعاداهم إلى السماء

إن سعداً يريد قاصمة الظهـــر بأهل الحجون والبطحاء

خزرجى لو يستطيع من الغيـــظ رمانا بالنسر والعواء

فلئن أقحم اللواء ونادى : ياحماه اللواء ! ياأهل اللواء !

ثم ثابت إليه من بهم الخز رج والأوس أنجم الهيجاء

لتكونن بالبطاح قريش مضغة القاع فى أكف الإماء
فانهينه فإنه أسد الأســـد لدى الغاب والغ فى الدماء(١)

ثم يتقدم عبد الرحمن بن عوف ، وعثمان بن عفان ، إلى رسول الله قائلين :

— ألا تأمن يا رسول الله ! ألا تكون لسعد فى قريش صولة !؟

هنا . . أحس الرسول ضعف قريش ، فهاهى ذى قد أتت إليه بزعمائها وشعرائها ، تستسلم بين يديه .

ويقول الرسول لأبى سفيان :

— اليوم يوم المرحمة . . اليوم أعز الله قريشاً . .

راجياً بذلك تأليفهم إلى الإسلام طامعاً فى أن يكونوا للإسلام خير عون ، وللدعوة المحمدية أكبر نصير ، ثم يرسل إلى سعد بن عبادة بأن يدفع اللواء لابنه قيس ، فيذعن سعد لأمر الرسول ، وهو المؤمن الصادق الإيمان ، والسميع المطيع لأمر الرسول ، سيما أن سعداً قد عرف أن ذلك الأمر حقاً صادر من محمد ، إذ أرسل له عمامته إشارة بذلك ، ودليلا على هذا .

ولما نزل الرسول مكة ، واطمأن الناس خرج حتى جاء البيت فطاف به سبعاً على راحلته يستلم الركن بمحجن فى يده(٢) . فلما قضى طوافه دعا عثمان بن طلحة ، فأخذ منه مفتاح الكعبة ، ففتحت له

(١) الروض الانف : ج٢ ص ١٧١
(١) المحجن : عود معوج الطرف يمسكه الراكب للبعير فى يده

فدخلها . ثم وقف على باب الكعبة ، وقد اجتمع له الناس فى المسجد ، فقام الرسول على الكعبة فقال :

[لا إله إلا الله ، وحده لا شريك له ، صدق وعده ، ونصر عبده ، وهزم الأحزاب وحده ، ألا كل مأثرة أو دم أو مال يدعى فهو تحت قدمى هاتين إلا سدانة البيت ، وسقاية الحاج . إلا وقتيل الخطأ شبه العمد بالسوط والعصا ففيه الدية مغلظة ، مائة من الإبل ، أربعون منها فى بطونها أولادها] .

يا معشر قريش ، إن الله قد أذهب عنكم نخوة الجاهلية وتعاظمها بالآباء ، الناس من آدم ، وآدم من تراب ثم تلا [يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم إن الله عليم خبير] .

ثم قال : يا معشر قريش ، ماترون أنى فاعل بكم ؟

قالوا : خيراً ، أخ كريم ، وابن أخ كريم .

قال : اذهبوا فأنتم الطلقاء ! !

وجلس الرسول فى المسجد ، فقام إليه على بن أبى طالب ومفتاح الكعبة فى يده ، فقال :

— يارسول الله ، أجمع لنا الحجابة مع السقاية !

فقال الرسول : أين عثمان بن طلحة ؟

فدعى له فقال : هاك مفتاحك ياعثمان ، اليوم يوم بر ووفاء ، ثم

قال لعلي : إنما أعطيكم ما ترزأون لا .ما ترزأون[1] .

اجتمع الناس بمكة لبيعة رسول الله على الإسلام فجلس لهم على الصفا ، ولما فرغ الرسول من بيعة الرجال بايع النساء ، واجتمع إليه نساء من قريش فيهن هند بنت عتبة متنقبة متنكرة لحدثها وما كان من صنيعها بحمزة ، فلما دنون منه ليبايعنه قال رسول الله : تبايعنني على ألا تشركن بالله شيئاً ؟ فقالت هند : والله إنك لتأخذ علينا أمراً ما تأخذه على الرجال ، وسنؤتيكه ؟ قال : ولا تسرقن . قالت : والله إن كنت لأصيب من مال أبي سفيان الهنة والهنة ، وما أدري أكان ذلك حلالي أم لا ؟

فقال أبو سفيان — وكان شاهداً لما تقول : أما ما أصبت فيما مضى فأنت منه في حل .

فقال الرسول : وإنك لهند بنت عتبة ؟

قالت : أنا هند بنت عتبة ، فاعف عما سلف ، عفا الله عنك .

قال : ولا تزنين .

قالت : وهل تزني الحرة !

قال : ولا تقتلن أولادكن .

قالت : قد ربيناهم صغاراً وقتلتهم يوم بدر كباراً ! فأنت وهم أعلم .

فضحك عمر بن الخطاب من قولها حتى استغرب[2] .

---

(١) رزأه : أصاب منه خيراً

(٢) استغرب في ضحكه : بالغ فيه

قال : ولا تأتين ببهتان تفترينه بين أيديكن و أرجلكن .

قالت : إن إتيان البهتان لقبيح ، ولبعض التجاوز أمثل .

قال : ولا تعصينني في معروف .

قالت : ماجلسنا هذا المجلس ونحن نريد أن نعصيك فيمعروف .

فقال الرسول لعمر : بايعهن ، واستغفر لهن ، فبايعهن عمر ابن الخطاب[1] .

---

(١) امتاع الاسماع : ج ١ ص٣٩٢

الفصل السابع

الأنصار والعرب

الأنصار الذين آمنوا بالرسول ودين الحق ، ودافعوا عن الرسول دفاعاً مجيداً ، ضد أعداء الحياة الجديدة الطاهرة التى يدعو إليها محمد بالحكمة والموعظة الحسنة . .

الأنصار الذين رفعوا السيف دفاعاً عن حقهم فى الحياة الكريمة ، ضد الارستقراطية القرشية التى آذت الرسول واضطهدته . .

الأنصار يمضون فى طريق الكفاح ، بقيادة الرسول ، لإعلاء كلمة الحق . . وها هى ذى قريش قد آمنت بالإسلام ، وها هو ذا المؤذن قد أصبح صوته يجلجل فوق الكعبة ، كعبة الإسلام ، وبيت الله الحرام ولكن قريشاً ليست كل العرب !

فما يفعل الأنصار مع العرب ؟ حتى يدينوهم لكلمة الإسلام ، وقد رأينا فى غزوة الأحزاب أنه كان مع قريش عرب غطفان وغيرها . .

لهذا نرى الرسول ، يرسل سرايا مختلفة إلى العرب المجاورين للمدينة ، ليضعفوا من شوكتهم ، أو ليدفعوهم إلى الإسلام . .

الانصار وعرب هوازن :

بعد فتح مكة مباشرة، يسمع المسلمون بتجمعات لعرب هوازن من ثقيف، ومعها بنو نصر، وبنو جشم، وبنو سعد بن بكر، وبنو هلال ..

فيشير الرسول بالخروج لقتالهم، فيخرج على رأس أصحابه، مهاجرين وأنصاراً، وينضم إليهم آل مكة، الذين أسلموا حديثاً، وكان مجموع الجيش اثنى عشر ألفاً.

ولما استقبل المسلمون[1] وادى حنين إنحدروا فى واد من أودية تهامة، وكان القوم قد سبقوهم إلى هذا الوادى، فكمنوا لهم فى شعابه وأحنائه ومضايقه، وقد أجمعوا وتهيئوا وأعدوا، فما راعهم إلا الكتائب قد شدت عليهم شدة رجل واحد، واستقبلوهم بالنبل كأنهم جراد منتشر.

وإنهزم الناس أجمعون، فانشمروا[2] لا يلوى أحد على أحد، وانحاز الرسول ذات اليمين، ثم قال :

— أين أيها الناس، هلموا إلى، أنا رسول الله، أنا محمد ابن عبد الله !

---

(١) سيرة ابن هشام ٤ : ٦٥ . السيرة الحلبية ٠ ٣ ــ ١٢١ ، سيرة دحلان . ٢ – ٣١٢ .

(٢) انشمر الرجل . إذا مر جادا ومضى .

وانطلق الناس ، إلا أنه قد بقى مع الرسول نفر من المهاجرين ، والأنصار وأهل بيته .

ولما انهزم الناس ، ورأى من كان مع الرسول من جفاة مكة الهزيمة تكلم رجال بما فى أنفسهم ، فقال أبو سفيان : لا تنتهى هزيمتهم دون البحر ! وقال كلدة بن الحنبل : ألا بطل السحر اليوم ! وقال شيبة ابن عثمان[1] ، اليوم أدرك ثأرى ! سأقتل محمداً .

ورأى الرسول الناس لا يلوون على شىء ، فقال :

— يا عباس ، اصرخ : يا معشر الأنصار ! يا أصحاب السمرة[2] !

فنادى العباس . يا معشر الأنصار ، يا معشر أصحاب السمرة !

فأجابوا : لبيك ! لبيك !

وكان الرجل منهم يذهب ليثنى بعيره فلا يقدر عليه ، فيأخذ درعه فيقذفها فى عنقه ، ويأخذ سيفه وترسه ، ثم يترك بعيره ويخلى سبيله فى الناس ، ثم يؤم الصوت حتى ينتهى إلى الرسول ، حتى إذا اجتمع إليه مائة رجل منهم استقبلوا الناس فاقتتلوا ، وأشرف رسول الله فنظر إلى مجتلد[3] القوم ، فقال : الآن حمى الوطيس .

ورأى الناس رجلا من هوازن على جمل أحمر ، بيده راية

---

(١) كان أبوه قتل يوم أحد .

(٢) السمرة ، الشجرة التى كانت تحتها بيعة الرضوان عام الحديبية .

(٣) مجتلد القوم : موضع الجلاد ، وهو الضرب بالسيف فى القتال .

سوداء، فى رأس رمح طويل يتقدم هوازن ، إذا أدرك طعن برمحه، وإذا فاته الناس رفع رمحه لمن وراءه فاتبعوه، فأسرع إليه على بن أبى طالب ورجل من الأنصار يريدانه فأتاه على من خلفه فضرب عرقوبى الجمل فوقع على عجزه، ووثب الأنصارى عليه فضربه ضربة أطاحت به فانقلب عن رحله.

واجتلد الناس، فما رجعت راجعه الناس من هزيمتهم حتى وجدوا الأسارى عند الرسول. والتفت الرسول إلى جانبه فرأى أبا سفيان ابن الحارث، وهو آخذ بثفر[1] بغلته، فقال: من هذا؟ قال: أنا ابن أمك يا رسول الله!

والتفت فرأى أم سليم مع زوجها، وهى حازمة وسطها ببرد لها، ومعها جمل زوجها، وقد خشيت أن يغلبها الجمل، فأدنت رأسه منها، وأدخلت يدها فى خزامته[2] مع الخطام، فقال لها الرسول: أم سليم؟ قالت نعم! بأبى أنت وأمى يا رسول الله!

أقتل هؤلاء الذين ينهزمون عنك، كما تقتل الذين يقاتلونك فإنهم لذلك أهل!

فقال لا يا أم سليم! قد كفى الله. عافية الله أوسع[3].

وقال لها أبو طلحة زوجها: ما هذا الخنجر الذى معك يا أم سليم؟

---

(١) الثفر: السير الذى فى مؤخرة السرج.

(٢) الخزامة: حلقة من شعر تجعل فى وتره أنف البعير يشد فيها الزمام.

(٣) أمتاع الاسماع. جـ ١ ص ٤٠٩.

قالت : خنجر أخذته ، إن دنا منى أحد من المشركين بعجته به (شققت به بطنه) .

وانهزمت هوزان ، فاشتد القتل من ثقيف فى بنى مالك ، فقتل منهم كثير ، وكانت رايتهم مع ذى الخمار ، فلما قتل أخذها عثمان بن عبد الله فقاتل بها حتى قتل ، ولما بلغ الرسول قتله قال : أبعده الله فإنه كان يبغض قريشاً !

ولما انهزم المشركون أتوا الطائف ومعهم مالك بن عوف ، وعسكر بعضهم بأوطاس ، وتوجه بعضهم نحو نخلة ، وتبعت خيل الرسول من سلك فى نخلة ، فأدرك ربيعة بن رفيع دريد بن الصمة فأخذ جمله ، وهو يظن أنه امرأة ، وذلك أنه فى شجار له فإذا برجل . فأناخ به ، فإذا شيخ كبير ، وإذا هو دريد بن الصمة ، ولا يعرفه الغلام . فقال له دريد : ماذا تريد بى ؟ قال : أقتلك ! قال : ومن أنت ؟ قال : أنا ربيعة بن رفيع . ثم ضربه بسيفه فلم يغن فيه شيئاً .

فقال : بئس ما سلحتك أمك ! خذ سيفى هذا من مؤخر الرحل — وكان فى الشجار — ثم اضرب به ، وارفع عن العظام ، واخفض عن الدماغ ، فإنى كذلك كنت أضرب الرجال : ثم إذا أتيت أمك فأخبرها أنك قتلت دريد بن الصمة ، فرب يوم قد منعت فيه نساءك ! فضربه فوقع ، فتكشف . فإذا عجانه[1] وبطون فخذيه مثل القرطاس من ركوب الخيل أعراء ، ثم مات .

(١) العجان : الاست

وبعث الرسول فى آثار من توجه قبل أوطاس أبا عامر الأشعرى فأدرك من الناس بعض من انهزم . فتناوش القوم فى القتال ، فرمى سلمة بن دريد أبا عامر الأشعرى بسهم فأصاب ركبته فقتله ، فقال :

إن تسألوا عنى فإنى سلمة ابن سمادير[1] لمن توسمه
أضرب بالسيف رءوس المسلمة

وولى الناس أبا موسى الأشعرى ، فقاتلهم حتى فتح الله على يديه وهزمهم .

وخرج مالك بن عوف عند الهزيمة فوقف فى فوارس من قومه على ثنية من الطريق ، وقال لأصحابه : قفوا حتى تمضى ضعفاؤكم ويلحق أخراكم ، فوقف هناك حتى مضى من كان لحق بهم من منهزمة الناس . فقال لأصحابه : ماذا ترون ؟

قالوا : نرى قوماً واضعى رماحهم بين آذان خيلهم . طويلة بوادهم[2] .

فقال هؤلاء بنو سليم ، ولا بأس عليكم منهم . فلما أقبلوا سلكوا بطن الوادى . ثم طلعت خيل أخرى تتبعها ، فقال لأصحابه : ماذا ترون ؟ قالوا : نرى قوماً عارضى رماحهم أغفالا على خيلهم . فقال : هؤلاء الأوس والخزرج ، ولا بأس عليكم منهم . فلما انتهوا إلى أصل الثنية سلكوا طريق بنى سليم . ثم طلع فارس فقال لأصحابه : ماذا ترون ؟

---

(١) سمادير : أمة
(٢) جمع باد ، وهو أصل الفخذ

قالوا : نرى فارساً طويل الباد ، واضعاً رمحه على عاتقه ، عاصباً رأسه بملاءة حمراء .

فقال : هـذا الزبير بن العوام ، واحلف باللات ليخالطنكم ، فاثبتوا له ، فلما انتهى الزبير إلى أصل الثنية أبصر القوم فصمد لهم ، فلم يزل يطاعنهم حتى أزاحهم عنها ثم جمعت إلى الرسول سبايا حنين وأموالها ، وأمر رسول الله بالسبايا والأموال إلى الجعرانة(١) فحبست بها .

كان نصر المسلمين مؤزرا بفضل ثبات الرسول والفئة القليلة التى أحاطت به . وفى ذلك نزل قوله تعالى :

[لقد نصركم الله فى مواطن كثيرة ويوم حنين إذ أعجبتكم كثرتكم فلم تغن عنكم شيئاً وضاقت عليكم الأرض بما رحبت ثم وليتم مدبرين ، ثم أنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين وأنزل جنوداً لم تروها وعذب الذين كفروا وذلك جزاء الكافرين . ثم يتوب الله من بعد ذلك على من يشاء والله غفور رحيم . يا أيها الذين آمنوا إنما المشركون نجس فلا يقربوا المسجد الحرام بعد عامهم هذا وإن خفتم عيلة فسوف يغنيكم الله من فضله إن شاء إن الله عليم حكيم(٢)] .

قدم أهل ثقيف الطائف ، واغلقوا عليهم أبواب مدينتها ، وصنعوا الصنائع للقتال ، فسار الرسول حتى نزل قريباً من الطائف ، فضرب به

(١) الجعرانة : موضع قريب من مكة
(٢) سورة التوبه : ٢٥ ــ ٢٨

عسكره ، وقتل ناس من أصحابه بالنبل ، ولم يقدر المسلمون أن يدخلوا حائطهم الذى أغلقوه دونهم .

فلما أصيب أولئك النفر بالنبل ، وضع الرسول عسكره عند مسجده الذى بالطائف ، وحاصرهم بضعاً وعشرين ليلة ، ثم رماهم بالمنجنيق ، ودخل نفر من أصحاب الرسول تحت دبابة[1] ، ثم زحفوا بها إلى جدار الطائف ليخرقوه ، فأرسلت عليهم ثقيف سكك الحديد محماة بالنار ، فخرجوا من تحتها ، فرمتهم ثقيف بالنبل ، فقتلوا رجالا منهم ، فأمر الرسول بقطع أعناب ثقيف ، فوقع الناس فيها يقطعون . فنادى سفيان بن عبد الله الثقفى : يا محمد ! لم تقطع أموالنا ! إما أن تأخذها إن ظهرت علينا ، وإما أن تدعها لله وللرحم كما زعمت !

فقال الرسول : فإنى أدعها لله وللرحم ! وكف عنها[2] .

ثم إن خويلة ابنة حكيم قالت : يارسول الله ، أعطنى — إن فتح الله عليك الطائف — حلى بادية ابنة غيلان ، أو حلى الفارعة بنت عقيل ، وكانتا من أحلى نساء ثقيف .

فقال لها الرسول : وإن كان لم يؤذن لى فى ثقيف ياخويلة !

فخرجت خويلة فذكرت ذلك لعمر بن الخطاب ، فدخل على الرسول ، فقال : ما حديث حدثتنيه خويلة زعمت أنك قلته ! فقال :

---

(١) الدبابة : آلة تتخذ للحروب فتدفع فى أصل الحصن فينقبونه وهم فى جوفها

(٢) إمتاع الاسماع : جـ ١ ص ٤١٨

قد قلته . قال : أو ما أذن لك فيهم يارسول الله ! قال : لا . قال : أفلا أؤذن بالرحيل ؟ قال : بلى : فأذن عمر بالرحيل .

وانصرف الناس عن الطائف بعد القتال والحصار ، وسار الرسول بمن معه من المسلمين حتى نزل الجعرانة ، وكان سبي هوازن قد قدم إليها .

وأتى الرسول وفد هوازن ، وقد أسلموا ، فقالوا : يا رسول الله ، إنا أصل وعشيرة ، وقد أصابنا من البلاء مالا يخفى عليك فامنن علينا من الله عليك !

وقام رجل من هوازن — أحد بنى سعد ، فقال : يارسول الله ، إنما فى الحظائر عماتك وخالاتك وحواضنك اللائى كن يكفلنك ، ولو إننا ملحنا[1] للحارث بن أبى شمر ، أو للنعمان بن المنذر ، ثم نزل منا بمثل ما نزلت به رجونا عطفه وعائدته (أى فضله) وأنت خير المكفولين

فقال الرسول : أبناؤكم ونساؤكم أحب إليكم أم أموالكم ؟

فقالوا : يارسول الله ، خيرتنا بين أحسابنا وأموالنا ، بل ترد علينا نساءنا وأبناءنا ، فهم أحب إلينا .

فقال : أما ما كان لى ولبنى عبد المطلب فهو لكم ، فإذا أنا صليت الظهر بالناس فقولوا : إنا نستشفع برسول الله إلى المسلمين ، وبالمسلمين

---

(١) أى أرضعنا لها

إلى رسول الله ، فى أبنائنا ونسائنا ، فسأعطيكم عند ذلك وأسأل لكم .

فلما صلى الرسول بالناس الظهر قاموا فتكلموا بالذى أمرهم به ، فقال الرسول : أما ما كان لى ولبنى عبد المطلب فهو لكم . فقال المهاجرون : وما كان لنا فهو لرسول الله ، وقالت الأنصار : وما كان لنا فهو لرسول الله .

وقال الأقرع بن حابس : أما أنا وبنو تميم فلا !

وقال عيينة بن حصن : أما أنا وبنو فزارة فلا !

وقال عباس بن مرداس : أما أنا وبنو سليم فلا !

فقالت بنو سليم : ما كان لنا فهو لرسول لله .

فقال العباس لقومه : وهنتمونى !

فقال الرسول : أما من تمسك منهم بحقه من هذا السبى ، فله بكل إنسان ست فرائض[1] من أول شىء نصيبه ، فردوا إلى الناس أبناءهم ونساءهم .

ثم قال الرسول لوفد هوازن :

— ما فعل مالك بن عوف ؟

قالوا :

— هو بالطائف مع ثقيف .

قال :

---

(١) جمع فريضة ، وهى البعير المأخوذ فى الزكاة

— أخبروا مالكا أنه إن أتى مسلماً رددت عليه أهله وماله ، وأعطيته مائة من الإبل . ولما عرف مالك ذلك خرج من الطائف مستخفياً ، فأمر براحلته فهيئت له ، وأمر بفرس فاعد له ، وخرج ليلا على فرسه يركضه حتى أتى راحلته — حيث أمر بها أن تحبس له — فركبها ، ولحق برسول الله ، فأدركه بالجعرانة ، فرد عليه أهله وماله ، وأعطاه مائة من الإبل ، وأسلم فحسن إسلامه ، واستعمله رسول الله على قومه ، ومن أسلم من تلك القبائل حول الطائف .

ولما فرغ الرسول من رد سبايا حنين إلى أهلها ، ركب ، وأتبعه الناس يقولون : يا رسول الله ، أقسم علينا فيئنا من الإبل والغنم ، حتى ألجأوه إلى شجرة ، فاختطفت عنه رداءه ، فقال :

— « ردوا على ردائى ، أيها الناس ، فوالله لو كان لكم بعدد شجر تهامة نعما لقسمته عليكم ، ثم ما ألفيتمونى بخيلا ولا جبانا ولا كذابا » .

ثم قام إلى جنب بعير ، فأخذ وبرة من سنامه ، فجعلها بين أصبعيه ثم رفعها ، ثم قال :

— « أيها الناس ، والله مالى من فيئكم ولا هذه الوبرة إلا الخمس ، والخمس مردود عليكم » . وأعطى الرسول المؤلفة قلوبهم ، وكانوا أشرافاً من أشراف الناس ، يتألفهم ويتألف بهم قومهم .

وكان مما غنم أربعة آلاف أوقية فضة ، فجاء أبو سفيان بن حرب والفضة بين يديه . فقال : يا رسول الله ! أصبحت أكثر قريش مالا ! فتبسم عليه السلام ؛ فقال أبو سفيان : أعطنى من

هذا يا رسول الله ! قال : يا بلال ، زن لأبى سفيان أربعين أوقية ، وأعطوه مائة من الإبل . قال : إبنى يزيد : قال : زنوا ليزيد أربعين أوقية ، وأعطوه مائة من الإبل . قال : إبنى معاوية يا رسول الله . قال : زن له يا بلال أربعين أوقية وأعطه مائة من الإبل . قال أبو سفيان : إنك لكريم فداك أبى وأمى ! والله لقد حاربتك فنعم المحارب كنت ! ثم سالمتك فنعم المسالم أنت ! جزاك الله خيرا .

وسأل حكيم بن حزام يومئذ مائة من الإبل فأعطاه ، ثم سأل مائة فأعطاه ، ثم سأل مائة فأعطاه ، ثم قال : يا حكيم بن حزام : إن هذا المال خضرة حلوة فمن أخذه بسخاوة نفس بورك له فيه ، ومن أخذه باشراف نفس لم يبارك له فيه ، وكان كالذى يأكل ولا يشبع ، واليد العليا خير من السفلى . وأبدأ بمن تعول . فأخذ حكيم المائة الأولى ثم ترك ما عداها(١) .

ولما أعطى الرسول ما أعطى من تلك العطايا ، فى قريش وفى قبائل العرب ، ولم يكن فى الأنصار منها شىء ، وجد هذا الحى من الأنصار فى أنفسهم ، حتى كثرت منهم القالة ، حتى قال قائلهم :

— لقد لقى والله رسول الله صلى الله عليه وسلم قومه .

فدخل عليه سعد بن عبادة ، فقال : يا رسول الله ، إن هذا الحى من الأنصار قد وجدوا عليك فى أنفسهم لما صنعت فى هذا الفىء

---

(١) إمتاع الاسماع . ج ١ ص ٤٢٣ .

الذى أصبت : قسمت فى قومك ، وأعطيت عطايا عظاما فى قبائل العرب ، ولم يك فى هذا الحى من الأنصار منها شىء . قال : فأين أنت من ذلك يا سعد ؟ قال : يا رسول الله ، ما أنا إلا من قومى .

وأمر الرسول بأن يجمع له الأنصار ، فجمعهم وخطبهم تلك الخطبة التاريخية التى يتجلى فيها حسن سياسته وقدرته على جذب النفوس وتأليف القلوب إليه ، ومهارته الفائقة فى إعداد سامعيه وتهيئتهم لقبول ما يريد أن يلقيه عليهم والتأثر به إلى أبعد حد ، فقد بين للأنصار فى عبارة سلسلة أخاذة نعمة الإسلام عليهم ، إذ هداهم بعد الضلالة وألف بين قلوبهم بعد العداوة ، ثم ذكر لهم بالثناء تصديقهم رسالته وإيواءهم إياه ومواساتهم له ، ثم عتب عليهم فى كياسة تطلعهم إلى هذا الفىء الذى أفاءه الله عليهم ، ففرقه فى نفر حديثى عهد بالإسلام تطييباً لنفوسهم عما أصابهم من القتل والهزيمة ، معتمداً على حسن إسلام الأنصار وصدق رغبتهم فى نشر الدين ، وإعلاء كلمة الله ، ثم أكد محبته إياهم وإيثارهم على غيرهم من العرب ، وأخيراً أعلن إليهم أنه منهم . ودعا لهم ولأبنائهم وأبناء أبنائهم .

روى الطبرى(١) أنه لما اجتمع الأنصار لرسول الله ، حمد الله وأثنى عليه بالذى هو أهله ثم قال :

[يا معشر الأنصار ! ما قالة بلغتنى عنكم وموجدة وجدتموها

---

(١) ج ٣ ص ١٣٨ – ١٣٩ .

فى أنفسكم ؟ ألم آتكم ضلالا فهداكم الله ؟ وعالة فأغناكم الله ؟ وأعداء فألف الله بين قلوبكم ؟

قالوا : بلى ! لله ولرسوله المن والفضل ، فقال : ألا تجيبونى يا معشر الأنصار ؟

قالوا : وبماذا نجيب يا رسول الله ؟ لله ولرسوله المن والفضل . قال : أما والله لو شئتم لقلتم فصدقتم ولصدقتم : أتيتنا مكذبا فصدقناك ، ومخذولا فنصرناك ، وطريداً فآويناك ، وعائلا فآسيناك ، أوجدتم يا معشر الأنصار فى أنفسكم فى لعاعة(1) من الدنيا تألفت بها قوماً ليسلموا ، ووكلتكم إلى إسلامكم ، أفلا ترضون يا معشر الأنصار أن يذهب الناس بالشاه والبعير وترجعوا برسول الله إلى رحالكم ؟ فو الذى نفس محمد بيده ، لولا الهجرة لكنت أمرأ من الأنصار . ولو سلك الناس شعباً ، وسلك الأنصار شعباً لسلكت شعب الأنصار ، اللهم إرحم الأنصار وأبناء الأنصار وأبناء أبناء الأنصار .

فبكى القوم حتى أخضلوا لحاهم وقالوا : رضينا برسول الله قسماً وحظاً . ثم إنصرف رسول الله صلى الله عليه وسلم وتفرقوا ! .

ثم عزم الرسول على العودة إلى المدينة فأقام على مكة عتاب ابن أسيد(2) ثم صار إلى المدينة ، فوصل إليها فى شهر ذى القعدة سنة ٨ للهجرة .

---

(1) بقية يسيرة .

(2) فى رواية أخرى للطبرى (جـ ٣ ص ١٣٢) أنه استخلف أبا بكر على أهل مكة وأمره ان يقيم للناس الحج .

ظنت ثقيف ، وقد رأت جيش المسلمين يتراجع عن الطائف دون أن ينال منهم شيئاً أو أن يكرههم على التسليم ، أنها قد إمتنعت بحصونها على الرسول وأصحابه وانتصرت عليهم ، وهم الذين دانت لهم جزيرة العرب ، فاعتزت ثقيف بهذا النصر وفرحت به ، ثم شمخت بأنفها على من جاورها من القبائل ، وعز عليها أن يقوم عروة ابن مسعود فوق علية (غرفة فى أعلى البيت) له ينادى للصلاة ويدعو إلى دين ذلك الرسول الذى يغض من شأن طاغيتهم وصنمهم « اللات » فرشقوه بالنبال حتى قتلوه . عندئذ لجأ إبنه أبو مليح ومعه قارب ابن الأسود إلى الرسول — وقد أسلما — يريدان فراق ثقيف وألا يجامعاهم على شيء أبداً(١) .

لقد أصبحت ثقيف أشد على المسلمين من قريش فى عهد نضالها مع الرسول . وقد آوى الرسول هذين اللاجئين ، كما آوى العبيد الذين إنضموا إليه عند حصار الطائف وأعتقهم . ولم تدر ثقيف أن الرسول إنما عدل عن حصارها وتركها لحصار أطول وأشد . فقد صارت فى عزلة بوثنيتها فى الطائف عن سائر العرب حولها ، الذين أسلموا وأصبحوا يناصبونها العداء ، ويعتبرون أنفسهم فى حالة حرب معها لمناوأتها الإسلام وتعذيبها من أسلم من أهلها ، كما فعلت مع عروة ومع هؤلاء العبيد .

وقد أحست ثقيف بشدة وطأة هذا النوع من الحصار وثقله

---

(١) ابن هشام . ج ٤ ص ١٩٤ — ١٩٥ .

عليها. روى ابن هشام[1] أن عمرو بن أمية أتى «عبد ياليل» — وكان بينهما شيء من الجفاء — فقال له:

«إنه قد نزل بنا أمر ليست معه هجرة، إنه قد كان من أمر هذا الرجل (يعنى الرسول) ما قد رأيت، وقد أسلمت العرب كلها، وليست لكم بحربهم طاقة، فانظروا فى أمركم».

فعند ذلك ائتمرت ثقيف بينها وقال بعضهم لبعض: أفلا ترون أنه لايأمن لكم سرب[2] ولا يخرج منكم أحد إلا اقتطع؟ فائتمروا بينهم واجمعوا على أن يرسلوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم رجلا، كما أرسلوا عروة، فكلموا عبدياليل بن عمرو بن عمير، وكان فى سن عروة بن مسعود، وعرضوا ذلك عليه، فأبى أن يفعل، وخشى أن يصنع به إذا رجع كما صنع بعروة فقال: لست فاعلا حتى ترسلوا معى رجالا، فأجمعوا أن يبعثوا معه رجلين من الأحلاف وثلاثة من بنى مالك فيكونوا ستة.. فخرج بهم. لكى يشغل كل رجل منهم إذا رجعوا إلى الطائف رهطه.

وحملهم على الالتزام بما التزم به الوفد فأجابوه إلى ذلك.

قدم وفد ثقيف على الرسول فى الشهر الذى عاد فيه من غزوة تبوك (رمضان سنة ٩ هـ) وعرضوا عليه إسلامهم، وشرطوا عليه أن يعفيهم من الصلاة. وأن يترك لهم طاغيتهم «اللات» لايهدمها

---

(١) ج ٤ ص ١٩٥ — ١٩٦

(٢) السرب: النفس

ثلاث سنين فأبى إلا أن يدخلوا فى الإسلام من غير قيد ولا شرط ، حتى لقد سألوه أن يتركها سنتين بدلا من ثلاث ثم سنة ثم شهراً فأبى ، غير أنه أعفاهم من أن يهدموها بأيديهم ، وأرسل معهم أبا سفيان بن حرب والمغيرة بن شعبة .

وقد أمر الرسول عليهم عثمان بن أبى العاص ، وكان أحدثهم سناً ، ولكنه كان أحرصهم على التفقه فى الإسلام وتعلم القرآن ، وكتب لهم الرسول كتاباً[1] :

[من محمد النبى رسول الله ، إلى المؤمنين : أن عضاه[2] وج وصيده لا يعضد ، ومن وجد أن يفعل شيئاً من ذلك يجلد وتنزع ثيابه ، فإن تعدى ذلك ، فإنه يؤخذ فيبلغ به النبى محمداً ، وأن هذا أمر النبى محمد رسول الله ، وكتب خالد بن سعيد بأمر النبى محمد بن عبد الله ، فلا يتعداه أحد فيظلم نفسه فيما أمر به محمد رسول الله] .

ولما بلغوا الطائف أراد المغيرة أن يقدم أبا سفيان فأبى وقال له : أدخل أنت على قومك . ولما شرع المغيرة فى هدم « اللات » قام أهله (بنو معتب) دونه يحمونه خشية أن يرمى كما رمى عروة بن مسعود .

وخرجت نساء ثقيف حسراً يبكين على صنمهم .

على أن أهل الطائف الذين حرصوا على وثنيتهم أشد الحرص ،

---

(١) ابن هشام ج ٢ ص ٩١٨ ، أمتاع الاسماع ج ١ ص ٤٩٣

(٢) العضاه : كل شجر ذى شوك ، ما عظم منه وما قل . ووج : اسم للطائف منازل ثقيف . وعضد الشجرة يعضدها : قطعها

أصبحوا بعد إسلامهم من أشد العرب حرصا على الإسلام وذوداً عنـه .

غزوة تبوك[1] :

علم الرسول أن نصارى العرب اجتمعوا مع جند الروم لمحاربته ، ووصلت مقدمتهم إلى البلقاء — أرض بالشام — فأمر أصحابه بالتهيؤ لغزوهم (فى رجب سنة تسع من الهجرة) ، وذلك فى زمن عسرة من الناس ، وشدة من الحر وجدب من البلاد وحين طابت الثمار ، فالناس يحبون المقام فى ثمارهم وظلالهم . ويكرهون الشخوص عنها .

وكان الرسول قلما يخرج فى غزوة إلا كنى عنها ، وأخبر أنه يريد غير الوجه الذى يقصد إليه ، إلا غزوة تبوك فإنه بينها للناس . لبعد الشقة ، وشدة الزمان . وكثرة العـدو الذى يقصد إليه ، ليتأهب الناس لذلك أهبته .

وحض الرسول على الجهاد ورغب فيه . وأمر بالصـدقة فحملت صدقات كثيرة ، وأول من حمل صدقته أبو بكر الصديق : جاء بماله كله أربعة آلاف درهم ، فقال له الرسول : هل أبقيت شيئاً ؟ قال : الله ورسوله .

---

(١) تبوك : موضع من أدنى أرض الشام ، وسميت أيضا غزوة العسرة لقوله تعالى « والذين اتبعوه فى ساعة العسرة » وتعرف بالفاضحة لافتضاح المنافقين فيها

وجاء عمر بن الخطاب بنصف ماله ، فقال له الرسول ، هل أبقيت شيئاً ؟ قال : نعم ! نصف مالى ماجئت به .

وبلغ عمر ماجاء به أبو بكر فقال : ما استبقنا إلى خير إلا سبقنى إليه .

وحمل العباس بن عبد المطلب مالا يقال : إنه تسعون ألفاً . وحمل طلحة بن عبيد الله مالا . وحمل عبد الرحمن بن عوف مائتى أوقية . وحمل سعد بن عبادة ومحمد بن مسلمة مالا . وتصدق عاصم بن عدى بتسعين وسقاً تمراً . وجهز عثمان بن عفان ثلث ذلك الجيش ، فكان من أكثرهم نفقة ، حتى كفى ثلث ذلك الجيش مؤونتهم ، حتى إنه كان ليقال : ما بقيت له حاجة ! فجاء بألف دينار ففرغها فى حجر الرسول ، فجعل يقلبها ويقول : ماضر عثمان ما فعل بعد هذا اليوم[1] ورغب الرسول أهل الغنى فى الخير والمعروف . فتبادر المسلمون فى ذلك ، حتى إن الرجل ليأتى بالبعير إلى الرجل والرجلين فيقول : هذا البعير بينكما تعتقبانه ، ويأتى الرجل بالنفقة فيعطيها بعض من يخرج . وأتت النساء بكل ماقدرن عليه من الحلى .

وعجز البكاؤن — وهم سبعة نفر من الأنصار وغيرهم[2] — فاستحملوا رسول الله — وكانوا أهل حاجة ، فقال : لا أجد

---

(١) إمتاع الاسماع : ج١ ص٤٤٧

(٢) م : سالم بن عمير ، وعلبة بن زيد ، وعبد الرحمن بن كعب ، وعمرو ابن حمام بن الجموح ، وعبد الله بن المغفل المزنى ، وهرمى بن عبد الله . وعرباض بن سارية الفزارى

ما أحملكم عليه ، فتولوا ، وأعينهم تفيض من الدمع ألا يجدوا ماينفقون . ورأى واحد من المؤمنين اثنين منهم ، وهما يبكيان ، فقال : مايبكيكما .

قالا : جئنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ليحملنا ، فلم نجد عنده مايحملنا عليه . وليس عندنا مانتقوى به على الخروج معه ، فأعطاهما ناضحاً له[١] ، وزودهما شيئاً من تمر ، فخرجا مع الرسول . وفى ذات يوم — قال الرسول للجد بن قيس[٢] :

— يا جد ، هل لك العام فى جلاد بنى الأصفر (أى الروم) ؟

فقال : يا رسول الله ، أو تأذن ولا تفتنى ؟ فو الله لقد عرف قومى أنه ما من رجل بأشد عجباً بالنساء منى ، وإنى أخشى إن رأيت نساء بنى الأصفر ألا أصبر !

فأعرض عنه الرسول . وقال : قد أذنت لك .

وقال قوم من المنافقين بعضهم لبعض : لاتنفروا فى الحر ، زهادة فى الجهاد ، وشكا فى الحق وارجافاً بالرسول . ففضح الله مابيتوا ، وأنزل على نبيه فيهم .

[وقالوا لا تنفروا فى الحر ، قل : نار جهنم اشد حراً لو

---

(١) الناضح : الجمل الذى يستقى عليه الماء .

(٢) فيه نزل قوله تعالى « ومنهم من يقول ائذن لى ولا تفتنى ألا فى الفتنة سقطوا وإن جهنم لمحيطة بالكافرين »

كانوا يفقهون . فليضحكوا قليلا وليبكوا كثيراً جزاء بما كانوا يكسبون(١)] :

و بلغ الرسول أن ناساً من المنافقين يجتمعون فى بيت سويلم اليهودى يثبطون الناس عن الخروج للغزو ، فأراد أن يقضى على الفتنة فى مهدها ، وأن يطفىء جذوة الشر قبل أن تستفحل نارها ، فبعث إليهم طلحة بن عبد الله فى نفر من أصحابه ، وأمره أن يحرق عليهم البيت ، فخرب طلحة عش النفاق ، وحرق وكر المنافقين .

وأجمع الرسول السير ، وضرب عسكره على ثنية الوداع ، وتخلف عنه نفر من المسلمين من غير شك وارتياب ، فقد كانوا رجال صدق لايتهمون فى إسلامهم(٢) .

وسار معه عبد الله بن أبى سلول ، وضرب عسكره قريباً منه . ولكنه لم يلبث أن تخلف فيمن تخلف من المنافقين وأهل الريب .

واستعمل الرسول على المدينة — حين خرج إلى تبوك — سباع ابن عرفطة ، وخلف على بن أبى طالب على أهله ، وأمره بالإقامة فيهم ، فارجف بذلك المنافقون وقالوا : ماخلفه إلا استثقالا له وتخففاً منه ، وسمع ذلك على ، فأخذ سلاحه وخرج حتى أتى الرسول ، وهو نازل بالجرف قرب المدينة ، فقال : يانبى الله ، زعم المنافقون أنك استثقلتنى وتخففت منى !

---

(١) سورة التوبة : ٨٢ .

(٢) منهم كعب بن مالك ، ومرارة بن الربيع ، وهلال بن أمية

فقال: كذبوا، ولكني خلفتك لما تركت ورائي، فارجع فاخلفني في أهلي وأهلك، أفلا ترضى أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى! إلا أنه لا نبي بعدي.

فرجع علي إلى المدينة، ومضى الرسول على سفره.

ومر الرسول في طريقه بالحجر (١)، فسجى ثوبه على وجهه، واستحث الناس، ثم قال:

— لا تدخلوا بيوت الذين ظلموا إلا وأنتم باكون خوفا أن يصيبكم مثل ما أصابهم.

ثم نزل بالحجر، واستقى الناس من بئرها، فلما راحوا قال لهم الرسول:

— لا تشربوا من مائها شيئاً، ولا تتوضئوا منه للصلاة، وما كان من عجين عجنتموه فاعلفوه الإبل، ولا تأكلوا منه شيئاً، ولا يخرجن أحد منكم الليلة إلا ومعه صاحب له.

وأصبح الناس ولا ماء معهم، فشكوا ذلك إلى الرسول، فدعا الله فأرسل سحابة أمطرت حتى ارتوى الناس، واحتملوا حاجتهم من الماء، وتابع المسلمون السير، حتى إذا كانوا ببعض الطريق ضلت ناقة الرسول، فخرج أصحابه في طلبها، فقال أحد المنافقين — زيد بن اللصيت — أليس محمد يزعم أنه نبي، يخبركم خبر السماء! فكيف لا يدري أين ناقته!

---

(١) بلاد ثمود.

فقال الرسول لأصحابه : إن رجلا قال : هذا محمد يخبركم أنه نبي ، ويزعم أنه يخبركم بأمر السماء ، وهو لا يدري أين ناقته ! وإني والله ما أعلم إلا ما علمني الله ، وقد دلني الله عليها ، وهي في الوادي في شعب[1] كذا . قد حبستها شجرة بزمامها ، فانطلقوا حتى تأتوني بها ، فذهبوا فجاءوا بها .

ثم مضى الرسول سائراً يتخلف عنه الرجل ، فيقال : يا رسول الله ، تخلف فلان ، فيقول :

— « دعوه فإن يك فيه خير فسيلحقه الله بكم ، وأن يك غير ذلك فقد أراحكم الله منه » حتى قيل : يا رسول الله ، قد تخلف أبو ذر وأبطأ به بعيره ، فقال : دعوه فإن يك فيه خير فسيلحقه الله بكم ، وأن يك غير ذلك فقد أراحكم الله منه .

وتلوم أبو ذر الغفاري على بعيره ، فلما أبطأ عليه أخذ متاعه فحمله على ظهره ، ثم خرج يتبع أثر الرسول ماشياً ، ونزل الرسول في بعض منازله ، فنظر ناظر من المسلمين فقال : يا رسول الله ، إن هذا لرجل يمشي على الطريق وحده . قال الرسول : كن أبا ذر ! فلما تأمله القوم قالوا : هو والله أبو ذر !

فقال الرسول : رحم الله أبا ذر ، يمشي وحده ، ويموت وحده ، ويبعث وحده .

(١) الشعب : ما إنفرج بين جبلين .

ثم إن أبا خيثمة رجع بعد أن سار الرسول أياماً إلى أهله فى يوم حار ، فوجد إمرأتين له فى عريشين لهما فى حائطه ، قد رشت كل واحدة منهما عريشها ، وبردت له فيه ماء ، وهيأت له طعاماً . فلما دخل ، قام على باب العريش ، فنظر إلى إمرأتيه وما صنعتا له ، فقال : رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الضح — الشمس — والريح — والحر ، وأبو خيثمة فى ظل بارد ، وطعام مهيأ ، وإمرأة حسناء ، فى ماله مقيم ، ما هذا النصف ! (أى العدل) . ثم يخاطب زوجتيه قائلا :

— والله لا أدخل عريش واحدة منكما حتى ألحق برسول الله صلى الله عليه وسلم ، فهيئا لى زاداً . ويرتحل الرجل المؤمن بعيره مسرعاً إلى الإيمان ، وأدركه فى الطريق عمير بن وهب فترافقا حتى أدركا الجيش فى تبوك . ويقول له الرسول خيراً ويدعو لأبو خيثمة بخير [1].

رجال مؤمنون يلحقون بالرسول ، ومنافقون يتخلفون عنه . .
وخرج معه ناس من المنافقين كثير ، لم يخرجوا إلا رجاء الغنيمة .
ويأخذ هؤلاء المنافقون فى بث روح الهزيمة فى الجيش . . والذى قاله عبد الله بن أبى سلول فى المدينة يردده المنافقون ويزيدون عليه .
يقول ثعلبة بن حاطب : تحسبون قتال بنى الأصفر (الروم) كقتال غيرهم ، والله لكأنى بكم غداً مقرنين فى الحبال .

(١) ابن هشام : ج ٤ ص ١٦٣ — ١٦٤ .

وتصل السخرية إلى تكوين الجيش من النواحي الفكرية والكفاءة القتالية فيقول وديعة بن ثابت :

— مالى أرى قراءنا) أصحاب الرسول لكثرة قراءاتهم القرآن) هؤلاء أرغبنا (أعظمنا) بطونا ، وأكذبنا ألسنة ، وأجبننا عند اللقاء .

ويثور الجدل بين المؤمنين والمنافقين ... المنافقون يؤيد بعضهم بعضاً فيقول الجلاس بن سويد معرضاً بالرسول والصحابة والوحى :

— هؤلاء سادتنا وأشرافنا وأهل الفضل منا ، والله لئن كان محمد صادقاً لنحن بشر من الحمير[1] ! !

فيرد عليه غلام له كان يتيما فى حجره :

— فأنت شر من الحمير . ورسول الله الصادق وأنت الكاذب !

إلى هذا الحد كان يثور الجدل فى المعسكر ، ويصل الخبر إلى رسول الله فيرسل إليهم عمار بن ياسر قائلا :

— أدرك القوم فإنهم قد اخترقوا[2] ، فسلهم عما قالوا .

وما أسرع ما ينكر المنافق أو يتنصل أو يبرر أو يحلف كاذباً . .

فيقول وديعة :

— يا رسول الله . إنما كنا نخوض ونلعب .

---

(١) إمتاع الأسماع . ج ١ ص ٤٥٣ .

(٢) كذبوا وافتروا .

ويتزل فى هذا قول الله تعالى :

[ولئن سألتهم ليقولن إنما كنا نخوض ونلعب . قل : أبالله وآياته ورسوله كنتم تستهزءون ؟ لا تعتذروا قد كفرتم بعد إيمانكم إن نعف عن طائفة منكم نعذب طائفة بأنهم كانوا مجرمين(١)] .

ويقسم الجلاس بن سويد — كاذباً أنه ما قال . وينزل فيه قول الله تعالى .

[يحلفون بالله ماقالوا ولقد قالوا كلمة الكفر وكفروا بعد إسلامهم وهموا بما لم ينالوا ، وما نقموا إلا أن أغناهم الله ورسوله من فضله . فإن يتوبوا يك خيراً لهم وإن يتولوا يعذبهم الله عذاباً أليماً فى الدنيا والآخرة ، وما لهم فى الأرض من ولى ولا نصير (٢)] .

ويصل الجيش إلى تبوك . ويجمع الرسول الناس ثم يخطبهم فكان مما قال لهم .

[أيها الناس ؟ أما بعد ، فإن أصدق الحديث كتاب الله ، وأوثق العرى كلمة التقوى ، وخير الملل ملة إبراهيم ، وخير السنن سنن محمد ، وأشرف الحديث ذكر الله ، وأحسن القصص هذا القرآن ، وخير الأمور عواقبها ، وشر الأمور محدثاتها ، وأحسن الهدى هدى الأنبياء ، وأشرف القتل قتل الشهداء ، وأعمى الضلالة الضلالة بعد الهدى ، وخير الأعمال ما نفع ، وخير الهدى ما اتبع ، وشر العمى عمى

(١) التوبة ٦٥ — ٦٦
(٢) التوبة ٧٤

القلب ، واليد العليا خير من اليد السفلى ، وما قل وكفى خير مما كثر وألهى ، وشر المعذرة حين يحضر الموت ، وشر الندامة يوم القيامة . ومن الناس من لا يأتي الجمعة إلا نزراً ، ومنهم من لا يذكر الله إلا هجراً ومن أعظم الخطايا اللسان الكذوب . وخير الغنى غنى النفس ، وخير الزاد التقوى ، ورأس الحكمة مخافة الله ، وخير ما ألقى فى القلب اليقين ، والارتياب من الكفر ، وشر المكاسب كسب الربا . وشر المال أكل مال اليتيم . والسعيد من وعظ بغيره . وسباب المؤمن فسوق ، وقتل المؤمن كفر ، وأكل لحمه من معصية الله ، وحرمة ماله كحرمة دمه . ومن يتأل على الله يكذبه [أى يحلف قائلا : ليدخلن الله فلاناً النار أو ليرفعن شأن فلان] ومن يعف يعف الله عنه ، ومن يكظم الغيظ يأجره الله ومن يصبر على الرزية يعوضه الله . ومن يصبر يضاعف الله له ، ومن يعص الله يعذبه . اللهم اغفر لى ولأمتى ، اللهم اغفر لى ولأمتى ، أستغفر الله لى ولكم[1]] .

إن هذه الخطبة مكونة من جمل قصيرة كأنها المعادلات الرياضية ؛ تحدد خطوطاً رئيسية فى تعامل المؤمنين مع الله ومع أنفسهم . .

فهل استطاعت هذه الكلمات المضيئة من الرسول أن تصل إلى كل القلوب ؟ لقد كانت برداً وسلاماً وتثبيتاً للمؤمنين ، ولكنها لم تزد المنافقين إلا إصراراً على شر كبير وصل ذروته عند ما كان الجيش فى طريق العودة إلى المدينة . .

---

(١) امتاع الأسماع : ١ ص ٤٦٠ ، ٤٦١

كانت الروم قد بلغها أمر الجيش الإسلامى وقوته ، فآثرت الانسحاب بجيشها الذى كانت وجهت إلى حدودها ليتحصن داخل بلاد الشام فى حصونها . فلما انتهى المسلمون إلى تبوك وعرف الرسول أمر انسحاب الروم ونمى إليه ما أصابهم من خوف ، لم ير محلا لتتبعهم داخل بلادهم . وأقام عند الحدود يناجز من شاء أن ينازله أو يقاومه ، ويعمل لكفالة هذه الحدود حتى لا يتخطى من بعد ذلك إليها أحد .

وكان يوحنا بن رؤبة صاحب أيلة أحد الأمراء القيمين على الحدود . ولقد وجه إليه الرسول رسالة أن يذعن أو يغزوه . فأقبل يوحنا وعلى صدره صليب من ذهب وقدم الهدايا والطاعة وصالح الرسول وأعطاه الجزية ، كما صالحه أهل الجرباء وأذرح[1] وأعطوه الجزية . وكتب الرسول لهم كتاب أمن ، هذا نص أحدها وهو ما كتب ليوحنا :

[بسم الله الرحمن الرحيم . هذه أمنة من الله ومحمد النبي رسول الله ليوحنة بن رؤبة وأهل أيلة سفنهم وسيارتهم فى البر والبحر لهم ذمة الله ومحمد النبي ومن كان معهم من أهل الشام وأهل اليمن وأهل البحر . فمن أحدث منهم حدثاً فإنه لا يحول ماله دون نفسه ، وأنه طيب

---

(١) الجرباء قرية من أعمال عمان بالبلقاء من أرض الشام ، وأذرح : بلد فى أطراف الشام من نواحى البلقاء وعمان مجاورة لأرض الحجاز وهى قريبة من الجرباء .

لمحمد أخذه من الناس . وأنه لا يحل أن يمنعوا من يردونه ولا طريقا يريدونه من بر أو بحر] .

وإيذاناً بالموافقة على هذا العهد أهدى الرسول إلى يوحنا رداء من نسيج اليمن وأحاطه بكل صنوف الرعاية ، بعد أن اتفق على أن تدفع إيلة جزية قدرها ثلثمائة دينار فى كل عام .

لم يبق الرسول فى حاجة إلى القتال بعد انسحاب الروم ، وبعد معاهدة البلاد الواقعة على الحدود معه ، وبعد أمنه عودة الجيوش البزنطية من هذه الناحية لولا خيفة انتقاض أكيدر بن عبد الملك الكندى النصرانى أمير دومة[1] ، ومعارضته جيوش الروم إذا جاءت من ناحيته . لذلك بعث الرسول إليه خالد بن الوليد فى خمسمائة فارس وانقلب بجيشه راجعا إلى المدينة .

وأسرع خالد بالانقضاض على دومه فى غفلة من مليكها الذى خرج فى ليلة مقمرة ومعه اخ له يسمى حسان يطاردان بقر الوحش . ولم يلق خالد مقاومة تذكر ، فقتل حسان وأخذ أكيدر أسيراً وهدده بالقتل إن لم تفتح دومة أبوابها . وفتحت المدينة الأبواب فداء لأميرها ، وساق خالد منها ألفى بعير وثمانمائة شاة وأربعمائة وسق من بر وأربعمائة درع ، وذهب بها ومعه أكيدر حتى لحق بالرسول فى المدينة ، هنا لك عرض محمد الإسلام على أكيدر فأسلم .

لم يكن عود الرسول على رأس هذه الألوف من جيش العسرة من

(١) دومة : هى المعروفة بدومة الجندل

حدود الشام إلى المدينة بالأمر الهين . فلم يدرك كثيرون من هؤلاء مغزى الاتفاق الذى عقد مع أمير أيلة والبلاد المجاورة له ، ولم يقيموا كبير وزن لما حققه الرسول بهذه الاتفاقات من تأمين حدود شبه الجزيرة وإقامة هذه البلاد معاقل بينه وبين الروم ، بل كان كل الذى نظروا إليه أنهم قطعوا هذه الشقة الطويلة ، وتحملوا فى قطعها النصب والتعب ، ثم عادوا لم يغنموا ولم يأسروا ، بل لم يقاتلوا . وكل الذى فعلوا أن أقاموا بتبوك قرابة عشرين يوماً . فهل لهذا قطعوا الصحراء العريضة فى شدة القيظ فى حين كانت ثمار المدينة قد طابت وآن أن يستمتع الناس بها ! ! وجعل جماعة منهم يستهزئون بما فعل محمد . ونقل من ملأ الإيمان قلوبهم نبأهم إليه » فأخذ المستهزئين بالشدة حيناً وباللين حيناً ، والجيش يسير قافلا إلى المدينة ومحمد يحفظ النظام فى صفوفه . . ولما كان الرسول ببعض الطريق مكر به أناس من المنافقين وائتمروا أن يطرحوه فى عقبة ، فلما بلغ تلك العقبة أرادوا أن يسلكوها معه فأخبر خبرهم ، فقال للناس : أسلكوا بطن الوادى فإنه أسهل لكم وأوسع .

فسلك الناس ببطن الوادى ، وسلك الرسول العقبة ، وأمر عمار ابن ياسر أن يأخذ بزمام الناقة يقودها ، وأمر حذيفة بن اليمان يسوق خلفه . فبينا الرسول يسير فى العقبة ، إذ سمع حس القوم قد غشوه. فغضب وأمر حذيفة أن يردهم ، فرجع إليهم فجعل يضرب وجوه رواحلهم بمحجن فى أيده . فانحطوا من العقبة مسرعين حتى خالطوا

الناس ، وأتى حذيفة فساق به . فلما خرج من العقبة ونزل الناس قال : يا حذيفة ! هل عرفت أحداً من الركب الذين رددتهم ؟

قال : يا رسول الله ، عرفت راحلة فلان وفلان ، وكان القوم متلثمين فلم أعرفهم من أجل ظلمة الليل .

وكانوا قد انفروا بالرسول فسقط بعض متاع رحله ، فكان حمزة ابن عمرو الأسلمي يقول : فنور لي في أصابعي الخمس ، فأضاءت حتى كنا نجمع ما سقط ، السوط والحبل وأشباههما ، حتى ما بقي من المتاع شيء إلا جمعناه .

فلما أصبح الرسول قال له أسيد بن الحضير : يا رسول الله ما منعك البارحة من سلوك الوادي ، فقد كان أسهل ؟

فقال : يا أبا يحيى ! أتدري ما أراد البارحة المنافقون وما هموا به ؟ قالوا : نتبعه في العقبة . فإذا أظلم الليل عليه قطعوا إنساع راحلتي ونخسوها حتى يطرحوني عن راحلتي !

فقال أسيد : يا رسول الله فقد اجتمع الناس ونزلوا ، فمر كل بطن أن يقتل الرجل الذي هم بهذا ، فيكون الرجل الذي يقتله من عشيرته ، وأن أحببت فنبئني بهم ، فو الذي بعثك بالحق لا تبرح حتى آتيك برءوسهم ، وإن كانوا في النبيت (يعني من الأوس) كفيتكهم ، وأمرت سيد الخزرج فكفاك من في ناحيته ، فإن مثل هؤلاء لا يتركون ، يا رسول الله حتى متى نداهنهم ، وقد صاروا اليوم في القلة والذلة وضرب الإسلام بجرانه ؟ ! فما تستبقي من هؤلاء ؟

قال : يا أسيد إني أكره أن يقول الناس أن محمداً — لما إنقضت الحرب بينه وبين المشركين — وضع يده في قتل أصحابه !

فقال : يا رسول الله ، وهؤلاء ليسوا بأصحاب !

قال : أو ليس يظهرون شهادة ألا إله إلا الله ؟

قال : بلى ! ولا شهادة لهم .

قال : أو ليس يظهرون أني رسول الله ؟

قال : بلى ! ولا شهادة لهم .

قال الرسول : فقد نهيت عن قتل أولئك(١) ! !

ونزل بذي أوان(٢) ، وكان أصحاب مسجد الضرار قد أتوه ، وهو يتجهز إلى تبوك فقالوا .

يا رسول الله ، إنا قد بنينا مسجداً لذي العلة والحاجة ، والليلة المطيرة ، والليلة الشاتية ، وإنا نحب أن تأتينا فتصلي لنا فيه .

فقال . إني على جناح سفر وحال شغل ، ولو قد قدمنا إن شاء الله لأتيناكم فصلينا لكم فيه .

ولما عاد أتاه خبر المسجد وما يراد به من الكيد والأذى فدعا مالك ابن الدخشم ومعن بن عدي ، وقال : إنطلقا إلى هذا المسجد الظالم أهله فاهدماه وحرقاه .

---

(١) إمتاع الأسماع جـ ١ ص ٤٧٨ — ٤٧٩ .
(٢) موضع بينه وبين المدينة ساعة من نهار .

فخرجا حتى أتيا رهط مالك بن الدخشم ، فقال مالك لمعن : أنظرني حتى أخرج إليك بنار من أهلي . ودخل إلى أهله ، فأخذ سعفا من النخل ، فأشعل فيه ناراً ، ثم خرجا يشتدان حتى دخلا المسجد وفيه أهله ، فحرقاه وهدماه وتفرقوا عنه .

وقد نزل فيهم قوله تعالى :

[والذين اتخذوا مسجداً ضراراً وكفراً وتفريقاً بين المؤمنين وإرصاداً لمن حارب الله ورسوله من قبل وليحلفن إن أردنا إلا الحسنى والله يشهد انهم لكاذبون(١)] .

وقدم الرسول المدينة ، وكان قد تخلف عنه رهط من المنافقين ، وتخلف كذلك من المسلمين — من غير شك ولا نفاق — كعب ابن مالك ، ومرارة بن الربيع ، وهلال بن أمية ، فقال الرسول لأصحابه : لا تكلمن أحد من هؤلاء الثلاثة . فاعتزل المسلمون كلام أولئك النفر .

ولما قدم الرسول المدينة بدأ بالمسجد فركع فيه ركعتين ، ثم جلس للناس ، فجاء المخلفون ، فجعلوا يعتذرون اليه ، ويحلفون له — وكانوا بضعة وثمانين رجلا — فقبل منهم علانيتهم وإيمانهم . وجاء كعب ابن مالك الى الرسول وهو جالس في المسجد ، فلما سلم عليه تبسم تبسم المغضب ثم قال : تعال ! فجاء حتى جلس بين يديه ، فقال :

---

(١) سورة التوبة : ١٠٦

— ما خلفك ؟ ألم تكن ابتعت ظهرك ؟

فقال : بلى ، يا رسول الله ، والله لو جلست عند غيرك من أهل الدنيا لرأيت أنى سأخرج من سخطه بعذر ، ولقد أعطيت جدلا ، ولكن والله لقد علمت لئن حدثتك اليوم حديثا كذبا لترضين عنى ، وليوشكن الله أن يسخط على ، ولئن حدثتك حديثا صادقا تجد على فيه أنى لأرجو عقباى من الله فيه ، ولا والله ما كان لى عذر . والله ما كنت قط أقوى ولا أيسر منى حين تخلفت عنك !

فقال الرسول : أما هـذا فقد صدقت فيه ، فقم حتى يقضى الله فيك .

فقمت وقام معى رجال من بنى سلمة فاتبعونى ، فقالوا لى :

— والله ما علمناك كنت أذنبت ذنبا قبل هـذا ، وقد عجزت ألا تكون اعتذرت إلى رسول الله بما اعتذر به اليه المخلفون ! قد كان كافيك استغفار رسول الله لك . فوالله ما زالوا بى حتى أردت أن أرجع إلى النبى فأكذب نفسى ، ثم قلت لهم : هل لقى هـذا أحد غيرى ؟

قالوا : نعم ، رجلان قالا مثل مقالتك ، وقيل لهما مثل ما قيل لك .

قلت : من هما ؟

قالوا : مرارة بن الربيع ، وهلال بن أمية ، فذكروا لى رجلين صالحين فيهما أسوة ، فصمت حين ذكروهما لى .

ونهى رسول الله عن كلامنا نحن الثلاثة من بين من تخلف عنه ، فاجتنبنا الناس وتغيروا لنا ، حتى تنكرت لي نفسي والأرض فما هي بالأرض التي كنت أعرف ، فلبثنا على ذلك خمسين ليلة ، فأما صاحباي فاستكانا وقعدا في بيوتهما ، وأما أنا فكنت أشب القوم واجلدهم ، فكنت أخرج وأشهد الصلوات مع المسلمين ، وأطوف بالأسواق ، ولا يكلمني أحد ، وآتي رسول الله فأسلم عليه وهو في مجلسه بعد الصلاة فأقول في نفسي : هل حرك شفتيه برد السلام علي أم لا ؟

ثم أصلي قريبا منه ، فأسارقه النظر ، فإذا أقبلت على صلاتي نظر إلي ، وإذا التفت نحوه أعرض عني ، حتى إذا طال ذلك علي من جفوة المسلمين مشيت حتى تسورت جدار حائط أبي قتادة — وهو ابن عمي ، وأحب الناس إلي — فسلمت عليه ، فوالله ما رد علي السلام ، فقلت :

— يا أبا قتادة ، أنشدك الله هل تعلم أني أحب الله ورسوله !

فسكت ، فعدت فناشدته فسكت عني ، فعدت فناشدته فسكت عني ، فعدت فناشدته .

فقال : الله ورسوله أعلم .

ففاضت عيناي ووثبت ، فتسورت الحائط .

ثم غدوت إلى السوق ، فبينا أنا أمشي إذا نبطي يسأل عني من نبط الشام ممن قدم بالطعام يبيعه بالمدينة ، يقول : من يدل على كعب بن مالك ؟

فجعل الناس يشيرون له إلى حتى جاءنى فدفع إلى كتابا من ملك غسان، فى سرقة[1] من حرير، فإذا فيه :

« أما بعد، فإنه قد بلغنا أن صاحبك قد جفاك، ولم يجعلك الله بدار هوان، ولا مضيعة، فالحق بنا نواسك ».

قلت — حين قرأته : وهذا من البلاء أيضا، قد بلغ بى ما وقعت فيه أن طمع فى رجل من الشرك !

ثم عمدت إلى تنور فسجرته[2] به.

فأقمنا على ذلك حتى مضت أربعون ليلة، إذا رسول رسول الله يأتينى فقال :

— إن رسول الله يأمرك أن تعتزل امرأتك !

قلت : أطلقها أم ماذا ؟

قال : لا، بل اعتزلها ولا تقربها.

وأرسل إلى صاحبى بمثل ذلك.

فقلت لامرأتى : ألحقى بأهلك فكونى عندهم حتى يقضى الله فى هذا ما هو قاض.

وجاءت امرأة هلال بن أمية رسول الله فقالت :

---

(١) السرق : شقق الحرير الأبيض أو الحرير عامة.
(٢) سجرته : أوقدته.

— يارسول الله ، إن هلال بن أمية شيخ كبير ضائع لا خادم له ، أفتكره أن أخدمه ؟

قال :

— لا ، ولكن لا يقربنك .

قالت :

— والله يارسول الله ما به حركة إلى ، والله ما زال يبكى منذ كان من أمره ما كان إلى يومه هذا ، ولقد تخوفت على بصره .

فقال لى بعض أهلى :

— لو استأذنت رسول الله لامرأتك ، فقد أذن لامرأة هلال بن أمية أن تخدمه !

قلت :

— والله لا أستأذنه فيها ، فما أدرى ما يقول لى فى ذلك إذا استأذنته فيها ، وأنا رجل شاب !

فلبثنا على ذلك عشر ليال فكمل لنا خمسون ليلة ، ثم صليت الصبح صبح خمسين ليلة ، على ظهر بيت من بيوتنا على الحال التى ذكر الله منا ، قد ضاقت علينا الأرض بما رحبت وضاقت على نفسى ، وقد كنت ابتنيت خيمة فى ظهر سلع[1] ، فذهبت إليها . وبينما أنا فيها سمعت صوت صاروخ أوفى على ظهر سلع ، يقول بأعلى صوته :

(١) سلع : جبل بالمدينة .

— يا كعب بن مالك ، أبشر !

فخررت ساجداً وعرفت أن قد جاء الفرج .

وآذن رسول الله للناس بتوبة الله علينا حين صلى الفجر ، فذهب الناس يبشروننا ، وذهب نحو صاحبي مبشرون ، وركض رجل إلى فرساً ، وسعى ساع من أسلم ، حتى أوفى على الجبل ، فكان الصوت أسرع من الفرس .

فلما جاءني الذي سمعت صوته يبشرني ، نزعت ثوبي فكسوتهما إياه ببشارة ، والله ما أملك يومئذ غيرهما ! واستعرت ثوبين فلبستهما ، ثم انطلقت أتيمم الرسول ، وتلقاني الناس يبشرونني بالتوبة ، ويقولون :

— لتهنئك توبة الله عليك ! حتى دخلت المسجد ورسول الله جالس وحوله الناس ، فقام إلى طلحة بن عبد الله ، فحياني وهنأني ووالله ما قام إلى رجل من المهاجرين غيره .

فلما سلمت على رسول الله قال لي — ووجهه يبرق من السرور .

— أبشر بخير يوم مر عليك منذ ولدتك أمك !

قلت : أمن عندك يا رسول الله أم عند الله ؟

قال : بل من عند الله !

فلما جلست بين يديه قلت :

— يا رسول الله ، إن من توبتي إلى الله عز وجل أن أنخلع من مالي صدقة إلى الله وإلى رسوله .

فقال : أمسك عليك بعض مالك ، فهو خير لك .

قلت : إنى ممسك سهمى الذى بخيبر . ثم قلت: يا رسول الله إن الله قد نجانى بالصدق وأن من توبتى ألا أحدث إلا صدقا ما حييت . والله ما أعلم أحداً من الناس أبلاه الله فى صدق الحديث منذ ذكرت لرسول الله أفضل مما أبلانى . والله ما تعمدت فى كذبه منذ ذكرت ذلك للنبى إلى يومى هذا . وأنى لأرجو أن يحفظنى الله فيم بقى .

وأنزل الله تعالى :

[لقد تاب الله على النبى والمهاجرين والأنصار الذين اتبعوه فى ساعة العسرة من بعد ما كاد يزيغ قلوب فريق منهم ، ثم تاب عليهم أنه بهم رءوف رحيم . وعلى الثلاثة الذين خلفوا حتى إذا ضاقت عليهم الأرض بما رحبت وضاقت عليهم أنفسهم وظنوا أن لا ملجأ من الله إلا إليه ، ثم تاب عليهم ليتوبوا . إن الله هو التواب الرحيم . يا أيها الذين آمنو اتقوا الله وكونوا مع الصادقين(١)] .

فوالله ما أنعم الله على نعمة قط ، بعد أن هدانى للإسلام ، كانت أعظم فى نفسى من صدق رسول الله ، ومجافاتى الكذب عليه ، فنجانى الله من الهلاك ، كما هلك الذين كذبوه ، فإن الله تعالى قال فى الذين كذبوه حين أنزل الوحى شر ما قال لأحد .

[سيحلفون بالله لكم إذا انقلبتم إليهم لتعرضوا عنهم فأعرضوا

---

(١) سورة التوبة : ١١٧ — ١١٩

عنهم إنهم رجس وماواهم جهنم جزاء بما كانوا يكسبون . يحلفون لكم لترضوا عنهم فإن ترضوا عنهم فإن الله لا يرضى عن القوم الفاسقين[1]] .

بدأ الرسول يشتد فى معاملة المنافقين شدة لم يألفوها من قبل . ذلك أن عدد المسلمين زاد زيادة تجعل عبث المنافقين بهم خطراً يخشى منه ويجب تلافيه وعلاجه علاجاً جذرياً . ولم يقم بنفس الرسول ريب بعد أن وعده ربه لينصرن دينه وليعلين كلمته فى أنهم سيزدادون من بعد أضعاف أضعاف زيادتهم اليوم ، عند ذلك يصبح المنافقون خطراً عظيما . ولقد كان له من قبل حين كان الإسلام محصوراً بالمدينة وما حولها أن يشرف بنفسه على مايجرى بين المسلمين . أما وقد انتشر الدين فى أنحاء جزيرة العرب ، وهاهو ذا يشارف الإنتقال منها ، فكل تهاون مع المنافقين شر تخشى مغبته ، وكان حرق المسجد الذى أقامه المنافقون مثلا ارتعدت له فرائص المنافقين فخافوا وانزووا ، ولم يبق لهم من يحميهم إلا عبد الله بن أبى شيخهم وقائدهم .

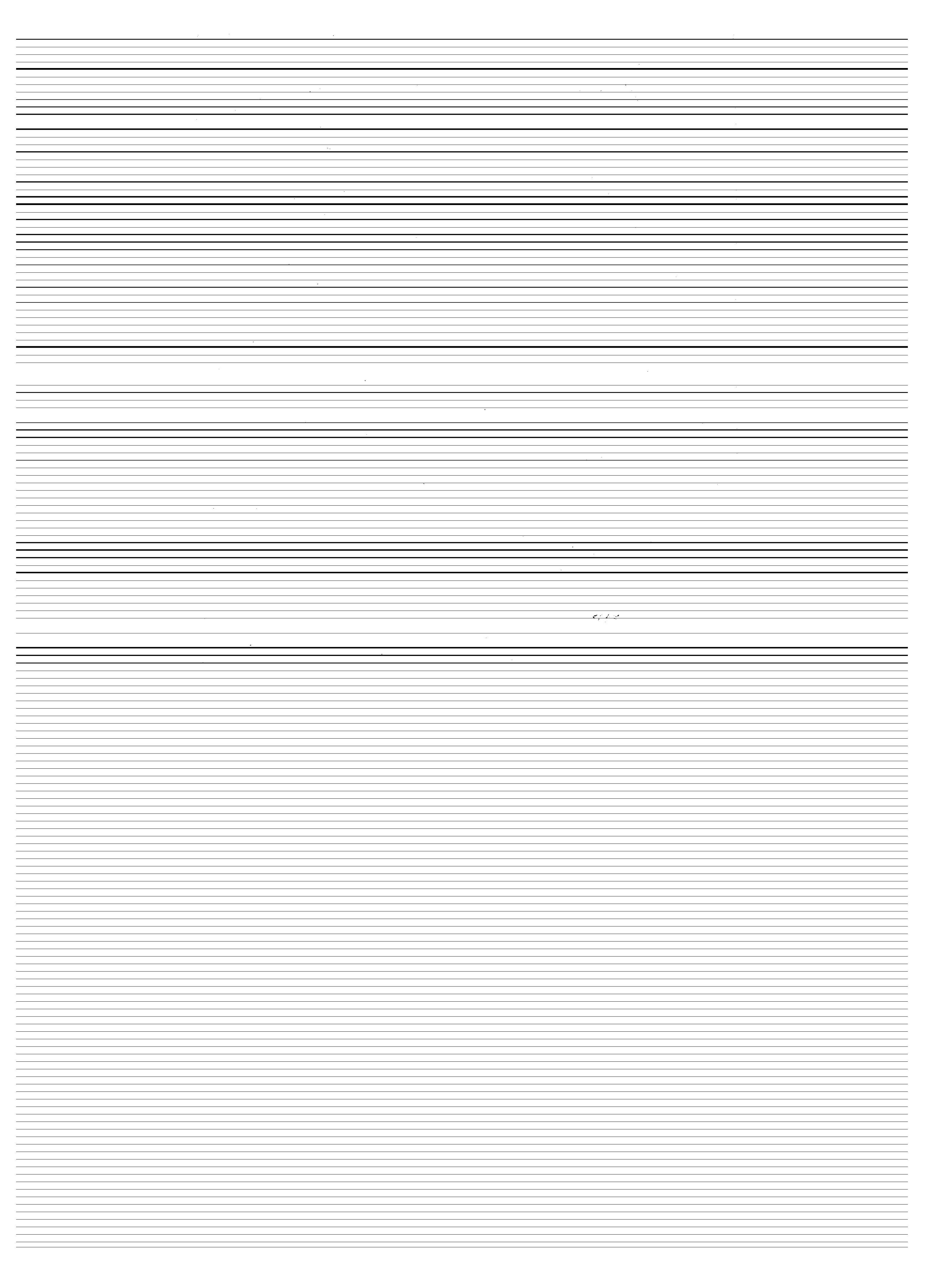
على أن عبد الله لم يعمر بعد تبوك غير شهرين مرض ثم مات ، ومع أن الحقد على المسلمين قد كان يأكل قلبه منذ نزل الرسول المدينة ، فقد آثر الرسول ألا ينال المسلمون ابن أبى بسوء ، ولم يأب الرسول حين دعى للصلاة عليه لما مات أن صلى وقام على قبره إلى أن

---

(١) سورة التوبة ٥٩ ، ٦٩

دقن وفرغ منه . وبموته انهار ركن المنافقين ، وآثر من بقي منهم أن يخلص لله توبته .

بغزوة تبوك تمت كلمة الله العلي القدير في جزيرة العرب كلها ، وأمن الرسول كل عادية عليها ، وأقبل سائر أهلها وفوداً عليه يقدمون الطاعة ويعلنون لله الإسلام .



الفصل الثامن

الأماكن المقدسة في المدينة

كان العرب — فى الجاهلية — يعبدون الأصنام . فبعث الله محمداً إليهم يدعوهم إلى عبادة الله الواحد القهار ، ونبذ الأصنام ، وينذرهم عذاب يوم شديد إذا هم لم يبتغوا وجهه الأكرم ، ملتمسين إليه الوسيلة بالبر والتقوى .

ويقول الدكتور هيكل[1] إن الفكرة التى أدت إلى تشييد الأماكن المقدسة ، لاتقف عند حد تقديس المكان الذى نزل الدين فيه ، وإنما جوهر هذه الفكرة تعيين المكان الذى يجتمع الناس فيه ليتوجهوا بقلوبهم إلى الله ، والذى يقبل الله فيه توبة التائب من آثامه وخطاياه ، فنحن وإن اتصلت روحنا بالله ، تغشانا بحكم حياتنا الدنيا أهواء وشهوات تحجب ضياء الروح ، فلا يهدينا صراط الله المستقيم .

وكثيراً ما تدفعنا هذه الشهوات والأهواء ، إلى ألوان من الخطايا والآثام ، تباعد بيننا وبين رضا الله عنا ، وحسن مثوبته جل شانه إيانا .

(١) كتاب الامبراطورية الاسلامية والاماكن المقدسة

حقاً إن الحسنات يذهبن السيئات ، وإنما فى عبادتنا حيث كنا نخفف من أوضار ذنوبنا . لكن من الذنوب ما يثقل الروح فهى أبداً قلقة تريد أن تخلص منه ، ونحن نتوب إلى الله ونستغفره فى كل صلاة وفى كل ساعة من ساعات الليل والنهار . وعفو الله وسع كل شىء . لكن التوبة النصوح . التوبة التى يتقبلها الله ويمحو ذنوب صاحبها ، هى التوبة التى نسعى إليها ، ونتجشم المشاق فى سبيلها ، ثم نعلنها على ملأ العالم من بنى ديننا . وهذه التوبة هى التى تتم فى إعلان صريح فى المكان المقدس الذى اختاره الله لنا ، كى يكون بعضنا شهيداً على بعض ولكيلا تلهينا العاجلة ، فلا نكاد نعلن التوبة إلى الله حتى نتورط فى حياة الإثم من جديد .

هذه هى الفكرة الجوهرية القائمة بنفس كل مسلم ، وكل مسيحى ، يعتزم الحج إلى المكان المقدس الذى اختاره الله لأهل دينه وملته فى سبيل طهر القلب ، ونقاء الروح مما يعلق بالنفس من أوضار الإثم نذر وراء ظهورنا تلك البيئة التى أغرتنا وغرتنا ، ولعبت بأهوائنا ، وعبثت بقلوبنا إلى بيئة طهور تتجلى فيها أرواحنا ، وترتفع إلى غاية ما نستطيع أن نسمو إليه من عوالمها المضيئة . . فتصهر بحرارة إيمانها ، وبحرارة توبتها ، ما علق بها على ملأ بنى الدنيا لأن الدنيا مهد الخطيئة ، فليس منا من يستطيع أن يدعى أنه لم يأثم . . بل كلنا تصدق فينا كلة السيد المسيح فى مريم المجدلية :

« من كان منكم بلا خطيئة فليرمها بحجر » .

فكرة التوجه إلى الله بالتوبة وطلب المغفرة ، هى التى أبقت

الأماكن للقدسة جديدة أمام كل جديد ، وهى التى أنشأت تلك الأماكن أول أمرها . وهى الأساس لنشأة أقدم هذه الأماكن وأكثرها قدسية ، فمنذ فجر الإسلام كان الطواف بالكعبة يجمع كل معانى التوجه لله ، من شكر إلى رجاء إلى توبة واستغفار .

وكان الطواف بالكعبة يجمع هذه المعانى قبل الإسلام . فالعربى الجاهلى الذى كان يطوف بالكعبة قبل أن يخرج إلى عمل يرجو منه الخير ، والذى كان يضرب بالقداح عند هبل القائم فى جوف الكعبة قبل أن يوفقه رب البيت إلى مايبغى ونحن لانزال إذ نطوف اليوم بالبيت العتيق ، يحدونا الرجاء أن يحط الله عنا أوزارنا ، وأن يوفقنا فى حياتنا إلى مانحب ونرضى وإلى مايحب ويرضى . ذلك شأننا جميعاً حين نحج وإن اختلف كل حاج فى تصور الحياة وتصور معانى الرجاء والشكر والتوبة .

الفكرة التى شادت الأماكن المقدسة وأبقتها جديدة أمام كل جيل جديد ، هى إذن فكرة التوجة لله ابتغاء رضاه . والأمل فى بلوغ الكمال الذى يقربنا من الله ، ثم قصورنا دون هذا الكمال ، وقربنا فى كثير من الأحيان من نقيضه ، ورجاؤنا فى الله بعد ذلك أن يغفر لنا ماقصرنا وما أثمنا . وهذا الاضطراب بين الكمال ونقيضه ، يتعرض له الناس جميعاً على اختلاف أقدارهم واختلاف علمهم .

فهذا العاهل العظيم الذى ملك الأرضين ودوخ الشعوب ، وبلغ من ذلك مابهر القلوب وشد إليه الأنظار ، يرجع إلى نفسه ساعات

فيشعر بأن مايراه هو ويراه الناس العظمة كل العظمة . . ليس شيئاً إلى جانب ما ارتكب في سبيله من أوزار ، وأنه لذلك أحوج إلى رضا الله عنه ولطفه به ، حتى لقد يود لو أنه لم يكن عاهلا عظيما ، ولم يرتكب كل ما ارتكب من الخطايا .

هنالك تضعف نفسه ويستشعر الندم ، ويريد أن يتقدم إلى بارئه بالتوبة ، فيسعى إلى المكان القدس الذى يتوب الناس عنده حاجا مستغفراً مما اجترح في سبيل العظمة التي طالما أغرته وضلته وهذا الفقير الذى يكد ليله ونهاره لقوته وقوت عياله ، يشعر بأنه لم يكن دائماً طاهر النفس في سعيه وفي كده ، وأنه طالما تمنى لجاره مالا يتمناه لمن يحب ، وأنه في سبيل الحياة قد أثم وأذنب ، وأنه لذلك في حاجة إلى التوبة تطهره ليعود إلى ربه نقي الروح ، جديراً بملكوت الله .

وبين هذين — بين العاهل العظيم والفقير الذى يكد ويسعى لقوته وقوت أهله — تضطرب طبقات الإنسانية المختلفة بين القوة والضعف ، وبين اليأس والرجاء ، وبين الأمل الخادع والخيبة اللاذعة . وهي في اضطرابها يعبث بها الغرور تارة ، ويعبث بها الضعف أخرى ، فإذا عبث الغرور أثمت ، وإذا عبث بها الضعف أثمت . . وعند ذلك تشعر بالحاجة إلى التوجه إلى الله منيبة تائبة من آثام الغرور ومن آثام الضعف جميعا . . ثم لا تجد ملاذاً لطهر الروح المتعطشة إلى الطهر إلا بالحج إلى الأماكن المقدسة ، تعلن عندها التوبة ، وتغسل في ظلالها الوزر والحوبة .

ومن ثم، كان شعور الحجاج إذ يلقون هذه الأماكن المقدسة قوياً، فياضاً بمعان روحية لا سبيل إلى تصورها فى غير هذه الأماكن المقدسة فى المدينة.

المسجد النبوى:

كان المكان الذى يقوم المسجد فيه مربداً لغلامين يتيمين فى المدينة هما سهل وسهيل ابنا عمرو يوم جاء الرسول مهاجراً إليها. والمشهور أن الرسول انتهى من هجرته إلى قباء على فرسخين من المدينة فأقام بها ومعه أبو بكر أربعة أيام. وفى هذه الأيام الأربعة أسس مسجدها. وكان آخر الأيام الأربعة يوم جمعة، وفيه سار ومعه أبو بكر وعلى بن أبى طالب حتى دخل المدينة وأهلها فى انتظاره يتحرقون شوقاً لمشاهدته. وهناك فى المسجد الذى ببطن وادى رانوناء أقبل عليه مسلمو يثرب. وصلى الجمعة معهم، واعتذر لمن عرض عليه منهم أن يقيم عندهم فى العدد والعدة والمنعة، وامتطى ناقته القصواء وألقى لها خطامها وتركها تسير وأهل المدينة من حولها. فلما كانت عند مربد سهل وسهيل ابنى عمرو بركت، فقال الرسول: «هذا إن شاء الله المنزل». وتلا: «اللهم أنزلنا منزلا مباركا وأنت خير المنزلين» وسأل عن المربد فأجاب أسعد بن زرارة إنه ليتيمين فى رعايته، وأنه سيرضيهما ورجاه أن يتخذه مسجداً، وقبل الرسول على أن يدفع الثمن. وأقام أثناء بناء المسجد فى دار أبى أيوب خالد بن زيد الأنصارى، وشارك أصحابه فى بناء المسجد وعمل فيه بيديه. وبنى

للمسجد يومئذ فناء واسعاً ، جدرانه الأربعة من الآجر والتراب ، وسقف جزءاً منه بالجريد ، وترك الجزء الآخر مكشوفاً ، وخصصت إحدى نواحيه لإيواء الفقراء الذين لا يملكون مسكناً .

وبقي المسجد على هذه الحال ست سنوات تباعاً ، لم يغير منه ما كان من انتشار الإسلام ، ولا غير منه ازدياد الرخاء بالمدينة وما أفاء الله على أهلها من بسطة الرزق .

فلما فتح المسلمون خيبر في السنة السابعة للهجرة وفتحها الله عليهم كانت المدينة قد أصبحت خالصة للمسلمين وكان أهلها قد ازداد عددهم بمن سكنها ممن هداهم الله للإسلام ، فلم يكن من توسيع رقعة المسجد بد . عند ذلك زاد الرسول في مساحته مائة متر مربع . فقد كان إلى يومئذ خمساً وثلاثين متراً في ثلاثين فجعله الرسول مربعاً ، وفي رواية أنه جعله خمسين متراً في خمسين . لكنه لم يفعل أكثر من ذلك ولم يغير من عمارته باللبن والجريد وجذوع النخل شيئاً . وهذا المنبر الذي صار من بعد آية في الفن ، والذي يسمى منبر رسول الله ، لم يفكر الرسول حين وسع المسجد في تغييره ولا في زخرفته . وما حاجته عليه السلام إلى هذا الزخرف المادي وكل دعوته إلى كمال الروح وسموها ودأبها القربى من الله العلي القدير . وهو لم يتخذ لنفسه منبراً أول الأمر ، وما كان ليتخذه لولا أنه شعر بالحاجة إليه . فقد كان يخطب الناس إلى جذع في المسجد حتى شعر بأن القيام قد شق عليه . فقال له تميم الداري : ألا أعمل لك منبراً كما رأيت يصنع بالشام ؟ فشاور الرسول المسلمين في ذلك فرأوا أن يتخذه ، فقال العباس بن

عبد المطلب : إن لى غلاما يقال له كلاب أعمل الناس ، فقال الرسول: مره أن يعمله فأرسله إلى أثلة بالغابة فقطعها ، ثم عمل منها درجتين ومقعدا ، ثم جاء به فوضعه فى موضعه اليوم ، فجاءه رسول الله ، فقام عليه وقال : منبرى هذا على ترعة من ترع الجنة ، وقوائم منبرى رواتب فى الجنة(١) .

وقد جعل الرسول للمسجد حين بناه ثلاثة أبواب : باب بالجهة الغربية دعى باب عاتكة وهو باب الرحمة الآن ، وباب بالجهة الشرقية دعى باب عثمان وهو باب جبريل الآن ، وباب بالجهة الجنوبية بقى سبعة عشر شهرا حين كانت قبلة المسجد فى جداره الشمالى لتواجه المسجد الأقصى ، فلما تحولت القبلة إلى الكعبة سد الباب الجنوبى ووضعت القبلة مكانه ، وفتح فى الجدار الشمالى باب مكان القبلة الأولى .

بقى بناء المسجد على ذلك حتى اختار الرسول الرفيق الأعلى ، ولم يحدث فى خلافة أبى بكر إلا ما روى أن سوارى المسجد نخرت فبناها . فلما كان عهد عمر بن الخطاب واطردت الزيادة فى عدد المسلمين لم يكن من توسيع رقعة المسجد كرة أخرى بد . ولقد كان الشعور بضرورة الزيادة واضحا فقد دانت للإسلام بلاد العرب كلها فى عهد الرسول ، حتى لكان يقول :

« ينبغى أن نزيد فى المسجد » . ولقد اعتمد عمر إلى هذا

---

(١) ابن سعد ج ١ ص ١٠

الحديث حتى استقر عزمه على الزيادة فكان يقول :

— لولا أنى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « ينبغى أن نزيد فى مسجدنا » ما زدت . ودعا عمر كل من كان له إلى جوار للمسجد دار فقال لهم :

— اختاروا منى ثلاث خصال : إما البيع فأثمن ، وإما الهدية فاشكر ، وإما الصدقة على مسجد رسول الله .

فأجاب الناس ، وكان للعباس بن عبد المطلب دار عن يمين المسجد فلما خيره عمر بين هذه الخصال الثلاث رفض أن يجيبه إلى شىء منها .

قال عمر : أنا أهدمها .

قال العباس : مالك ذلك .

فقال عمر : اجعل بينى وبينك من شئت .

فقال العباس : أبى بن كعب .

فانطلقا إلى أبى فقصا عليه القصة . فقال أبى : إن شئتما حدثتكما بحديث سمعته من رسول الله صلى الله عليه وسلم .

فقالا : حدثنا .

فقال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : إن الله أوحى إلى داود أن ابن لى بيتا أذكر فيه . فخط له هذه الخطة خطة بيت المقدس فإذا تربيعها بزاوية رجل من بنى إسرائيل فسأله داود أن يبيعه إياها فأبى . فحدث داود نفسه أن يأخذه منه ، فأوحى الله إليه أن

يا داود أمرتك أن تبني لي بيتا أذكر فيه فاردت أن تدخل في بيتي الغصب ، وليس من شأني الغصب ، وأن عقوبتك أن لا تبنيه .

قال : يارب فمن ولدي ؟ قال فمن ولدك . وبناه سليمان ابن داود .

فأخذ عمر بمجامع أبي بن كعب فقال :

— جئتك بشيء . فجئت بما هو أشد منه لتخرجن مما قلت !

فجاء يقوده حتى دخل للمسجد فأوقفه على حلقة من أصحاب الرسول فيهم أبو ذر فقال أبي :

— نشدت الله رجلا سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يذكر حديث بيت المقدس حين أمر الله داود أن يبنيه إلا ذكره .

فقال أبو ذر :

— أنا سمعته من رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وقال آخر : أنا سمعته يعني من الرسول .

قال : فأرسل أبيا . قال فأقبل أبي على عمر فقال :

— يا عمر اتتهمني على حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟

فقال عمر :

— والله يا أبا المنذر ما اتهمتك عليه ولكن أردت أن يكون الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ظاهرا .

وقال عمر للعباس :

— اذهب فلا اعرض لك فى دارك

فقال العباس :

— أما اذا قلت ذلك فانى قد تصدقت بها على المسلمين أوسع عليهم فى مسجدهم فأما وأنت تخاصمنى فلا [1] وبنى له عمر دارا بدلها من بيت مال المسلمين

بدأ عمر توسيع المسجد فى السنة السابعة عشرة للهجرة ، فزاد فيه خمسة أمتار من الناحية الجنوبية ونقل القبلة إليها ، وزاد نحو ذلك من الناحية الغربية ، وزاد خمسة عشر مترا من الناحية الشمالية ولم يزد شيئا من الناحية الشرقية إذ كانت بها بيوت أمهات المؤمنين . وقد دخلت دار أبى بكر فى هذه الزيادة لوقوعها فى ناحية المسجد الغربية .

ويقال : ان هذه الدار خرجت من ملك أبى بكر فى حياته حين احتاج إلى شىء يعطيه بعض من وفد عليه فباعها حفصة بنت عمر أم المؤمنين بأربعة آلاف درهم ، وأن جزءاً منها أدخل فى زيادة المسجد أيام عمر وأدخل جزء منها فى زيادة عثمان بن عفان .

لم يحدث عمر حين أنشأ هذه الزيادة فى عمارة المسجد أكثر من أنه زاد فى رقعته وزاد فى عدد أبوابه . فقد بنى الجدر كما بناها الرسول من قبله . جعل الأساس من الحجارة ، وما فوقه من اللبن ، والعمد من الخشب ، والسقف من الجريد ، وجعل للمسجد ستة أبواب :

---

(١) السمهودى ، ج ١ ص ٣٤٢

اثنين منها فى الجهة الغربية يحاذيان باب الرحمة ، وباب السلام الحاليين ، واثنين فى الجهة الشرقية يحاذيان باب جبريل وباب النساء ، وبابين فى الجهة الشمالية غيرا من بعد فى الزيادات التى حدثت .

على أن تطورا حدث يومئذ لا ينبغى أن نغفله . ذلك أن عمر اتخذ مكانا إلى جانب المسجد يدعى البطيحاء وقال : « من أراد أن يلغط أو يرفع صوتا أو ينشد شعراً فليخرج إليه » . وسبب ذلك أن عمر سمع ناسا من التجار يذكرون تجارتهم والدنيا فى المسجد فقال :

— إنما بنيت هذه المساجد لذكر الله فإذا ذكرتم تجاراتكم ودنياكم فأخرجوا إلى البقيع .

وسمع عمر رجلا يرفع صوته فى المسجد فقال له : أتدرى أين أنت؟ كأنه كره الصوت(١) .

وتلاحى رجلان فى المسجد فقال عمر : فى مسجد رسول الله تقولان الهجر ومالا يصح من القول ؟

وبينما هو فى المسجد عشاء إذا سمع ضحك رجل فأرسل إليه فقال :

— من أنت ؟

فقال : أنا رجل من ثقيف .

فقال : أمن أهل البلد أنت ؟

فقال : بل من أهل الطائف .

---

(١) السمهودى ج ١ ص ٣٥٣ .

فتوعده فقال : لو كنت من أهل البلد لنكلت بك إن مسجدنا هذا لا ترفع فيه الأصوات .

هذا التطور الذى أدى بعمر بن الخطاب ليأمر من أراد أن يلغط أو يرفع صوتاً أو ينشد شعراً أن يخرج من المسجد إلى البطيحاء يتفق تماماً مع روح الإسلام . فإن يكن قد حدث فى عهد الرسول تجاوز بإنشاد الشعر ، فلم يكن ذلك للإباحة وإطلاقها ؛ وإنما كان استثناء فى أحوال بذاتها . فكعب بن زهير إنما أنشد قصيدته « بانت سعاد » يوم جاء مستجيراً بالرسول يعلن إليه إسلامه ، وهجاء حسان بن ثابت الكفار بقصائده لون من الجهاد فى سبيل الله جائز فى المساجد . والمسلمون فى عهد الرسول كانوا يتحدثون فى غزواتهم وفى شئون خصومهم حين وجودهم بالمسجد فلا يعترض عليهم أحد ، لأنهم يتحدثون فى شئونهم العامة ، فلما كثر عددهم تجاوزوا الشئون العامة وأراد بعضهم أن يتخذ المسجد مجلساً لأحاديثهم الخاصة فى تجارتهم وشئون دنياهم ، وخشية عمر أن يغلب الحديث فى هذه الشئون الخاصة هى السبب فى أنه أمر من شاء أن يلغط أو يتحدث فى شئونه الخاصة بالخروج إلى البطيحاء(١) .

ولما ولى عثمان بن عفان الخلافة سنة أربع وعشرين للهجرة كلمه الناس أن يزيد فى مسجدهم(٢) وشكوا إليه ضيقه يوم الجمعة حتى إنهم

(١) هيكل : فى منزل الوحى ف ص ٤٥٤ .

(٢) السمهودى : ص ٣٥٦ .

ليصلون في الرحاب فشاور فيه عثمان أهل الرأى من أصحاب الرسول فأجمعوا على أن يهدمه ويزيد فيه . فصلى الظهر بالناس ثم صعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه ثم قال :

[أيها الناس . إنى قد أردت أن أهدم مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم وأزيد فيه وأشهد لسمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول من بنى لله مسجداً بنى الله له بيتاً فى الجنة . وقد كان لى فيه سلف وإمام سبقنى وتقدمنى عمر بن الخطاب كان قد زاد فيه وبناه وقد شاورت أهل الرأى من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فاجمعوا على هدمه وبنائه وتوسيعه] .

وحسن الناس يومئذ ذلك ودعوا له . فزاد عثمان بقدر زيادة عمر ابن الخطاب فى الناحية الجنوبية من المسجد ، وكذلك فعل فى الناحية الغربية . أما فى الناحية الشماليه فكانت زيادته دون زيادة عمر ، وكانت تزيد على ما أحدثه فى الناحيتين الجنوبيـة والغربية بما يعادل قرابة الضعف من كل من هاتين الزاويتين . بيد أنه أحدث من التطور فى عمارته مالم يحدثه عمر . فهو لم يجدده باللبن ولم يجعل عمده من الخشب وسقفه من الجريد أسوة بالرسول ، بل بنى جدره بالحجارة المنقوشة والقصة (الجصة) ، وجعل عمده من حجارة منقورة أدخل فيها عمد الحديد وصب فيها الرصاص ونقشها من خارجها ، أما سقفه فقد جعله من الساج .

ولم يزد عثمان فى المسجد من ناحية الشرق ، لأن بيوت الرسول كانت ماتزال قائمة ، وكان من أزواجه من لا يزلن يقمن بها .

وبقى المسجد على مابناه عثمان إلى سنة ثمان وثمانين من الهجرة لم يزد فى نظامه وبناء عمر ، إلا المقصورة التى اتخذها عثمان والتى مازال تعرف بمحراب عثمان ، وكانت صغيرة من لبن وفيها كوة ينظر الناس منها إلى الأمام . وكذلك تعاقبت عهود على بن طالب ومعاوية ويزيد ابن معاوية ومروان بن الحكم وعبد الملك بن مروان والمسجد على بناء عثمان لايفكر أحد فى الزيادة فيه ولا فى تغيير عمارته .

يقول البلاذرى . لم يحدث فيه شىء إلى أن ولى الوليد بن عبد الملك بن مروان بعد أبيه فكتب إلى عمر بن عبد العزيز وهو عامله على المدينة يأمره بهدم المسجد وبنائه ، وبعث إليه بمال وفسيفساء ورخام وثمانين صانعاً من الروم والقبط من أهل الشام ومصر ، فبناه وزاد فيه[١] .

ويقول السمهودى[٢] . قدم الوليد بن عبد الملك حاجاً فبينما هو يخطب الناس على منبر رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ حانت منه التفاتة فإذا بحسن بن حسن بن على بن أبى طالب فى بيت فاطمة فى يده مرآة ينظر فيها فلما نزل أرسل إلى عمر بن عبد العزيز فقال : لا أرى هذا قد بقى بعد ، اشتر هذه المواضع وادخل بيت النبى صلى الله عليه وسلم فى المسجد وأسده .

وفى رواية أن الوليد بن عبد الملك كان يبعث كل عام رجلا إلى المدينة يأتيه بأخبار الناس وما يحدث بها ، فقال له الرجل يوماً . لقد

(١) البلاذرى : فتوح البلدان ص١٣
(٢) جـ١ ص ٣٦٣

رأيت أمراً لا والله مالك معه سلطان ولا رأيت مثله قط . قال الوليد : وما هو ؟ قال : كنت فى مسجد النبى صلى الله عليه وسلم فإذا منزل عليه كلة فلما أقيمت الصلاة رفعت الكلة وصلى صاحبه فيه بصلاة الإمام هو ومن معه ثم أرخيت الكلة وأتى بالغداء فتغدا هو وأصحابه فلما أقيمت الصلاة فعل مثل ذلك وإذا هو يأخذ المرآة والكحل وأنا أنظر فسألت فقيل هذا حسن بن حسن . قال : ويحك فما أصنع هو بيته وبيت أمه فما الحيلة فى ذلك ؟ قال : تزيد فى المسجد وتدخل هذا البيت فيه . فكتب الوليد إلى عمر بن عبد العزيز يأمره بالزيادة فى المسجد ويشترى هذا المنزل . فعرض عليهم أن يبتاع منهم فأبوا . وقال حسن : والله لا نأكل له ثمناً أبداً فكتب عمر إلى الوليد فى ذلك فأمره بهدمه وإدخاله فى المسجد وطرح الثمن فى بيت المال ففعل وإنتقلت منه فاطمة بنت حسين إلى موضع دارها بالحرة فابتنتها .

قرر الوليد بن عبد الملك أن يزيد فى المسجد وأن يدخل هذا البيت فيه . لكنه بعد أن أمعن الفكر رأى أن يدخل فيه بيوت الرسول جميعاً . وكانت هذه البيوت ممتدة من شرق المسجد حيث الحجرة النبوية ، متجهة نحو الشمال إلى موضع ليس تحديده اليوم بالأمر الهين ، وكانت موضع رعاية كبرى من المسلمين فى ذلك العهد . وقد خلت كلها من ساكنيها بعد أن اختار الله عائشة أم المؤمنين . كان الناس يهرعون لصلاة الجمعة فيها مؤتمين بإمام المسجد ، ثم يحيطونها فيما وراء ذلك برعايتهم على إعتبار أنها من الآثار التاريخية الباقية للرسول الكريم ولحياته فى المدينة . لذلك حزنوا حزناً عميقاً حين

علموا بأمر هدمها. روى عن نصار الخرساني قوله : « أدركت حجرات النبي صلى الله عليه وسلم من جريد على أبوابها المسوح من شعر أسود ، فحضرت كتاب الوليد بن عبد الملك يقرأ ويأمر بإدخال حجرات أزواج النبي صلى الله عليه وسلم ، فما رأيت يوماً كان أكثر باكياً من ذلك اليوم. وسمعنا سعيد بن المسيب يقول : « والله لوددت أنهم تركوها على حالها » ولعل منهم من فطن إلى أن الوليد أمر بهدم حجرة فاطمة غضباً على أبنائها ، ثم أمر بهدم سائر الحجرات حتى لا يتهم بأنه هدم حجرة فاطمة إنتقاماً من أبناء على بغياً بغير حق متخذاً من توسيع المسجد حجة له[1]. فقد سبقه عثمان وعمر إلى توسيعه فتركا حجرات أمهات المؤمنين لم يمسساها وزاداً في المسجد من سائر نواحيه.

زاد الوليد في المسجد من جهة الغرب — ولم يزد بعد في هذه الجهة شيء كبير — والشمال والشرق فأدخل في المسجد حجرات أزواج الرسول التي كانت جنوبي المسجد وشماليه بعد أن هدم بناءها وكانت أبوابها شارعة في المسجد ، واقتطع أيضاً جزءاً من حجرة عائشة أدخله في المسجد وذلك من جهة الروضة وأقام على الحجرة ذلك البناء الخماسي الذي تسدل عليه الكسوة اليوم ، ولم يجعله مربعاً عدولا به عن سنن الكعبة حتى لا يتخذه الناس قبلة ، وقد بنى المسجد بالحجارة المطابقة والقصة وجعل عمد المسجد من حجارة حشوها عمد الحديد

---

(١) هيكل : في منزل الوحي ص : ٤٥٨ .

والرصاص ، ونقش حيطانه بالفسيفساء والمرمر وعمل سقفه من الساج وحلاه بماء الذهب ونقش رءوس الأساطين والأعتاب بالذهب ، ولما حج الوليد وقدم المدينة بعد الفراغ من عمارة المسجد أخذ ينظر فى جدره وسقفه ونقوشه وجميل شكله حتى إذا تم النظر التفت إلى أبان إبن عثمان وقال :

— أين بناؤنا من بنائكم ؟

قال أبان : بنيناه بناء المساجد وبنيتموه بناء الكنائس .

ولا شك أن هذه الكلمة التى قالها أبان عميقة المغزى لمن ينعم الفكر فيها ، فهى تصور تطوراً فى العمارة العربية يقابله تطور من نوعه فى التفكير الإسلامى . إنتقلت العمارة فى بناء الوليد المسجد من طرازها البسيط الذى أوحت به الحياة العربية فى بساطتها وقوة اتصالها بالطبيعة ، وأوحته الفكرة الإسلامية فى دعوتها إلى الصلة المباشرة بين المرء وخالقه على أساس من الإيمان الذاتى وتحاب المؤمنين بنور الله بينهم ، إلى هذا الطراز الذى قيل عنه : إنه كان « طرازاً إمبراطورياً ، شمل ديار الإسلام كلها ، كما كان طراز إنتقال من الفنون والعمارة المسيحية فى الشرق الأدنى إلى الطراز العباسى ، كذلك لم يخل هذا الطراز من التأثر بالأساليب الفنية الساسانية التى كانت مزدهرة فى الشرق الأدنى عند ظهور الإسلام[1] » ذلك أن الأمويين عاشوا

(١) دكتور زكى محمد حسن . فنون الاسلام ص ١٢ (القاهرة ١٩٤٨)

فى الشام حيث إزدهرت من قبلهم مدارس من الفنون الهلنسية والمسيحية الشرقية ، والتى تأثرت ببعض الأساليب الفنية الساسانية بحكم الجوار . وطبيعى أن العرب فى الشام تأثروا بالعمائر والفنون المسيحية التى شاهدوها ، وبدءوا يفكرون فى تشييد مساجد توازى فى العظمة كنائس المسيحيين ، ويتخذون من الطرف والتحف الفنية ما يتفق وعظمة ملكهم الجديد .

وكان جل اعتماد العرب فى البداية على الصناع والفنيين من السوريين والأقباط والروم .

لقد تأثر العرب بما اتصلوا به ، من الحضارات الأخرى ، وشغلوا عن تمحيصه بالمنازعات السياسية والثورات التى فرقت كلمتهم من عهد عثمان بعد أن مهدت لها أسباب سبقتها طوعت للإسرائيليات وغير الاسرائيليات أن تندس فى الإسلام وأن تشوب صفاءه (١) .

وزاد المهدى العباسى فى المسجد من جهة الشمال وعلى زيادته استقر المسجد فى هذه الجهة وكان بدء البناء سنة ١٦١ هـ ، والفراغ منه ١٦٥ هـ .

وفى ليلة الجمعة أول رمضان سنة ٦٥٤ هـ احترق المسجد من شعلة تركها موقد المصابيح فالتهمت ما حولها ، ثم امتدت إلى المسجد جميعه ولم يبق منه إلا قبة كانت بصحن المسجد أقامها الناصر لدين الله

---

(١) هيكل . فى منزل الوحى ص ٤٦٠

سنة ٥٧٦ هـ لتحفظ بها ذخائر المسجد وكان فيها وقت الحريق المصحف العثماني وأشياء أخرى ، وقد حاول أهل المدينة إطفاء هذا الحريق فغلبهم وكان أمر الله قدرا مقدورا . وكتب بذلك إلى الخليفة المعتصم وهو ببغداد فأرسل الآلاف مع الصناع من العراق ولم يبد رأيا فيما يصنعون . فقد كان منصرفا إلى صد التتار عن بغداد بعد أن استولوا على أعمالها ، لذلك اضطرب الصناع وأهل المدينة ، واختلفوا مايصنعون بالحجرة ، وهل يذرون بها ما سقط فيها أم يرفعونه جميعا حتى يبلغوا سطح الأرض إلى التراب الذى فوق القبر . وقد انتهوا إلى ترك ماسقط ولم يزيلوه مهابة لساكن الحجرة عليه السلام .

يقول السمهودى : إنه كان يرى [أن الواجب فى سلوك الأدب مع هذا النبي العظيم والقيام بما وجب على الأمة من تعظيمه وتعظيم قبره الشريف هو إزالة ذلك عنه وقه من حجرته الشريفة [1]] . فلما حضر العمارة الثانية للمسجد شاهد بين الجدارين فى الفضاء الذى خلف الحجرة أمراً مهولا من الهدم نحو القامة ، فعلم أن القوم لم يتركوه إلا لعلمهم بأن إزالته لا تتأتى إلا بانتهاك الحرم فتوقفوا عنه ومدوا سقفا فوقه على رءوس السوارى التى حول الحجرة .

انتشر الاضطراب فى سائر أنحاء الدولة الإسلامية واستولى عليها القلق ، فلم تبد أى منها فى عمارة المسجد رأيا ، وإن بعث أكثرها من مواد العمارة ما أرضى به هوى عقيدته .

---

(١) السمهودى : ج ١ ص ٤٣٠

وصلت الآلات من مصر بأمر المتولى عليها الملك المنصور نور الدين على ابن الملك المعز عز الدين أيبك الصالحى ، ووصلت الآلات والأخشاب كذلك من صاحب اليمن الملك المظفر شمس الدين يوسف ابن منصور ، وجعل أهل المدينة والعمال فيها يقومون من العمارة بما يستطيعون القيام به ولا يلبثون إذ يتقدمون فيها حتى تبلغهم الأنباء بقتل هذا أو هزيمة ذاك من ملوك المسلمين وامرائهم ، استولى التتار على بغداد وقتلوا المعتصم ، ثم عزل صاحب مصر وقام فيها مملوك ابن الملك المظفر سيف الدين قطز ، وقتل هذا فيما دون السنة من ولايته ، وكان لهذه الأحداث أثر واضح فى عمارة المسجد ، فكانت تتقدم حينا ، وتقف حينا . وتسير دائما على غير خطة مرسومة . فلما تولى الملك الظاهر بيبرس البندقدارى أمر مصر بعد ست سنوات من الحريق جهز الأخشاب والحديد والرصاص وجهز الصناع وما يعونهم وأرسلهم بذلك كله إلى المدينة وصار يمدهم بما يحتاجون إليه من الآلات والنفقات . ويشير المقريزى فى حوادث سنة ٦٢٢ هـ (١٢٦٤ م) إلى أن العمل انتهى فى شهر رمضان فى صناعة كسوة قبر النبى عليه الصلاة والسلام ، فعهد السلطان بيبرس إلى أحد رجاله ليسافر بها ومعه « الشمع والبخور والزيت والطيب »(١) . وجدد الملك الناصر محمد بن قلاوون سقف المسجد شرقى رحبته وغربيها ، وفى سنة ٧٢٩ هـ . زاد رواقين فى السقف القبلى مما يلى صحن المسجد

---

(١) المقريزى : السلوك ج ١ ص ٤٤٥

ثم حصل فيهما خلل فجددهما الأشرف برسباى سنة ٨٣١ هـ . وجدد الظاهر جقمق سنة ٨٥٣ هـ سقف الروضة وبعض سقف أخرى حصل فيها خلل ، وفى سنة ٨٧٩ هـ أجرى الملك الأشرف قايتباى عمارة هامة بالمسجد شملت بعض سقفه وعمده وجدره ومآذنه .

وفى ليلة الثالث عشر من رمضان سنة ٨٨٦ هـ . أبرقت السماء وأرعدت إرعادا شديدا وانقضت صاعقة على المئذنة فحطمتها وانتقلت إلى سقف المسجد فالتهمته وانتشرت بالمسجد جميعه فتهدمت جدره وتداعى أكثر أساطينه واحترقت المقصورة والمنبر والكتب والمصاحف ولم يسلم من ألسنة النار إلا الحجرة الشريفة والقبة التى بالصحن وسلمت فى الحريق الأول ، ولما بلغ الخبر الأشرف قايتباى وجه الأمير سنقر الجمالى إلى المدينة لعمارة المسجد ومعه ما يزيد عن مائة صانع والآلات اللازمة وشرعوا فى العمارة فبدأوا بالمئذنة فبنوها ثم بنوا الجدار القبلى والشرقى إلى باب جبريل وزادوا فى عرضه يسيرا ووسعوا المحراب العثمانى(١) وأقاموا عليه قبة على رءوس الأساطين التى حوله بعد أن دعموا كل اسطوانة بأخرى وربما دعموا الواحدة بأربع ، وأقاموا على جدر الحجرة النبوية قبة فوق السقف الذى كان عليها وجعلوا فوق القبة قبة أخرى أقيمت على الأساطين والدعائم التى أحدثوها فضيقت الجهة الشرقية فخرجوا بجدار المسجد مترين وربعا ، وأحدثوا اسطوانة فى رأس مثلث الحجرة وأقاموا قبة كبيرة

(١) مرآة الحرمين : ص ٤٤٥

تحيط بها ثلاث صغيرة بين الحجرة النبوية والجدار القبلي وقبتين أخريين أمام باب السلام من الداخل ، وبنوا هذا الباب بالرخام الأسود والأبيض وزخرفوه كما زخرفوا المحراب العثماني وأعادوا ترخيم الحجرة الشريفة وما حولها والجدار القبلي وصنعوا منبرا واتخذوا « دكة » للمؤذنين من الرخام وخفضوا أرض مقدم المسجد حتى ساوت أرض المصلى النبوي . واتخذوا محرابا مجوفا للرسول صلى الله عليه وسلم في دعامة أقاموها بين المنبر والقبر على حد مسجده الأصلي وزخرفوا هذا المحراب بالرخام الملون وجعلوا المقصورة في محلها الأول ، وبنوا الجدار الغربي من باب الرحمة إلى باب السلام ، وبنوا مئذنة باب الرحمة وجعلوا الأعمدة قصيرة فوقها عقود من الآجر عليها السقف من الخشب . وقد بلغ ما أنفقه قايتباى على هذه العمارة نحو ستين ألفا من الجنيهات ، فكم يعادل هذا المبلغ من نقدنا في الزمن الحاضر ! ؟

كانت مصر في الفترة التي انقضت بين حريق المسجد في القرن السابع إلى حريقه بالصاعقة في القرن التاسع هي القائمة بأمر عمارته ، فلما انتقلت الخلافة إلى آل عثمان بالآستانة ودخلت بلاد العرب كما دخلت مصر في سلطانهم خلفوا ملوك مصر في القيام على المسجد وعمارته . ففي سنة ثمانين وتسعمائة من الهجرة عمره السلطان سليم الثاني وشيد به محراباً جميلا هو القبلة القائمة اليوم غرب المنبر النبوي . وقد وشى هذا المحراب بالفسيفساء المنقوشة بماء الذهب ، وكتب اسم السلطان سليم على ظاهره بخط الثلث الجميل . وفي سنة ١٢٣٢ بنى

السلطان محمود القبة ثم أمر بترميمها فى سنة ١٢٥٥ فرممت ودهنت باللون الأخضر . على أن العمارة الكبرى التى قام بها سلاطين آل عثمان هى عمارة السلطان عبد المجيد . فقد كتب إليه شيخ المسجد داود باشا بأن المسجد قد انقضى على عمارته أربعة قرون لم تحدث به أثناءها عمارة هامة حتى آل كثير منه إلى التخريب . فارسل السلطان من قبله من فحص المسجد وعرف حقيقة حاله ، ثم أمر بهدمه وعمارته . وتم ذلك بأن جعل المهندسون يهدمون جزءاً من المسجد ويقيمون مكانه مايحل محله ، ثم يهدمون جزءاً غيره ويعيدون تشييده . حتى أتموا عمارة المسجد كله فيما بين سنة ٢٢٦٥ وسنة ١٢٧٧ هـ . وقد تناولت هذه العمارة المسجد كله خلا المقصورة وما فيها وبعض الجدر المتينة البناء القوية الأساس . ولم ينقض محراب عثمان لإتقانه وحسن صنعه . أما العمد القديمة فأبدل منها غيرها ، وأكثرها من قطعة واحدة ، وأقيمت عليها عقود من الحجر الأحمر المنحوت شيدت فوقه قباب جعلت فيها نوافذ يهبط النور خلال زجاجها الملون المحاط بشبك النحاس . وأعيد بناء باب السلام بناء غاية فى الفخامة والروعة ، وجعلت أمامه من الداخل قبة عظيمة . أما الجدار الشمالى المسجد فزيد فيه ما كفى لبناء مخازن ومكاتب . وبنيت خارجه أحواض للوضوء بها صنابير . وشيدت المئذنة المجيدية على طراز بالغ الروعة والإبداع . وعلى الجملة بزت هذه العمارة كل ماسبقها حتى بلغت نفقاتها ثلاثة أرباع المليون من الجنيهات المجيدية .

ومن أفضل الآثار التي سجلتها هذه العمارة وحافظت عليها ما كتب على جدران المسجد من سورة الفتح وقصيدة البردة وأسماء الله الحسنى وأسماء الرسول عليه السلام .

الحجرة النبوية :

كانت هذه الحجرة في بيت عائشة أم المؤمنين . فلما مرض الرسول انتقل إليها ومرضه أزواجه فيها اختار الرفيق الأعلى . وكانت هذه الحجرة كالبيت كله من جريد مستور بمسوح الشعر ، أو كان البيت في قول من اللبن له حجر من جريد . فلما توفي الرسول ودفن حيث قبض حفروا له في هذه الغرفة مكان السرير الذي كان يمرض عليه . ودفنوه بعد أن ودع المسلمون جثمانه ، ودفن أبو بكر بعد سنتين وثلاثة أشهر من موت الرسول ، والحجرة على حالها لم يغير فيها شيء ، وبعد عشر سنين من موت أبي بكر دفن عمر بن الخطاب بالحجرة وهي على حالها لم يزد عليها إلا جدار أقامه عمر بينها وبين سائر الدار التي كانت عائشة تقيم بها . ذكروا أن ابن الخطاب أرسل إلى عائشة لما طعنه غلام المغيرة يسألها أن يدفن مع صاحبيه . فقالت : كنت أريده لنفسي ، لأوثرنه اليوم به ، وأوصت أن تدفن مع صواحبها بالبقيع .

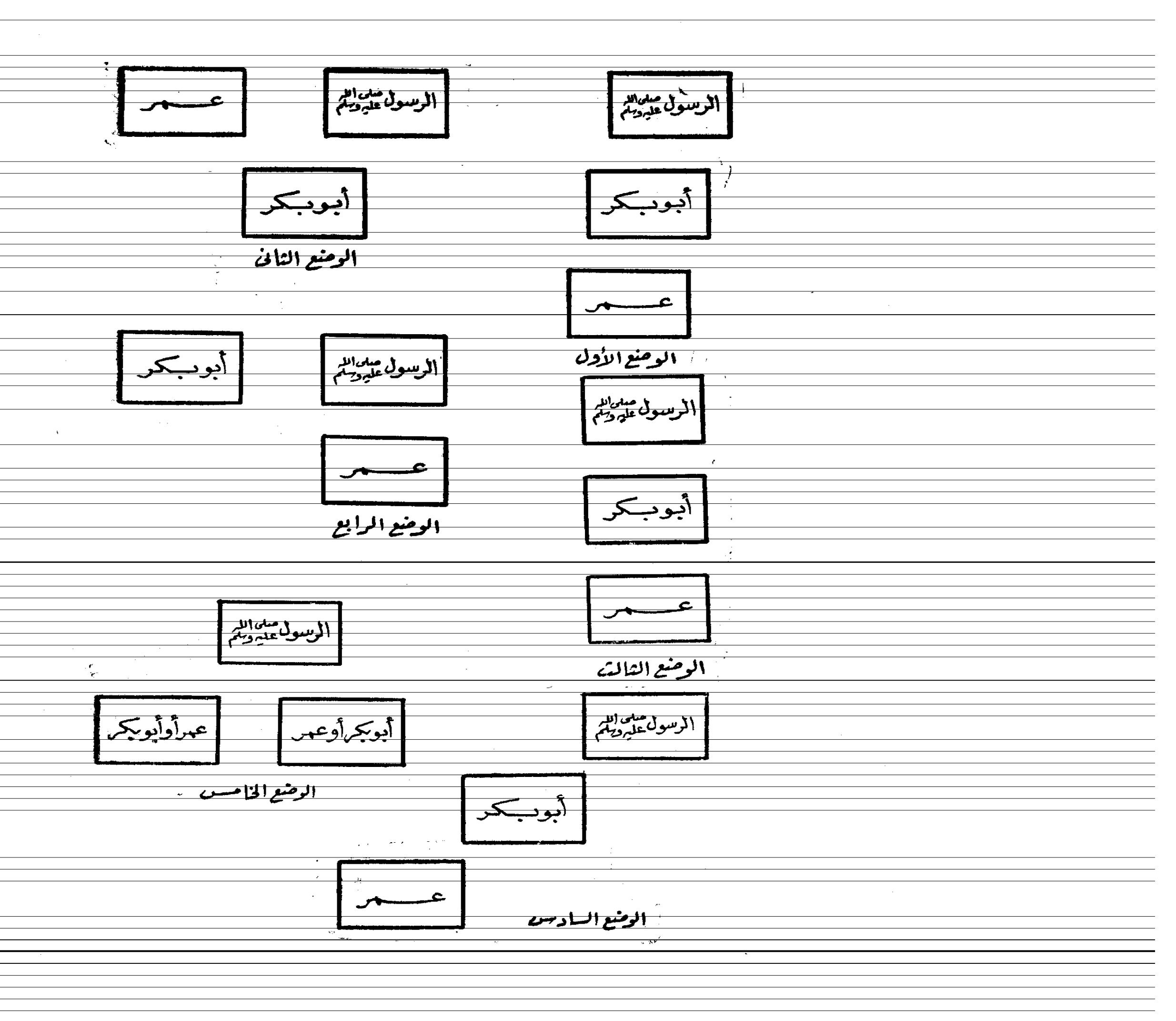
وبقيت حجرة القبر على بساطتها إلى أن أمر الوليد بن عبد الملك عمر بن عبد العزيز واليه على المدينة أن يزيد في المسجد وأن يضم حجرات أزواج النبي إليه . وكل ما قيل أنه حدث قبل ذلك أن وضعت على القبور الثلاثة حجارة مسنمة وكانت في العهد الأول مسواة

بالأرض . وانقض جدار من الحجرة حين أمر عمر بن عبد العزيز بندائها ، فانكشف أحد القبور عن ساق وركبة فتولى عمر الفزع أن أن تكون ساق الرسول وركبته . فلما تبين أنها ساق عمر وركبته . زايله الفزع ، وأمر مولاه مزاحم فقام فسترها وسوى التراب عليها(١) وبعد ذلك أقيمت الحجرة الفخمة .

وقد اختلف على موضع المدفونين بالحجرة . بعضهم من بعض ، وروى السمهودى سبع روايات اعتمد فى كل واحدة منها على رواية لها مبلغ من القوة أو الضعف . ونقل السمهودى ما صورت به هذه المواضع فى مختلف الروايات على النحو التالى : (أنظر صفحة ١٤٠)

هذه هى الأوضاع التى ذكرها السمهودى ، وهى سبع يمكن أن ترد إلى ست . على أن الوضع الأول منها هو المأثور . والرواية أن رأس الرسول وضعت إلى ناحية الغرب . وأن رأس أبى بكر وضعت إزاء منكبى الرسول ، وأن رأس عمر وضعت إزاء منكبى أبى بكر . وهذا الخلاف على وضع أبى بكر وعمر من الرسول يقع مثله على بناء الحجرة حين شادها عمر بن عبد العزيز فقد ذكروا أنه بناها مخمسة ولم يبنها مربعة خشية أن يتخذها المسلمون قبلة يتوجهون إليها فى صلواتهم . أما السمهودى فيقول : إنه رآها (٢) حين عمارة المسجد فى عصره ، أى فى القرن التاسع الهجرى ، وأنه ألفاها

(١) السمهودى : ج ١ ص ٣٨٨
(٢) السمهودى : ج ١ ص ٤٠١



الرسول صلى الله عليه وسلم
أبوبكر
عمر
الوضع الأول
عمر
الرسول صلى الله عليه وسلم
أبوبكر
الوضع الثاني
الرسول صلى الله عليه وسلم
أبوبكر
عمر
الوضع الثالث
أبوبكر
الرسول صلى الله عليه وسلم
عمر
الوضع الرابع
الرسول صلى الله عليه وسلم
عمرأوأبوبكر
أبوبكرأوعمر
الوضع الخامس
الرسول صلى الله عليه وسلم
أبوبكر
عمر
الوضع السادس

مربعة ، وأن تخميسها كان بعد ذلك . وقبر الرسول معلم اليوم بمسمار من الفضة موضوع فى الجدار القبلى من الخارج . والمأثور أنه قبالة الرأس . وقد وضع هذا المسمار فى عهد متأخر . ولكنه يشير إلى موضع الرأس لا ريب ، فالمسلمون قد حرصوا على الدقة فى تحديد قبر الرسول وإن لم يحرصوا مثلها فى تحديد قبرى صاحبيه[١] .

تجدد بناء الحجرة الشريفة بعد ذلك غير مرة ، ولقد أشرنا إلى شىء من ذلك حين الحديث عن المسجد النبوى وتجديد بنائه على أثر الحريق الذى أصابه فى القرن السابع وامتد إلى الحجرة كما امتد إلى المسجد كله ، وعلى أثر الصاعقة التى نزلت به فى أواخر القرن التاسع الهجرى . ولقد عدل بناء الحجرة أثناء ذلك فخمست بعد أن كانت مربعة وزيد عليها مالم يكن منها حين بناها عمر بن عبد العزيز . يقول السمهودى فى حديثه عن عمارة القرن التاسع :

[إن متولى العمارة ومن كان معه أخبرونى أنهم وجدوا عند نقض جدار البيت الشامى — أى الشمالى — من داخله رأس جدار فى محاذاة الاسطوانة المذكورة يشهد الحال أنه كان آخذاً من الشامى إلى مايحاذيه من القبلى فكأنه كان نهاية الحجرة الشريفة من جهة المشرق وكأنه لما انهدم زيد فيها ذلك القدر . قالوا ولا يخفى على الناظر أن بقية الجدار الشامى مما يلى المشرق لم يبن مع الجانب الآخر منه بل هى ملصقة إلى رأس الجدار المذكور بحيث لم يدخل أحجار أحدها فى الآخر ولا

---

(١) هيكل : فى منزل الوحى ص ٥٥٠

هى مرتبطة كما هى عادة البناء الواحد . ورأيت أنا ما يقابل هذا الجانب من الجدار القبلى مما يلى للشرق فرأيت ما يشهد بأحداث بنائه بحيث أنه مبنى بالحجارة غير الوجوه كنسبة الجدار الشرقى بخلاف بقية جدران الحجرة الشريفة فإنها كلها من داخلها وخارجها مبنية بالحجارة المنحوتة وإنما لم أشاهد ما قدمته مما حكى لى فى أمر الجدار الشامى لأنى اجتنبت حضور الهدم احتياطاً لنفسى(١)] .

ويروى السمهودى فى فصل كتبه بعنوان [فيما تجدد من عمارة الحجرة الشريفة فى زماننا على وجه لم يخطر قط بأذهاننا ، وما حصل بسببه من إزالة هدم الحريق الأول من ذلك المحل الشريف ومشاهدة وضعه المنيف وتصوير ما استقر عليه أمر الحجرة فى هذه العمارة] — يروى صورة ماحدث فى عهده حين جاء شاهين الجمالى إلى المدينة منصرفاً من جدة فأراه وجوهها ماتكسر من أخشاب المسجد ، وأروه مافى الحجرة من تصدع قديم فى جدارها الشمالى . رأى معه إصلاح عمدها وإعادة بنائها . وقد اختلف يومئذ فى ضرورة ذلك ورأى كثيرون الخير فى عدم التعرض له مادامت الحاجة لا تدعو إليه . بيد أن شاهينا وزير سلطان مصر الأشرف قايتباى ، كان له ولع شديد بإصلاح الحرمين ، لذلك كان دائباً على تعمير مايرى الخير تعميره منهما . فلما استقر الرأى على تعمير المسجد والحجرة بدءوا بإزالة ما كان من تراب الهدم الذى سقط بها حين الحريق الذى وقع فى القرن السابع .

---

(١) ج ١ ص ٤٠١ – ٤٠٢ .

يقول السمهودي :

بعث إلى متولى العمارة لأتبرك بمشاهدة الحجرة الشريفة بعد تنظيفها وصار قائل يقول ظهر القبر الشريف . وقائل يقول : لم يجدوا لجميع القبور الشريفة أثراً . فثنى داعي الشوق وغلبة الوجد واستحضرت ماوقع لبعض السلف من سؤاله لعائشة رضي الله عنها أن تريه القبور الشريفة . . فعزمت على الإقدام وتمثلت بقول بعضهم :

ولو قيل للمجنون أرض أصابها
غبار ثرى ليلى لجد وأسرعا
لعل يرى شيئاً له نسبة بها
يعلل قلباً كاد أن يتصدعا

فتطهرت وتوجهت لذلك مستحضراً عظيم ما توجهت إليه وموقع للنول ببيت أوسع الخلق كرماً وعفواً وذلك هو المعول عليه واستحضرت قول بعضهم :

عصيت فقل لى كيف ألقى محمداً
ووجهى بأثواب المعاصى مبرقع

ثم أنشدت الذى يليه :

عسى الله من أجل الحبيب وقربه
يداركنى بالعفو فالعفو أوسع

وسألت الله أن يمنحنى حسن الأدب فى ذلك المحل العظيم ويلهمنى مايستحقه من الإجلال والتعظيم وأن يرزقنى منه القبول والرضى

والتجاوز عما سلف ومضى . فاستاذنت ودخلت فى مؤخرة الحجرة ولم أتجاوز ذلك المحل فشممت رائحة ما شممت فى عمرى رائحة أطيب منها ثم سلمت بوجل وحياء على أشرف الأنبياء ثم على ضجيعه خلاصة الأصفياء ودعوت بما يتيسر من الدعوات وتشفعت بسيد أهل الأرض والسموات واستنزلت به فى بيته من الأزمات واغتنمت هذه الفرصة فى جميع الحالات ولله در القائل :

تمتع إن ظفرت بنيل قرب — وحصل ما استطعت من ادخار
فقد وسعت أبواب التدانى — وقد قربت للزوار دارى
وقد هبت نسيمات لنجد — فطب واشرب بكاسات كبار
فما وقت يمر بمستعاد — وما دار الأعزة بالقرار
فودع أرض نجد قبل بعد — فما نجد لمرتحل بدار
أقول لمن يمر بأرض نجد — ويظفر من رباها بالديار
تزود من شميم عرار نجد — فما بعد العشية من عرار
وقل أيضاً لمغتنم صفاء — على معنى يلوح لذى اعتبار
إذا العشرون من شعبان ولت — فواصل شرب ليلك بالنهار
ولا تشرب بأقداح صغار — فإن الوقت ضاق على الصغار

فلما قضيت من ذلك الوطن متعت عينى من تلك الساحة بالنظر لا تحف بوصفها المشتاقين وانشر من طيب أخبارها فى المحبين فتأملت الحجرة الشريفة فإذا هى أرض مستوية ، وتناولت من ترابها بيدى فإذا فيه نداوة وحصباء . . ولم أجد للقبور الشريفة أثراً

غير أن باوسط الحجرة موضعاً فيه ارتفاع يسير جداً توهموا أنه القبر النبوى الشريف ، فأخذوا من ترابه للتبرك فيما زعموا . ومنشأ ذلك الوهم جهل من كان هناك بأخبار الحجرة الشريفة . وذلك المحل ليس هو القبر النبوى قطعاً ، ولعله قبر عمر رضى الله عنه .. لأن قبر رسول الله صلى الله عليه وسلم كان قريباً من الجدار وكان اللحد تحت الجدار (١) .

وكان مهرة الصناع قد نقضوا قبل تنظيف المكان ما رأوا حاجة لنقضه من العمد ، ثم أعادوها بعد صب الرصاص فيها وجعلوها قوية متينة وبعد التنظيف أقاموا بناء الحجرة حول مربعها الذى كان عمر ابن عبد العزيز أقامه ، وجعلوا عليها قبة مكان القبة التى سبقتها والتى لم تقاوم عمل الزمن لأنها كانت من خشب. أما فى هذه العمارة فقد بنيت من الحجر الأسود وكملت من الحجر الأبيض .

وبعد زمن من تمام بناء الحجرة سقطت الصاعقة التى ذكرنا نبأها حين تحدثنا عن المسجد النبوى على مئذنته الرئيسية فامتد الحريق إلى المسجد كله . أما الحجرة فلم تحترق. بيد أن هذا الحريق قد ترك أثراً فى القبة إذ تشققت أعاليها . وقد أعيد بناؤها بناء محكما بعد أن أخذ لها الجبس الأبيض من مصر ، وقد تم ذلك فى سنة ٨٩٢ هـ . وكتب على طرازها من الناحية الغربية « أنشأ هذه القبة الشريفة العالية المعترف

---

(١) السمهودى : جـ ١ صفحة ٤٤٨

بالتقصير ، الراجى عفو ربه القدير ، قايتباى » وبقيت القبة من ذلك العهد إلى أن جددها السلطان محمود بعد أن هدم أعاليها فى سنة ١٢٣٣، وهو الذى أمر بصبغها باللون الأخضر وكان لونها من قبل أزرق لون الرصاص الذى عليها ثم صارت تصبغ باللون نفسه كلما خف سابقه من تأثير الشمس .

ويروى السمهودى أن الملك العادل نور الدين محمود بن زنكى - ٥٥٧ — كان له تهجد يأتى به بالليل وأوراد يأتى بها فنام عقب تهجده فرأى النبى صلى الله عليه وسلم فى نومه وهو يشير إلى رجلين أشقرين ويقول : انجدنى ! انقذنى ! من هذين . فاستيقظ فزعا ثم توضأ وصلى ونام فرأى للنام بعينه فاستيقظ وصلى ونام فرآه أيضاً مرة ثالثة فاستيقظ وقال: لم يبق نوم وكان له وزير من الصالحين يقال له جمال الدين الموصلى فأرسل خلفه ليلا وحكى له جميع ما اتفق له فقال له : وما قعودك اخرج الآن إلى المدينة المنورة النبوية واكتم ما رأيت .

فتجهز فى بقية ليلته وخرج على رواحل خفيفة فى عشرين نفراً وصحبته الوزير ومال كثير ، فقدم المدينة فى ستة عشر يوما . فاغتسل خارجها ودخل فصلى بالروضة وزار ثم جلس لا يدرى ماذا يصنع . فقال الوزير وقد اجتمع أهل المدينة فى المسجد : ان السلطان قصد زيارة النبى صلى الله عليه وسلم ، وأحضر أموالا للصدقة ، فاكتبوا من عندكم فكتبوا أهل المدينة كلهم وأمر السلطان بحضورهم وكل من حضر ليأخذ يتأمله ليجد فيه الصفة التى أراها النبى صلى الله عليه وسلم فلا يجد تلك الصفة فيعطيه ويأمره بالإنصراف إلى أن انفضت الناس . فقال

السلطان : هل بقي أحد لم يأخذ شيئاً من الصدقة ؟ قالوا : لا . قال : تفكروا وتأملوا . فقالوا : لم يبق أحد إلا رجلين مغربيين لا يتناولان من أحد شيئاً وهما صالحان غنيان يكثران الصدقة على المحاويج . فانشرح صدره وقال : على بهما ، فأتى بهما فرآهما الرجلين اللذين أشار النبي صلى الله عليه وسلم إليهما بقوله أنجدني . أنقذني من هذين . فقال لهما : من أنتما ؟ فقالا من بلاد المغرب . جئنا حاجين فاخترنا المجاورة في هذا العام عند رسول الله صلى الله عليه وسلم . فقال : أصدقاني . فصمما على ذلك ، فقال : أين منزلهما ؟ فأخبر بأنهما في رباط بقرب الحجرة الشريفة فأمسكهما وحضر إلى منزلهما فرأى فيه مالا كثيراً وختمتين وكتباً في الرقائق ولم ير فيه شيئاً غير ذلك . فأثنى عليهما أهل المدينة بخير كثير . وقالوا : إنهما صائمان الدهر ملازمان الصلوات في الروضة الشريفة وزيارة النبي صلى الله وسلم وزيارة البقيع كل يوم بكرة وزيارة قباء كل سبت ولا يردان سائلا قط بحيث سدا خلة أهل المدينة في هذا العام الجدب . فقال السلطان : سبحان الله. ولم يظهر شيئا مما رآه . وبقي السلطان يطوف في البيت بنفسه فرفع حصيراً في البيت فرأى سرداباً محفوراً ينتهي إلى صوب الحجرة الشريفة فارتاعت الناس لذلك ، وقال السلطان عند ذلك : أصدقاني حالكما . وضربهما ضربا شديداً فاعترفا بأنهما نصرانيان بعثهما الصليبيون في زي حجاج المغاربة وأمالوهما بأموال عظيمة وأمروهما بالتحيل لسرقة جثة الرسول . فأمر نور الدين بضرب رقابهما ، ثم أمر بحفر خندق عظيم حول الحجرة من كل جوانبها حتى بلغ الحفر الماء ، وأمر بإذابة رصاص

ملأ به الخندق ، فصار منه حول الحجرة سور متين لا يستطيع أحد اجتيازه[1] .

ويقول لبيب البتنونى[2] فى سنة ٥٥٧ بلغ نور الدين زنكى أن الصليبيين الذين كان مشتغلا بمحاربتهم كانوا يعملون لسرقة الجثة الشريفة ، فأمر بإحاطة الحجرة الشريفة ببناء آخر ، نزل بأساسه إلى منابع الماء ، ثم صب الرصاص على دائره حتى صار بحيث لا يمكن أن تتناوله يد الزمان . وقد وضع على هذا البناء ستراً من الحرير الأخضر مكتوب فيه [لا إله إلا الله محمد رسول الله] . يحيط بها أحجبة مكتوب فيها قوله تعالى : [ما كان محمد أبا أحد من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبيين] وفيما بين ذلك دوائر مكتوب فيها أسماء النبي صلى الله عليه وسلم ، ويحيط بهذا الستر (على إرتفاع مترين ونصف تقريباً) حزام من الحرير الأحمر عرضه نحو ثلاثين سنتيمتراً مكتوب فيه بقصب الذهب إسم السلطان الذى أمر بعمل الستر الشريف .

وأول من كسا الحجرة الشريفة الخيزران أم هرون الرشيد ، عندما قدمت فى حجها لزيارة الرسول صلى الله عليه وسلم . ثم كساها إبن أبى الهيجاء وزير ملك مصر الديباج الأبيض عليه الطرز والجامات المرقومة ، وجعل عليها زناراً من الحرير الأحمر كتبت عليه سورة يس . وأرسل المستضىء بعد سنتين من ذلك كسوة من الديباج البنفسجى مطرزاً عليها إسمه ووضعت مكان كسوة أبى الهيجاء .

(١) السمهودى : جزء ١ صفحة ٤٦٧ - ٤٦٨

(٢) محمد لبيب البتنونى . الرحلة الحجازية ص ٢٤٧ .

وكساها الخليفة الناصر بالديباج الأسود، ثم صارت كسوة الحجرة ترسل من مصر كل ست سنوات، كما كانت ترسل منها كسوة الكعبة كل عام. وكانت هذه الكسوة من الديباج الأسود المرقوم بالحرير الأبيض وعليها طراز منسوج بالذهب والفضة. فلما استقرت الخلافة فى بنى عثمان بالأستانة صارت كسوة الحجرة ترسل منها كلما جلس سلطان على العرش، وبقيت كسوة الكعبة ترسل من مصر كل عام. فلما إنتقضت بلاد العرب على سلطان الأتراك، ثم لما زالت الخلافة بعد ذلك، تولت حكومة البلاد الإسلامية المقدسة أمر هذه الكسوة. وقد جرى التقليد من زمان بعيد كلما وردت كسوة جديدة أن تقسم القديمة، شأنها فى ذلك شأن كسوة الكعبة(١).

ظلت الحجرة وليس بها من الزينة إلا دفن الرسول وصاحبيه بها إلى أن ضمت للمسجد فى سنة ٨٨ هـ، ثم بقيت وليس بها إلا هذه الزينة ومن حولها زخرف البناء الجميل بعد أن ضمت المسجد وبناها عمر بن عبد العزيز بالحجارة السود المتينة زمناً طويلا. بعد ذلك ألف الناس أن يشاهدوا قناديل الذهب والفضة المعلقة حول الحجرة. وفى ذلك يقول السمهودى:

لم أر فى كلام أحد ذكر إبتداء حدوث ذلك إلا أن إبن النجار قال ما لفظه: « وفى سقف المسجد الذى بين القبلة والحجرة على رأس الزوار إذا وقفوا معلق نيف وأربعون قنديلا كباراً وصغاراً

---

(١) فى منزل الوحى ص ٥٥٦

من الفضة المنقوشة والسادة وفيها إثنان بلور وواحد ذهب وفيها قر من فضة مغموس فى الذهب وهذه تنفذ من البلدان من الملوك وأرباب الحشمة والأموال(١) »] وقد بقيت القناديل ومعاليقها ترسل إلى الحجرة أجيالا متعاقبة حتى بلغ من كثرتها أن رفع خدم المسجد بعضها ووضعوه بالقبة التى فى صحن المسجد حتى إجتمع فيها منه شيء كثير.

وظل الأمر كذلك إلى أن كان القرن التاسع الهجرى إذ كان جماز إبن هبة أمير المدينة عام ٨١١ هجرية ، فى هذا الحين صدرت المراسيم بتولية ثابت بن نعير امرة المدينة وأن يكون أمر الحجاز لحسن ابن عجلان . ومات ثابت قبل توليته وشعر جماز بأن الأمر يفلت من يده فاعلن العصيان ، وأباح نهب بعض بيوت المدينة ، وأهان شيخ خدام الحرم ورفع عليه وعلى من معه السيف ، وكسر باب القبة وأخذ جميع ما فيها من قناديل الذهب والفضة التى اجتمعت على تعاقب السنين من جميع الآفاق وفر بها ثم أخفاها وقتل . وقد وضع بعض علماء ذلك العصر قائمة بما نهبه جماز جاء فيها أن وزن ما كان بالحجرة من قناطير الذهب تسعة قناطير ، ومن القناديل الفضة ثلاثة وعشرون قنطاراً(٢) . وقد شجع جماز هذا غيره من المعتدين ، فأخذ الأمير غرير بن هيازع بن هبه الحسينى الجمازى جانباً مما وضع بالقبة زنته سبعة عشر ومائة رطل من الفضة وزعم أنه على سبيل القرض ثم فر به الى القاهرة حيث مات مسجونا .

---

(١) السمهودى : ج ١ ص ٤١٧
(٢) السمهودى: ج ١ ص ٤١٩

وفى آخر سنة ستين وثمانمائة عدا عليها برغوث بن يتير بن جريس الحسينى إذ تسور جدار المسجد ودخل بين سقفيه ونهب منه ما استطاع فى ليال متكررة .

على أن ما حدث من ذلك لم يصرف المسلمين عن إرسال الهدايا من الذهب والفضة من جميع أقطار العالم الإسلامى .

ولما آل الأمر إلى بنى عثمان زادت هذه الهدايا قيمة يقول لبيب البتنونى فى « الرحلة الحجازية[1] » .

[وفى مقابلة الوجه الشريف على جدار المقصورة حجر من الماس البرلانتى فى حجم بيضة الحمام الصغيرة ، يحيط به إطار من الذهب المرصع . ويقدرون ثمنه فى ذاته بثمانمائة ألف جنيه ، أما فى شرف نسبته إلى الحجرة الشريفة فقيمته أكبر من أن تقدر بثمن ، ويسمونه بالكوكب الدرى لشدة تألقه وعظيم سنائه وبهائه . وهو مثبت فى لوحة من الذهب ورصع محيطه بمائتين وسبع وعشرين قطعة كبيرة من الجواهر الثمينة . وهذا الكوكب أهداه للحجرة الشريفة السلطان أحمد خان الأول ابن السلطان محمد خان من سلاطين آل عثمان فى مبادىء القرن الحادى عشر الهجرى ، وقد علق تحته كف من الذهب المرصع بالجوهر ، وفى وسطه حجر من الماس أصغر من الكوكب الدرى ، أهداه إليها السلطان مراد الرابع ابن السلطان أحمد الأول فى سنة سبع وأربعين وألف للهجرة . وهناك لوح كبير من الذهب

(١) ص ٢٤٨ – ٢٤٩

منقوش فيه بخط جميل جداً بحجارة من الماس البرلانتى « لا إله إلا الله محمد رسول الله » أهدته إليها صاحبة السمو والعصمة عادلة سلطان بنت السلطان محمود سنة ألف ومائتين وإحدى وتسعين هجرية .

وفى هذه الحجرة الشريفة غير هذا ، كثير من الجواهر الفاخرة التى لا تقدر بثمن : منها قطعة كبيرة على مثل الكردان مكتوب فيها بالماس اسم السيدة فاطمة الزهراء وهى موضوعة على مقصورتها الداخلية فى الجانب الشرقى ، وإلى جوارها عقد من اللؤلؤ الكبير الحجم ، لا يماثله شىء فى عظمته وجوهره ، وعقود أخرى من المرجان النادر المثال . ويوجد فيها شمعدانات من الذهب الخالص المرصع بالجواهر الكريمة ، منها اثنان كبيران طول الواحد منهما نحو مترين ، أهداهما إليها السلطان عبد المجيد خان فى سنة أربع وسبعين ومائتين وألف ، وشمعدانان آخران أهداهما السلطان محمود ، وإلى جانب هذه الشمعدانات مكانس من اللؤلؤ ، ومراوح مرصعة بالأحجار الكريمة ومساقى ومباخر مرصعة ، وهذا عدا ما يوجد فى خزائن الحجرة الشريفة من المصاحف المجوهرة والتحف الفاخرة ، وكثير من الأحجار الكريمة والجواهر الثمينة التى لم تكن مشغولة ، وغير ذلك من الأساور والأقراط وخلافها . وبالجملة فقد قدر ثمن ما بالحجرة الشريفة من الذخائر بسبعة ملايين من الجنيهات] .

لم تبق هذه النفائس اليوم بالحجرة . وليس يرجع ذلك إلى ما أخذه الوهابيون منها فى غزوتهم الأولى للحجاز فى أوائل القرن التاسع عشر الميلادى . فقد رد محمد على والى مصر الشىء الكثير مما

أخذوا ، وبقيت هذه النفائس التى ذكرها البتانونى ، والتى رآها فى أول العقد الثانى للقرن العشرين . فلما كانت الحرب العالميـة الأولى وثار العرب على سلطان آل عثمان نقل الأتراك الكوكب الدرى وقطعة الماس التى كانت معلقة تحته وأنفس نفائس الحجرة إلى الاستانة ولم ترد إلى الآن(١) .

الروضة النبوية :

الروضة النبوية فى غرب المقصورة الشريفة ، وهى مسافة ما بين القبر الشريف ومنبر الرسول لقوله عليه الصلاة والسلام : « ما بين قبرى ومنبرى روضة من رياض الجنة » وهى تبلغ ٢٢ متراً طولا فى نحو ١٥ عرضا . ويفصل الروضة عن زيادتى عمر وعثمان اللتين فى جنوبها ، درابزين من النحاس الأصفر ارتفاعه نحو متر . وفيها مما يلى هذا الدرابزين ربعات قرآنية كثيرة ، وعدد كبير من المصاحف المختلفة الحجم ، منها ما هو بحرف الطبع ومنها ما هو بخط اليد الجميل ، وإلى جانبها نسخ كثيرة من دلائل الخيرات ، وكل ذلك موقوف عليها للقارئين من الزوار .

وفى غرب الروضة الشريفة قبلته صلى الله عليه وسلم ، وهى آية من آيات الله فى كمال بهجتها ، وجمال صنعتها ، وهى على استقامة المقصورة الشريفة من جهة القبلة . وضعها عليه الصلاة والسلام يوم الثلاثاء الموافق نصف شعبان من السنة الثانية للهجرة عندما أمره الله

(١) فى منزل الوحى . ص ٥٥٩

تعالى بالصلاة إلى الكعبة المكرمة . وإلى غرب القبلة للنبر الشريف . وهو من الرخام المنقوش باللبقة الذهبية الفاخرة وعلى غاية من الجمال ودقة الصناعة ، أرسل هدية من السلطان مراد الثالث العثمانى إلى الحرم سنة ثمان وتسعين وتسعمائة للهجرة ، فوضع فى مكان المنبر الذى كان به لقايتباى ، وهو نفس المكان الذى كان به منبر الرسول صلى الله عليه وسلم (١) .

ويذكر إبراهيم رفعت فى كتابه « مرآة الحرمين (٢) » ما فى الروضة النبوية من الأعمدة الجميلة المفرغة ويخص بالذكر نجفتين على أطرافهما تنانير يوقد فيها الشمع أهداها إلى المسجد النبوى عباس باشا الأول ، والكبيرة منها معلقة فى السقف القبلى مما يلى الروضة ، كما يذكر أن عباسا هذا أهدى إلى المسجد أربع شجرات على أعمدة من البلور مفرغات بأغصان مائلة عليها تنانير صافية وضعت بالروضة المطهرة وما يليها من الغرب فى صف واحد من الأساطين .

ويصف عبد القدوس الأنصارى فى « آثار المدينة المنورة » اثنتين من هذه الشجيرات الأربع فيقول :

[وبجانبى المحراب نخلتان صفر ، منبتتان فى الأرض ، ولكل جذر وجذع وساق وغصون ، وهما مثمرتان وذواتا أكام ، ولكن ثمرهما قطع البلور الصافى ، وأكامهما المصابيح الزجاجية الملونة] .

وتحدث عن بعض ما فى الروضة فذكر المحراب النبوى ، وأنه فى

---

(١) الرحلة الحجازية ص ٢٤٠

(٢) ص ٤٥١

شرقى المنبر « تزينه الآيات المرقومة بماء الذهب، وقطع ملونة من الرخام وناهيك بجمال العمودين بجوانبه ، فهما من الرخام الأحمر ذى اللون الأثمدى . وفى الجانب الغربى من المحراب مكتوب : (هـذا مصلى رسول الله صلى الله عليه وسلم) . وشكل بناية هذا المحراب ينبىء على أنه قرين المحراب السليمانى فى تاريخ العمارة » والمحراب السليمانى يقع فى غربى المنبر ، وبظهره كتابة تفيد أنه بنى سنة ٩٣٨ هـ وأن بانيه السلطان سليمان . أما المنبر فيقع بين المحرابين ، « وبه اثنتا عشرة درجة ، ثلاث بخارجه وتسع بالداخل ، مصنوع من المرمر . وظاهره مغمور بالتذهب وبالنقوش الفائقة ، وفوقه قبة لطيفة قائمة على أربعة أعمدة من المرمر ، وفوق بابه شرفات آية من الإبداع . وأن لماء الذهب لبريقا حتى لكأن الصانع فرغ من صنعه بالأمس، وتاريخ عمارته وإرساله من قبل السلطان مراد هو سنة ٩٩٨ هـ . كما تنطق به الأبيات المنقوشة على بابه ، وأمام المنبر مقصورة المبلغين وتسمى المكبرية ، وبينها وبينه إلى الشمال نحو خمسة أمتار ومنها يقيم المبلغون الصلوات ، وهى عبارة عن مربع رخامى قائم على ثمانية أعمدة رشيقة ، ستة منها محلاة بصبغ أحمر عقيقى اللون ، واثنان أبيضان » .

سقت هذه الأوصاف لما فى الروضة النبوية اكتفاء بها عن الوقوف أمام كل أثاث فيها أو زخرف . فهذا الوقوف يتطلب ممن أراد الإحاطة بجمال الفن ودقة تفاصيله ساعات طويلة وعلما غزيراً بفنون شتى . ما لم يكن ممن يشبع غلتهم إبداء الإعجاب بهذا الجمال النادر المثال . .

لقد كانت دعوة الرسول الكريم تستهدف تحرير الإنسان ، من

كل ما يعوق تقدمه ، ونادى فى الناس بكلمات ربه : « إن أكرمكم عند الله أتقاكم » : وكان عليه الصلاة والسلام أسوة حسنة . قال أبو هريرة رضى الله عنه :

[دخلت السوق مع النبى صلى الله عليه وسلم فاشترى سراويل ، وقال للوزان : زن وأرجح . . فوثب الوزان إلى يد رسول الله صلى الله عليه وسلم يقبلها ، فجذب يده وقال : هـذا تفعله الأعاجم بملوكها ، ولست بملك ، إنما أنا رجل منـكم ، ثم أخذ السراويل فذهبت لأحملها فقال : صاحب الشىء أحق بشيئه أن يحمله] .

وفى صحيح مسلم : ماشبع آل محمد يومين من خبز البر إلا وأحدهما تمر.

عن عائشة رضى الله عنها قالت :

— « كان فراش رسول الله صلى الله عليه وسلم من أدم وحشوه من ليف(١) » .

عن عمر بن الحارث قال :

[ما ترك رسول الله صلى الله عليه وسلم دينارا ولا درهما، ولا عبدا ولا أمة إلا بغلته البيضاء التى كان يركبها ، وسلاحا وأرضا جعلها لابن السبيل صدقة] .

فالعبرة الكبرى التى تملأ النفوس رهبة وجلالا ، وتخشع أمامها القلوب مهابة وتقديرا وإكبارا ، فتلك ما تتحدث الحجرة عنه من سيرة الرسول العظيم ، ومن سيرة صاحبيه أبى بكر الصديق وعمر

---

(١) هو الجلد المدبوغ .

ابن الخطاب وجهادهما فى سبيل الله ليظل لواء الإسلام العالم كله .

إن قبر الرسول العظيم لم يكن بحاجة إلى جواهر تضىء جوانبه وهو مضىء بالحقيقة العليا التى جاء بها صاحبه من عند الله العلى القدير هدى للناس ونورا . وليس البهرج الذى يخدع الناس به هو العبرة التى تلتمس فى هذه الحجرة الشريفة .

نحن نرى فى محمد بشرا رسولا يأكل الطعام ويمشى فى الأسواق فى فطرته السمحة وتواضعه الجم ، يأوى إليه الضعيف والخادم والمسكين ، الكل يدعوه فيستجيب لدعوته ويندبه لقضاء حاجته .

نرى الخلق الرضى الكريم ، والعفة المصونة ، نرى الحكمة البالغة والشجاعة النادرة ، نرى الحق يعرف الناس به ، والعدل يأوى العدو والصديق إليه ، نرى نفسا تعيش فى الأرض بخلق السماء ، وتحيا فى السماء بإقامة الحق فى الأرض ، ونرى الذكر المتصل والقلب الخاشع والنفس المطمئنة واللسان العف ، نرى الصدق والطهر والنقاء والإحسان والبر ، نرى النور والضياء ، نرى خاتم الأنبياء .



الفصل التاسع

آثار المدينة

إن ما يوجد بالمدينة اليوم من آثار يتصل كله بالرسول . فهو له ولأهله وأصحابه ، وهذه الآثار الباقية الخالدة على مر الزمن ، تؤكد بما لا يدع مجالا للشك على سمو روحى ، وصفاء قلب ، وطهارة يد ، وعفة لسان الذين شيدوها وأقاموا فيها . .

كان الرسول فى مكة داعياً إلى الحق الذى بعثه الله به باذلا حياته فى سبيل دعوته ، وكان بالمدينة مدافعاً عن هذا الحق وحرية الدعوة إليه ، مجاهداً فى سبيل نشر هذه الدعوة ليخرج الناس من الظلمات إلى النور .

يقول الكاتب الفرنسى « الفونس لامارتين » :

[إن حياة مثل حياة « محمد » وقوة كقوة تأمله وتفكيره وجهاده . ووثبته على خرافات أمته وجاهلية شعبه . وباسه فى لقاء ما لقيه من عبدة الأوثان . وإيمانه بالظفر ، وإعلاء كلمته ورباطة جأشه لتثبيت أركان العقيدة الإسلامية . إن كل ذلك أدلة على أنه لم يكن يضمر خداعا أو يعيش على باطل . فهو فيلسوف ، وخطيب ، ورسول ، ومشرع ،

وهادى الانسان إلى العقل ، وناشر العقائد المعقولة الموافقة للذهن واللب ومؤسس دين لا فردية فيه ولا صور ولا رقيات . ومنشىء عشرين دولة فى الأرض وفاتح دولة فى السماء من ناحية الروح والفؤاد . فأى رجل أدرك من العظمة الإنسانية مثل ما أدرك . أى إنسان بلغ من مراتب الكمال مثل ما بلغ) .

ويقول « طوراندريه » و « جورج مارسيه » فى كتابهما « العالم الشرقى » عن محمد صلى الله عليه وسلم : (كان شجاعا يخوض المعركة بنفسه ليرد الثبات إلى قلوب الذين يضعفون . وكان رحيما بالضعفاء يؤوى فى بيته عدداً كبيراً من المحتاجين . وكان مع احتفاظه بهيبته كاملة . بسيط الحركات لا يتكلف شيئاً . بشوشا سهل المعاملة . رقيق الحاشية لا يثير غضبه أهل الفضول والسماحة وكان محمد رجلا . وكان فيه لا شك كثير من الخلال التى اتسم بها رجال عصره . ولكنه حمل إلى هؤلاء الرجال مثلا رفيعاً فى الدين والأخلاق وسما سموا بالغا عن الآراء القديمة التى كانوا يرزحون تحت ثقلها وهو إذ جمعهم عصبة واحدة تحت راية ذلك المثل الرفيع قد صنع منهم قوة قدر لها فيما بعد أن تهز أركان العالم القديم) .

والآثار القائمة فى المدينة والتى امحى بعضها فما يكاد يبقى إلا اسمه ، تبعث أمام الذهن من صور الجهاد فى سبيل العقيدة والحق ما يهتز له وجود الإنسان كله إعجاباً وتقديراً ، وإيماناً بالله وثقة بنصره الحق .

من هذه الآثار طائفة تحيط بالمسجد النبوى لم تدخل فى عمارته حين زيادات عمر بن الخطاب وعثمان بن عفان والوليد والمهدى . وأكثر

هذه الآثار كانت دورا لأصحاب الرسول أو لجماعة من حكام المدينة تولوا أمورها فى عصر بنى أمية . وما بقى من هذه الآثار اليوم لا يشهد بما كانت عليه أيام أصحابها الذين تنسب إليهم ، بل اصابها من التحويل على الزمن ما أصاب كل شىء بالمدينة ، فبعضها اليوم أربطة محبوسة وقفا على طوائف من الفقراء ، وبعضها أحيلت مدارس فى عصر ما ثم أصبحت مخازن وما إليها ، وبعضها تهدم فما يجد الإنسان من أثره شيئاً يقف عنده .

وأول ما يلفت الذهن من أسماء هذه الآثار دار أبى أيوب الأنصارى ، وكانت منزل الرسول أول ما بلغ المدينة فى أثر هجرته من مكة .

وتقع دار أبى أيوب شرقى المسجد من ناحيته الجنوبية ، فهى بذلك قبالة الحجرة النبوية لا يفصل بينهما إلا الطريق ، وهى تلاصق دار جعفر الصادق الواقعة فى جنوبها ، ويفصل بينهما وبين دار عثمان بن عفان الواقعة فى شمالها زقاق يعرف بزقاق الحبشة ويقوم اليوم فى موضعها مسجد ذو قباب ومحراب ، وقد كتب على جداره الخارجى بحروف بارزة مذهبة : « هذا بيت أبى أيوب الأنصارى ، وفد النبى عليه الصلاة والسلام – سنة ١٢٩١ » مما يدل على أنها بنيت مسجداً فى هذا التاريخ أما قبل ذلك فليس يعرف عنها إلا أن مدرسة أقيمت فى موضعها سميت للدرسة الشهابية ، نسبة إلى بانيها الملك شهاب الدين غازى ، وذلك بعد أن بقيت خربة زمنا طويلا .

أما تاريخها القديم فسكل ما جاء عنه فى الروض الأنف ، للسهيلى أنها آلت بعد أبى أيوب إلى مولاه أفلح وهذا تركها حتى تخربت ثم باعها للمغيرة بن عبد الرحمن الذى قام بترميمها ثم تصدق بها على أهل بيت من فقراء المدينة أقاموا بها هم ومن بعدهم إلى أن تهدمت ، ثم تركوها عرصة ليس فيها أثر لبناء .

وتقع دار عثمان بن عفان إلى الشمال من دار أبى أيوب لا يفصل بينهما إلا زقاق الحبشة ، والمعروف أن عثمان كان له فى هذا المكان داران متصلتان بناهما فى عهد الرسول ، دار صغرى ودار كبرى . أما الدار الصغرى فيقوم موضعها اليوم رباط للمغاربة يدعى رباط سيدنا عثمان . وبهذا الرباط اليوم مكتبة تحوى كتب الفقه المالكى وغيره موضوعة فى خزانات تدل نقوشها على أنها من مصنوعات الدولة العباسية . ويقال ان هذه الخزانات كانت بالحرم وكانت مهداة إلى الحجرة النبوية ثم أخرجت منه ووضعت فى هذا الرباط .

أما الدار الكبرى فموضعها اليوم رباط العجم ، وهى مخصصة لشيخ الحرم النبوى ، وبها قبر أسد الدين شيركوه عم السلطان صلاح الدين الأيوبى وقبر والد صلاح الدين الذى دفن مع أخيه .

وقد روى ابن جبير فى رحلته أن عثمان استشهد فى هذه الدار الكبرى . وذكر السمهودى : أن قتلة عثمان تسوروا عليه من الدار الصغرى إلى الدار الكبرى التى كان يقطنها يومئذ . ومن العسير أن يحقق اليوم المكان الذى تسوروا منه أو الطريق الذى سلكوه فى إنتقالهم

بين الدارين بعد أن تغيرت هذه الدور ، وبعد أن أصبح تحديد الموضع الذى قتل عثمان فيه تحديداً دقيقاً غير ميسور .

كانت دار عثمان بن عفان من أفخم دور المدينة فى ذلك العصر ، وقد رأت هذه الدار فى عهد خلافة عثمان فتح الجيش الإسلامى بلاد الروم والفرس وامتداد رقعة الدولة الإسلامية إلى تونس وإلى قلب إيران ولكن غشى ذلك كله ما حدث فى آخر ذلك العهد حين اتخذ عثمان مروان بن الحكم كاتب سره وحين آثر بنى أمية على قريش وعلى الأنصار وعلى سائر المسلمين مما أدى إلى الفتنة وانتهى إلى قتله . غشى ذلك على هذا الفتح الذى انفسحت به رقعة الدولة الإسلامية ، وبقيت صحف التاريخ تقلب مقتل عثمان أمام الذهن فى صورة تثير النفس وتلذع بالألم كل مسلم لما ترتب على هذا الحادث من آثار ما زال خلف المسلمين يتناقلونها من سلفهم وحق ما قيل « إنما الأعمال بخواتيمها » ولو أن أجل عثمان حم قبل أن تثور الفتنة لإيثاره بنى أمية فمات ولم يقتل لتغير وجه التاريخ أغلب الأمر ، ولما نجمت فى المسلمين هذه الشيع التى أنشأها قتله والخلاف على دمه ، وما أثاره هذا الخلاف من حفائظ قديمة بين بنى هاشم وبنى أمية(١) تقع دار عثمان بن عفان إلى جوار المسجد من جهة الجنوب الشرقى ، وتقع دار مروان بن الحكم مقابلها من الجهة الجنوبية الغربية فى جوار باب السلام . وقد ولى مروان ابن الحكم إمارة المدينة فى عهد معاوية بن أبى سفيان بعد أن كان كاتب السر لعثمان بن عفان ، فاجرى من أعمال الإصلاح فيها ما جعل أهلها يلهجون بحمده والثناء عليه وينسبون باب السلام إليه

(١) السمهودى — ج ١ ص ٥٣٠

فيسمونه باب مروان ويظلون على ذلك إلى عهد العباسيين . أجرى مروان العين الزرقاء ، ورصف أطراف المسجد النبوى بالحجارة(١) وجعل المدينة من أموال الفتح الأموى مالعله أنساها مقتل على ابن أبى طالب بالكوفة لولا مقتل الحسين ابنه بعد ذلك بكربلاء . وسخاء مروان هو الذى جعل للمدينة أقل مقاومة من مكة فى عهد معاوية وأول أيام يزيد .

ولأبى بكر الصديق خوخة بجوار المسجد ، وله دار تجاور دار عثمان بن عفان من الشمال ولا يفصل بينهما إلا طريق البقيع ، وهذه الدار هى التى مات بها .

وليس حول المسجد مكان ثابت النسب إلى عمر بن الخطاب باعتباره موضع داره ، وإن حاول بعضهم أن ينسب إليه دارا فى شمال المسجد لكنها تقع فى جنوب المسجد دار تطل على الحجرة النبوية تعرف بدار آل عمر ، ويقول السمهودى : إنها دار عبد الله بن الخطاب ، آلت إليه عن أخته حفصة أم المؤمنين . وكان لهذه الدار نفق يصلها بالمسجد سنة ٨٨٨ من الهجرة إذ سد هذا النفق وردم بالتراب .

ولا تعرف باسم على بن أبى طالب دار ولا موضع لدار فيما حول المسجد ، وإنما يعرف باسم زوجه فاطمة ابنة الرسول مكان من الحجرة النبوية يزعم بعضهم أنها مدفونة فيه ، والرواية الراجحة أنه موضع دارها التى كانت تقيم بها والتى أقام بها أبناء ابنيها الحسن والحسين من

(١) فى منزل الوحى ص ٥٠٠

بعدها حتى ضمها الوليد بن عبد الملك إلى المسجد ، أما قبرها فبالبقيع . وقبالة باب النساء من أبواب المسجد ، وإلى جانب الأثر الباقي من دار أبي بكر الصديق ، قبة صغيرة مبنية باللبن والطين واقعة بمقدم رباط يسمونه رباط خالد بن الوليد . هذه القبة تقوم في الموضع الذي كانت تقوم فيه دار خالد بن الوليد . ويعيد صغرها إلى الذاكرة ضيق هذه الدار ضيقاً شكا خالد بن الوليد منه إلى الرسول ، فقال له: « ارفع البناء في السماء ، وسل الله السعة » .

وإلى جوار المسجد مواضع يقال ان دور عمرو بن العاص ، وسكينة بنت الحسين كانت بها . موضع دار سكينة ينسب إلى تميم الداري الصحابي المعروف . كذلك يروى ان الدار التي كان يجري عمر ابن الخطاب فيها قضاءه كانت في الموضع الذي تقوم به المحمودية الآن . وهذه مجموعة من الدور كانت قائمة في عهد الرسول وفي العصر الذي تلاه تفاخر بها المدينة كل مدينة سواها .

وبالمدينة عدد من المساجد سنتحدث عنها من بعد .

مسجد القبلتين : في الشمال الغربي للمدينة في رابية على شفير وادي العقيق الصغير ، وممن عمره وجدد سقفه الشجاعي شاهين الجمالي شيخ الخدم بالمسجد النبوي وذلك في سنة ٨٩٣ هـ . وجدده السلطان سليمان

وقد سمي بمسجد القبلتين لما رواه يحي عن عثمان بن محمد بن الأخنس ، قال : زار رسول الله صلى الله عليه وسلم أم بشر بن البراء في بني سلمة فصنعت له طعاماً فأكل هو وصحبه ثم جاءت الظهر فصلاها

بأصحابه فى مسجد القبلتين ولما ان صلى ركعتين منها أمر ان يتوجه إلى الكعبة فاستدار هو وصحبه إليها[1] — قال الزمخشرى : وحول الرجال مكان النساء والنساء مكان الرجال — واستقبل الميزاب فهى القبلة التى قال الله تعالى : « فلنولينك قبلة ترضاها » فسمى من أجل ذلك بمسجد القبلتين ، وروى عن محمد بن جابر مايخالف ذلك فإنه قال : صرفت القبلة ونفر من بنى سلمة يصلون الظهر فى المسجد الذى يقال له : مسجد القبلتين فأتاهم آت فأخبرهم وقد صلوا ركعتين فاستداروا حتى جعلوا وجوههم إلى الكعبة ، وفى رواية البراء بن عازب عند البخارى فى ذكر قصة التحويل : فصلى مع النبى صلى الله عليه وسلم رجل ثم خرج بعد ما صلى فمر على قوم من الأنصار يصلون فى صلاة العصر نحو بيت المقدس فقال هو يشهد أنه صلى مع رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنه توجه نحو الكعبة فتحرف القوم حتى توجهوا نحو الكعبة .

وروى يحيى بن رافع بن خديج أن التحويل كان بمسجد الرسول صلى الله عليه وسلم وهو يصلى الظهر ، وفى الصحيحين عن ابن عمر قال : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد أنزل عليه الليلة قرآن وقد أمر أن يستقبل الكعبة ألا فاستقبلوها وكانت قبلة الناس إلى الشام ، فاستداروا وتوجهوا إلى الكعبة . وهذه الروايات مع تضاربها فى تعيين المسجد الذى كان يصلى فيه الرسول حينما حولت القبلة وتضاربها فى الصلاة التى كان التحويل أثناءها تفيد فى مجموعها تعدد المساجد التى

---

(١) السمهودى : ج ٢ ص ٨٤

حولت القبلة فيها أثناء الصلاة بل كل مسجد صلى فيه نحو البيتين فهو ذو قبلتين فلا معنى لتخصيص مسجد بنى سلمة بهذه التسمية ، اللهم إلا أن تقول ماقاله الحافظ بن حجر من أن التحقيق أن أول صلاة صلاها فى بنى سلمة الظهر ، وأن أول صلاة صلاها بالمسجد النبوى العصر فحينئذ يكون مسجد بنى سلمة أولى بالتسمية لأنه أول مسجد صليت فيه صلاة واحدة إلى القبلتين وحصل ذلك بعده فى عدة مساجد[1] .

مسجد الفتح : فى شمال المدينة الغربى جبل « سلع » على قطعة منه ويسمى أيضاً بمسجد الأحزاب والمسجد الأعلى ، وهذا المسجد فى المكان الذى قام فيه الرسول يدعو على الأحزاب فى غزوة الخندق فاستجاب الله دعاءه وأرسل عليهم ريحاً كفأت قدورهم وقلعت خيامهم وجنوداً لم يروها فانخذلوا ورحلوا .

وكان الدعاء الذى دعا به الرسول — كما رواه ابن زبالة من طريق عمر بن الحكم :

« اللهم لك الحمد هديتنى من الضلالة فلا مكرم لمن أهنت ، ولا مهين لمن أكرمت ، ولا معز لمن أذللت ، ولا مذل لمن أعززت ، ولا ناصر لمن خذلت ، ولا خاذل لمن نصرت ، ولا معطى لما منعت ، ولا مانع لما أعطيت ، ولا رازق لمن حرمت ، ولا حارم لمن رزقت ، ولا رافع لمن خفضت ، ولا خافض لمن رفعت ، ولا خارق لمن سترت ولا

---

(١) إبراهيم رفعت : مرآة الحرمين جـ ١ ص ٤١٦

ساتر لمن خرقت ، ولا مقرب لمن باعدت ، ولا مباعد لمن قربت »
وروبت أدعية أخرى(١) . أحسنها مافى الصحيح من حديث ابن عمر :
أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يدعو عند الكرب لا إله إلا الله العظيم
الحليم ، لا إله إلا الله رب العرش العظيم ، لا إله إلا الله رب السموات
ورب الأرضين رب العرش الكريم .

وهذا المسجد عمره عمر بن عبد العزيز وكان رواقا واحداً ذا
أعمدة ثلاثة ولكنه تخرب لجدده فى سنة ٥٧٥ هـ الأمير سيف الدين
الحسين بن أبى الهيجاء أحد وزراء العبيديين ملوك مصر وجعله
رواقاً واحداً ذا عقود ثلاثة وقباه قبواً محكما . وأسفل مسجد الفتح
من جهة الجنوب مسجدان آخران يقال للأول منهما : مسجد سلمان
وللذى فى جنوبيه مسجد على بن أبى طالب . وقد جدد المسجدين
الأمير سيف الدين سالف الذكر فى سنة ٥٧٧ هـ وجدد الثانى أمير
المدينة زين الدين ضيغم بن حشرم سنة ٨٧٦ هـ .

مسجد الاجابة : فى شمال البقيع ، فوق تلال هى آثار قرية بنى
معاوية بن مالك بن عوف من الأوس وهو مسجدهم ، وسبب هذه
التسمية مارواه مسلم فى صحيحه من حديث عامر بن سعد عن أبيه أن
رسول الله صلى الله عليه وسلم أقبل ذات يوم من العالية حتى إذا مر
بمسجد بنى معاوية دخل فركع ركعتين وصلينا معه ودعا ربه طويلا
ثم انصرف إلينا فقال : سألت ربى ثلاثاً فأعطانى اثنتين ومنعنى

(١) السمهودى ج ٢ ص ٧٢

واحدة : سألته أن لايهلك أمتى بالسنة — بالجدب — فأعطانى وسألته أن لايهلك أمتى بالغرق فأعطانيها وسألته أن لايجعل بأسهم بينهم فمنعنيها .

وقد ذرع صاحب وفاء الوفا هذا المسجد فى القرن التاسع فإذا هو من الشمال إلى الجنوب عشرون متراً تنقص قليلا ، ومن الشرق إلى الغرب ٢٥ متراً تنقص يسيراً .

مسجد الراية : هذا المسجد على يسار الداخل إلى المدينة من طريق الشام فوق جبل ذباب ولهذا يسمى مسجد ذباب أيضاً . وقد روى ابن شبة عن عبد الرحمن الأعرج أن النبى صلى الله عليه وسلم صلى على ذباب ، وروى أيضاً عن عبد الرحمن بن أبى سعيد الخدرى أن النبى صلى الله عليه وسلم ضرب قبته عليه فى غزوة الخندق ، وسبب تسميته بمسجد الراية ما رواه الواقدى أن يزيد ابن هرمز كان يقاتل بالموالى على ظهر ذباب وكان رئيسهم يحمل الراية لهم(١) .

مسجد السقيا : السقيا بئر بحرة المدينة الغربية ، وهذا المسجد عندها ومكانه الآن قبة شهيرة تسمى بقبة الروس عند باب العنبرية روى الترمذى وقال حسن صحيح عن على بن أبى طالب قال : خرجنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فى غزوة بدر حتى إذا كنا

---

(١) المصدر السابق ص ٥٠

بحرة السقيا التى كانت لسعد بن أبى وقاص فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أئتونى بوضوء فتوضأ ثم قام فاستقبل القبلة فقال : اللهم إن إبراهيم كان عبدك وخليلك ودعاك لأهل مكة بالبركة وأنا عبدك ورسولك أدعوك لأهل المدينة أن تبارك لهم فى مدهم وصاعهم مثل ما باركت لأهل مكة مع البركة بركتين . وفى بعض الروايات عند احمد والطبرانى أنه صلى هناك فأقيم المسجد حيث صلى عليه السلام .

مسجد الفضيخ : هذا المسجد شرقى مسجد قباء على شفير الوادى فى نشز من الأرض وهو مسجد صغير قال السمهودى : إنه أحد عشر متراً فى مثلها وسبب تسميته بذلك ما روى إبن شبة عن جابر بن عبد الله أن النبى صلى الله عليه وسلم لما حاصر بنى النضير ضرب قبته قريباً من مسجد الفضيخ وصلى فى موضع هذا المسجد ست ليال المما حرمت الخمر خرج الخبر إلى أبى أيوب فى نفر من الأنصار وهم يشربون فيه فضيخاً فحلوا وكاء السقاء فهراقوه فيه ، فبذلك سمى مسجد الفضيخ ، والفضيخ عصير العنب وشراب يتخذ من بسر مفضوح . ويقال لهذا المسجد : مسجد الشمس وقيل فى تعليل ذلك أنه فى مكان مرتفع شرقى مسجد قباء فأول ما تطلع الشمس تطلع عليه .

مسجد بنى قريظة : شرقى مسجد الفضيخ بعيد عنه بالقرب من الحرة الشرقية . والظاهر أنه الذى ورد ذكره فى حديث الصحيحين عن أبى سعيد الخدرى قال : نزل أهل قريظة على حكم سعد بن معاذ فأرسل رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى سعد فأتى على حمار فدنا

قريباً من المسجد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم للأنصار : قوموا إلى سيدكم أو خيركم ثم قال : إن هؤلاء قد نزلوا على حكمك .

فقال : تقتل مقاتلتهم وتسبي ذريتهم — الحديث —

وقد قاس السمهودي هـذا المسجد — في القرن التاسع فإذا هو ٤٤ ١/٤ متراً من الشمال إلى الجنوب في عرض ٤٣ متراً وقال : إنه يحيط به جدار إرتفاعه نصف القامة . وأن هـذا الجدار جدده الشجاعي شاهين الجمالي شيخ الحرم النبوي في سنة ٨٩٣ هـ[١] .

مسجد بني ظفر : ويعرف أيضاً بمسـجد البغلة وهو شرقي البقيع بطرف الحرة الغربية . روى الطبراني بسند رجال ثقات عن محمد إبن فضالة الظفري وكان ممن صحب النبي صلى الله عليه وسلم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أتاهم في مسجد بني ظفر فجلس على الصخرة التي في مسـجدهم ومعه عبد الله بن مسعود ومعاذ بن جبل وأناس من أصحابه وأمر النبي صلى الله عليه وسلم قارئاً فقرأ حتى أتى على هـذه الآية : « فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيداً » . فبكى رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى إضطرب لحياه فقال : أي رب شهيد على من أنا بين ظهرانيه فكيف بمن لم أره . وعند هذا المسجد آثار في الحرة من جهـة القبلة يزعمون أن أحدها أثر حافر بغلة الرسول صلى الله عليه وسلم ، وغربي هـذا الأثر مرفق

---

(١) السمهودي – ج ٢ ص ٣٥ .

غائص فى الحجر يزعمون أن الرسول اتكأ عليه ووضع مرفقه الشريف عليه فلان له الحجر .

وممن عمر هذا المسجد المستنصر بالله أبو جعفر المنصور سنة ٦٣٠ هـ .

مسجد أبى بن كعب : ويعرف أيضاً بمسجد بنى جديلة ، هذا المسجد غربى مشهد عقيل وأمهات المؤمنين على يمين الخارج من درب البقيع ، روى عمر بن شبة عن يحيى بن سعيد أن النبى صلى الله عليه وسلم كان يختلف إلى مسجد أبى وأنه صلى فيه كثيراً ، وقد كان هذا المسجد متخرباً ، وكانت توضع فيه آلات الحفارين فجددته الدولة العثمانية مع محرابه وأحكمت بناءه(١) .

وفى المدينة مساجد أخرى غير ما ذكرنا منها مسجد عروة ، ومسجد المائدة ، ومسجد الجمعة ومسجد قباء .

مصلى العيد : هو المعروف الآن بمسجد الغمامة — وحقيقة مسجد الغمامة ببدر — أول عيد صلاه الرسول سنة ٢ من الهجرة ، وكان يصلى فى الفضاء وكانت تحمل إليه العنزة فيصلى إليها ، والعنزة رميح بين العصا والرمح فيه زج — الحديدة فى أسفل الرمح — وكانت للزبير بن العوام أعطاه إياها النجاشى فوهبها للرسول . فكان يخرج بها بين يديه يوم العيد ، وقد صلى العيد فى أماكن مختلفة ولكنه فى

---

(١) مرآة الحرمين ، ص ٤٢٠ .

سنيه الأخيرة دوام على صلاة العيد بمصلاه المعروف الآن بالمناخة غربى المدينة . وقد جاء فى زاد المعاد[1] أنه صلى الله عليه وسلم كان يصلى العيدين فى المصلى الذى على باب المدينة الشرقى وهو المصلى الذى يوضع فيه محمل الحاج ، وأظن أن كلمة الشرقى سهو لأن ما بعدها يدل على أنه الغربى لأن المناخة فى الجهة الغربية ، وهذا المصلى بينه وبين مسجد الرسول ما يقرب من نصف كيلو متر ، ولم يكن به بناء فى عهد الرسول وإنما كان فضاء وقد ثبت النهى عن تضييقه والبناء فيه ، فعن أنس ابن مالك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم خرج إلى المصلى يستسقى فبدأ بالخطبة ثم صلى وكبر واحدة إفتتح بها الصلاة وقال : « هذا مجمعنا ومستمطرنا ومدعانا لعيدنا ولفطرنا وأضحانا فلا يبنى فيه لبنة على لبنة ولا جهة » وفى بعض الروايات « هذا مستمطرنا ومصلانا لأضحانا وفطرنا لايضيق ولا ينتقص منه شىء[2]. وكان الرسول بعد أن ينصرف من صلاته يقوم مستقبل الناس فيخطبهم ولم يكن له منبر يقوم عليه كما دل على ذلك حديث أبى سعيد الخدرى فى البخارى ، قال : كان النبى صلى الله عليه وسلم يخرج يوم الفطر والأضحى إلى المصلى فأول شىء يبدأ به الصلاة ثم ينصرف فيقوم مقابل الناس والناس جلوس على صفوفهم فيعظهم ويوصيهم ويأمرهم فإن كان يريد أن يقطع بعثاً قطعة أو يأمر بشىء أمر به ثم ينصرف ، فقال أبو سعيد : فلم يزل الناس

---

(١) الجزء الأول ص ١٢٠

(٢) السمهودى ج ٢ ص ١١

على ذلك حتى خرجت مع مروان وهو أمير المدينة فى أضحى أو فطر فلما أتينا المصلى إذا منبر بناه كثير بن الصلت وإذا مروان يريد أن يرتقيه قبل أن يصلى فجذبته بثوبى فجذبنى فارتفع فخطب قبل الصلاة فقلت له : غيرتم والله فقال : أبا سعيد قد ذهب ما تعلم ، فقلت : والله ما أعلم خير مما لا أعلم . فقال : إن الناس لم يكونوا يجلسون لنا بعد الصلاة فجعلتها قبل الصلاة . ذكر ذلك البخارى فى باب الخروج إلى المصلى بغير منبر ، وكان الرسول يذهب إلى المصلى من الطريق العظمى ، ويرجع من طريق آخر ليسلم على أهل الطريقين ويقضى حاجة من له حاجة منها ويشهد البقاع ويظهر شعائر الإسلام ، والطريق العظمى هى المعروفة بدرب السويقة والطريق الأخرى غربى طريق بنى زريق وهى ضعف تلك فى المسافة وسور المدينة الآن يمنع سلوكها .

وقد أقيم فى بعض المصلى بناه بمسجد المصلى أو مسجد الغمامة ، وفى شماليه مسجد يعرف بمسجد أبى بكر الصديق ، وفى شمالى المسجد الأخير مسجد يعرف بمسجد على بن أبى طالب عمره أمير المدينة زين الدين ضغيم المنصورى سنة ٨٨١ هـ .

ومسجد المصلى عمره بعد خرابه السلطان حسن بن السلطان محمد بن قلاوون ، ولا ندرى تاريخ العمارة وإنما تولى السلطان حسن من سنة ٧٤٨ هـ إلى سنة ٧٦٢ هـ . ورممه الأمير برديك المعمار سنة ٨٦١ هـ ؛ فى دولة الأشرف إينال وأحدث سقفاً خارج المسجد يجلس عليه المبلغون ومدرجاً خارجه على ميمنة الداخل من بابه يقوم

عليه الخطيب . أما المسجد الآن فإنه ذو قباب ثمان ومبنى بناء متقناً بالآجر الأسود(١).

قبر حمزة بن عبد المطلب : كان لحمزة قبر ومسجد هدمهما الوهابيون(٢) . ولقد كان على القبر الذى بالمسجد لوحة فيها هذان البيتان :

قف على أبوابنا فى كل ضيق — واطلب الحاجات وأبشر بالمنى
فحمانا ملجأ للطالبين — وبنا تجلى الكروب والعنا

وضعف هذين البيتين يصف قائلهما ومبلغ ثقافته : بيد أن هذه العقلية تصور عقيدة كثيرين من زوار قبر حمزة ، وعقيدة كثيرين من المسلمين فى أنحاء الأرض ، فهم يخلعون على أبطال الماضى من صفات العبادة ما يجعلهم فى حكم الأرباب وما يدعو هؤلاء الناس أن يتخذوهم إلى الله زلفى . وهذا أمر ينكره الإسلام حين ينكر على الناس أن يتخذ بعضهم بعضا أربابا من دون الله ، الأموات والأحياء فى ذلك سواء.

[قل : يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم : ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئا . ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله (٣)] .

ويحرص الإسلام على هذا المعنى حرصا شديدا ، فينكره عليه

(١) مرآة الحرمين : ٤٢٢ .
(٢) منزل الوحى : ص ٥٣٤
(٣) سورة آل عمران : ٦٤

القرآن في مناسبات شتى . ولما كان الأنبياء هم مظنة أن يتجه إليهم الناس بشيء من العبادة ، أو ما في معناها على وجه من الوجوه ، فقد عني الإسلام بتحرير الوجدان البشري من هذه الناحية تحريراً كاملا .

يقول عن نبيه محمد صلى الله عليه وسلم :

[وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم(1)] .

ويأمره أن يجهر بحقيقة موقفه جهراً :

[قل : إنما أدعو ربي ولا أشرك به أحداً ، قل : إني لا أملك لكم ضراً ولا رشداً .

قل : إني لن يجيرني من الله أحد ، ولن أجد من دونه ملتحداً(2)] .

نسي بعض الناس هذا المعنى في كثير من العصور ، ولا يزال أكثرهم ينساه ، فقد جعلت من بعض الصالحين أولياء اتخذتهم إلى الله زلفى ولهؤلاء بنت القباب وأقامت عليها المساجد ، لا تقصد تخليد ذكراهم ليكون في الذكرى للأجيال أسوة حسنة ، بل تقصد أن تكون القباب والمساجد محاريب لعبادتهم والتوسل بهم إلى الله . إلى ذلك قصد الذين أقاموا على قبر حمزة قبة ومسجداً ، وكتبوا عليه من الشعر ما أثبتنا هنا بعضه وتركنا سائره . ولو أنهم أقاموا القبة

---

(1) سورة آل عمران : ١٤٤

(2) سورة الجن : ٢٠ – ٢٢

والمسجد للأسوة ، والذكرى لكان ذلك خيرا ، ولحق لهم الثناء على نيتهم وعملهم .

وإنما الأعمال بالنيات ولكل امرىء ما نوى .

لم يبق لقبة حمزة ولا لمسجده اليوم أثر . فقد عفا الوهابيون عليها ثم أقاموا مكانهما قبرا يقوم فوقه بناء أسطوانى من حجر ضارب إلى السواد يرتفع عن الأرض نحو ذراع . وكان المسجد قبل هدمه محكم البناء خاليا من الزخارف ، به قبة فوق مقصورة أسدل عليها ستر من أستار الكعبة — كما يقول صاحب مرآة الحرمين فى وصفه — وأم الخليفة الناصر العباسى هى التى شيدت مسجد حمزة عام ٥٩٠ هـ وقد أمر الأشرف قايتباى فزاد شاهين الجمالى فى جهته الغربية وحفر له بئرا يرتفق بها المارة وجعل لها درجا ، وأتم ذلك فى سنة ٨٩٣ ، وكان المسجد قائما فوق القبر حيث يقوم البناء الاسطوانى الوهابى اليوم .

وقد اختلف فى موضع القبر : أهو اليوم فى المكان الذى دفن به حمزة بعد مصرعه فى أحد أم هو فى مكان غيره ؟ تذهب رواية إلى أن حمزة دفن فى المكان الذى صرع فيه ، حتى إذا كان القرن الرابع انحط من جبال الطائف سيل جارف اجتاز المدينة ومر بقبر حمزة وكشف عن ساقيه ، فنقل إلى الربوة التى بها القبر اليوم وكان عليها المسجد حتى هدم . وتذهب رواية أخرى إلى أنه صرع تحت جبل الرماة . وهو جبل عينين ، وأن الرسول أمر بجثمانه فنقل من بطن الوادى إلى الربوة التى عليها القبر الآن ، فالمدفن غير المصرع .

ويريد بعضهم التوفيق بين الروايتين فيذكر أن الربوة التى نقل الجثمان إليها فى أعقاب الغزوة قد تكون غير الربوة التى نقل إليها الرفات فى أوائل القرن الرابع. وهذا التوفيق ليس له عندى مايقتضيه فلئن كان جثمان حمزة قد نقل فى أعقاب الغزوة لهو اليوم فى المكان الذى نقل إليه يومئذ، فهو قريب من المقبرة التى دفن بها سائر شهداء أحد. وقد دفنوا فى ميدان المعركة. وليس بين مقبرتهم والمكان الذى يقال أنه مصرع حمزة ما يدعو إلى نقل جثمانه غير مرة(١).

البقيع: موضع مستطيل شرقى المدينة طوله ١٥٠ مترا فى عرض ١٠٠، ويقال له بقيع الغرقد لأن هذا النوع من الشجر كان كثيراً فيه ولكنه قطع. والبقيع فى أصل اللغة: الموضع الذى به أروم الشجر من ضروب شتى، والغرقد كبار العوسج.

وهذا الموضع به مقابر كثير من الصحابة والتابعين وكبار المسلمين ففيه مقابر إبراهيم ورقية وفاطمة أولاد الرسول، وفاطمة بنت أسد أم على بن أبى طالب، وعبد الرحمن بن عوف وعبد الله بن مسعود وسعد بن أبى وقاص وأسعد بن زرارة وخنيس بن حذافة السهمى. والحسن بن على، ومعه فى قبره ابن أخيه زين العابدين على بن الحسين وأبو جعفر الباقر محمد بن زين العابدين وجعفر الصادق بن الباقر. وممن علم قبره بالبقيع العباس بن عبد المطلب وأخته صفية. وابن أخيها أبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب وعثمان بن عفان، وسعد بن معاذ وأبو سعيد الخدرى. وكل زوجات الرسول دفن بالمدينة

(١) فى منزل الوحى: ص ٥٣٨.

إلا خديجة فبمكة وميمونة فبسرف . وكان بالبقيع قباب كثيرة هدمها الوهابيون .

وكان الرسول يزور بقيع الغرقد ويدعو لأهله بل أمره ربه بذلك كما يدل عليه حديث عائشة عند مسلم والنسائي فإن فيه أن جبريل قال للنبي صلى الله عليه وسلم : إن ربك يأمرك أن تأتي أهل البقيع فتستغفر لهم.

إن في تاريخ هذه البقعة والذين دفنوا بها لأبلغ العبرة ؛ وهو يكشف من تاريخ الإنسانية عن شيء كثير ما أحوج العالم إلى أن يقف عليه . فهؤلاء جميعا من أصحاب الرسول ، وهم إذن عرب من أبناء الجزيرة ، فما اتخذوه في حياتهم من عمل أدنى إلى تصوير الروح الحق لهذا الدين الحنيف وإلى هداية الناس لهذا الروح . وما أشد حاجة الناس إلى هذه الهداية . .

مؤسسة دار الشعب
للصحافة والطباعة والنشر
٩٢ شارع قصر العيني . القاهرة
تليفون ٣١٨١٠ - ٣١٨١٧ - ٣١٨١٨
٣١٨١٩ - ٣٢٠٨٤ - ٢٩٩٩١
فرع القاهرة

(رقم الإيداع بدار الكتب ٥٣٦٥ لسنة ١٩٧٦ م ١٣٩٦ هـ)